

مكتبة ياسمين
القائمة الطويلة لجائزة (دوبلين) الأدبية ٢٠١٩
ترشحت لجائزة الإنجاز الأدبي في (زيمبابوي) ٢٠١٩
أدب أفريقي
سو نياثي
الباحثات عن الذهب
ترجمها عن الإنجليزية: طارق نادر
منشورات الربيع

الباحثات عن الذهب

لقد سبق له التفكير بتقسيم البلد على حسب القبائل، سيفعل هذا بالطبع عندما يُحقق حُلمه ويُصبح رئيسًا للبلاد، حينها لن يكون هناك انقطاع للكهرباء أو الماء أو نقص في الوقود، ستصبح (بولاوايو) مدينة عامرة بفرص العمل لأبناء قبيلته، فرص عمل كان من السهل الحصول عليها لو لم يتم نهب خير هذه المدينة التي أصبحت أشبه بعاهرةٍ أرهقتها الحياة.

امتعض (ميلوزي) وأوشك على طرد الزوجين خارج السَّيارة، لقد كان خطأ قبيلة الشونا، هم المتسببون في الصراعات المحلية الدائرة بالبلاد وها هُم الآن يسعون للهرب إلى (جنوب إفريقيا).

لم يعد قادرًا على إيجاد فرصة عمل مناسبة لأنه وُلد في القبيلة الخاطئة. إن كونك من قبيلة (ندييلي) ليس أكثر من لعنة في (زيمبابوي). لقد مات والده وأعمامه الثلاثة في مذابح (جوكوراهوندي) عام ١٩٨٦، أما والدته فأصابها العرج بعدما تعرضت للضرب المُبرح أمام منزلهم حين رفضت تقديم الطعام لجنود الفيلق الخامس.

لم تكن عائلته الوحيدة التي تعرضت لتلك المآسي فقد حرص الجنود على سحل الرجال أمام منازلهم وقتلهم بدماء باردة، ولم يترددوا في اغتصاب النساء والأطفال. أطلق المؤرخون على تلك الفترة.. حقبة التطهير العرقي. بالنسبةِ لميلوزي كان الأمر بمثابة التعميد بالنيران.

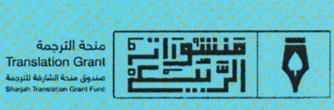
حدّق في الزوجين خلفَه عبر مرآة السَّيارة وقال:

"هل تسمعان؟ في سيارتي نتحدث النديبيلي فقط. إنها سيارتي.. أنا أضع القواعد هنا".



ISBN 978-977-6765-63-4
9789776765634
...biebooks.com







القائمة الطويلة لجائزة (دوبلين) الأدبية 2019

ترشحت لجائزة الإنجاز الأدبي في (زيمبابوي) 2019

سونياثي

الباحثات عن الذهب

ترجمها عن الإنجليزية: طارق نادر



t.me/yasmeenbook



الباحثات عن الذهب،

أدب أفريقي، رواية
نياثي، سو

ترجمة: نادر، طارق
منشورات الربيع، القاهرة
الطبعة الأولى يناير 2023
رقم الإيداع 4149/ 2023
ردمك 978-977-6765-63-4
موديل الغلاف: بوليانا
تصوير: أحمد مليج
أزياء: عبد الحق محمد
غلاف: إسلام أحمد

منشورات الربيع
المدير العام
هالة الشربيني
المحرر العام
أحمد سعيد عبد المنعم

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

alrabiebooks.com
info@alrabiebooks.com
+2 0100 7552 598



الجزءُ الأوَّلُ
(الخروجُ)

فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى:

«الآنَ تَنْظُرُ مَا أنَا أَفعَلُ بِفِرعَونَ.

فَإِنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ يُطلِقُهُمْ،

وَبِيَدٍ قَوِيَّةٍ يَطرُدُهُمْ مِن أَرضِهِ».

سفر الخروج: ٦ - ١

1

توقَّفتِ السَّيَّارة التُّويوتا كوانتُم في الباحة الأماميَّة لجراج (ماكس). الجميع في (بولاوايو)[1] يعرفونَ جراج (ماكس)، لم يكن مُجرَّد محطَّة للتَّزوُّد بالوقود وإصلاح السَّيَّارات، بل كان أشبَهَ بصالة المغادرة في أحد المطارات. كما أنَّه بوَّابة القادمينَ من جنوب البلاد، يُرحِّب بك إلى القلب النابض لمدينة الملوك الغارقة في الكساد الاقتصادي! كانت المتاجر والمطاعم الشهيرة سببًا في حيوية هذا الجزء من المدينة. جميع المارِّين من هنا هم ضحايا يسهل خداعُهم على يد المُحتالين والنشَّالين والبائعين الذين يرسمون على وجوههم ابتسامةً زائفةً.

تفحَّص (ميلوزي) سائق الكوانتم حيوية المشهد أمامه، لاحظ امرأةً جالسةً على الرصيف تحمل طفلها على صدرها وأمامها سِلال الموز الذي تبيعه للمارة، تعجَّب كم موزة عليها أن تبيع كي تربح من عملها هذا؟ هل يمكن لأي شخص أن يعيش على هذا القدر الضئيل من المكسب؟ هزّ رأسه باستياء، لم تكن الحياة هنا غير عادلة وحسب بل قاسية بشكلٍ موحش.

1 ثاني أكبر المدن في زيمبابوي بعد العاصمة هراري.

شعر بقليل من البهجة عندما تذكَّر أنه سيقود سيارته خارجًا من هذا المستنقع، مُجرد بهجة عابرة لا أكثر إذ يتوجَّب عليه العودة إلى المدينة التي لن تتحسَّن أحوالُها أبدًا، بل على الأرجح أنها ستسوء. لهذا السبب زاد عدد الرُّكاب في سيارته على مدار الأشهُر الماضية، جميعُهم يتشاركون هدفًا واحدًا.. الرغبة في العثور على الملجأ بين ذراعي جارتهم (جنوب إفريقيا).

لطالما استمع لكثير من المُحادثات في سيارته، مُحادثات كتلك الدائرة الآن في المقعد خلفه. يتحدث شاب وفتاة بصوتٍ مرتفع بلغة الشونا[1]، لقد حضرا لسيارته معًا وأصرَّا على الجلوس في نفس المقعد. افترض (ميلوزي) أنهما زوجان وابتسم بامتعاض وهو يستمع لهما، كان مؤمنًا بضرورة منع هذه اللغة في (ماتابيليلاند).

لقد سبق له التفكير بتقسيم البلد على حسب القبائل، سيفعل هذا بالطبع عندما يُحقق حُلمه ويُصبح رئيسًا للبلاد، حينها ستنقسم إلى (ماتابيليلاند) و(مانيكالاند) و(ماشونالاند) أما الذين لا ينتمون لأيٍّ من هذه القبائل فيُمكنهم الانضمام إلى (أزرلاند).

عندما يصبح رئيسًا للبلاد، لن يكون هناك انقطاع للكهرباء أو الماء أو نقص في الوقود، ستصبح (بولاوايو) مدينة عامرة بفرص العمل لأبناء قبيلته (نديبيلي)، فرص عمل كان من السهل الحصول عليها لو لم يتم نهب خير هذه المدينة التي أصبحت أشبه بعاهرةٍ أرهقتها الحياة.

امتعض (ميلوزي) وأوشك على طرد الزوجين خارج السَّيَّارة، لقد كان خطأ قبيلة الشونا، هم المتسببون في الصراعات المحلية

---

1 إحدى القبائل في زيمبابوي.

الدائرة بالبلاد وها هُم الآن يسعون للهرب إلى (جنوب إفريقيا).

لم يعد قادرًا على إيجاد فرصة عمل مناسبة لأنه وُلِد في القبيلة الخاطئة. إن كونك من قبيلة (نديبيلي) ليس أكثر من لعنة في (زيمبابوي). لقد مات والده وأعمامه الثلاثة في مذابح (جوكوراهوندي)[1] عام ١٩٨٦، أما والدته فأصابها العرج بعدما تعرضت للضرب المُبرح أمام منزلهم حين رفضت تقديم الطعام لجنود الفيلق الخامس.

لم تكن عائلته الوحيدة التي تعرضت لتلك المآسي بل تعرض الكثير من المنازل للحرق والهدم، حرص الجنود على سحل الرجال أمام منازلهم وقتلهم بدماء باردة، ولم يترددوا لحظةً في اغتصاب النساء والأطفال. أطلق المؤرخون على تلك الفترة.. حقبة التطهير العرقي. بالنسبةِ لميلوزي كان الأمر بمثابة التعميد بالنيران.

حدّق في الزوجين خلفَه عبر مرآة السَّيَّارة وقال:

"في سيارتي نتحدث فقط لغة النديبيلي".

تبادل الزوجان النظرات الحائرة مُتعجبين إن كان يقصدهما بكلامه.

"هل تسمعان؟ في سيارتي نتحدث النديبيلي فقط".

"ميلوزي.. أرجوك!"

اعترضت المرأة الجالسة إلى جواره، لكنه رد:

"إنها سيارتي.. أنا أضع القواعد هنا".

1 مذابح للتطهير العرقي في زيمبابوي بدأت عام ١٩٨٢ وانتهت بمقتل ثلاثين ألفًا.

يُمكن لأبناء الشونا السيطرة على الوضع في أي مكان بالبلاد عدا سيارته، هو مالك هذه السَّيَّارة التي يستخدمها في نقل البضائع والأشخاص من وإلى (جنوب إفريقيا).

شغّل الراديو ليعلو صوت فرقة (شوي نومسيخالا) إيذانًا ببدأيّ هذه الرحلة الطويلة، كان أمامهم ثلاثمائة كيلومترًا قبل وصولهم إلى حدود (بيتيبريدج). قد تعتقد أن الرحلة تصبح أسهل مع كل مرة، لكن الحقيقة أن الطرق لم تكن سهلة أبدًا؛ كان عليه تبديل إطارات السَّيَّارة مرتين كل عام بسبب تآكُلِها.

شعر (ميلوزي) بالانزعاج عندما ارتفع صوت الزوجين ليُغطي على الموسيقى، لو أنه أخذ وقته واستجوبهما سيعرف أنهما ليسا زوجين بل أخوين توأم تشاركا رحم أمهما فيما سبق، لكن انحيازه ضدهما لم يسمح له بأي تصرفٍ مُتحضِّر نحوهما؛ راودته رغبةٌ في طردهما من السَّيَّارة إلَّا أنَّه في حاجة للنقود التي سيدفعانها.

جميع الرُكاب في سيارته مُتجهون في رحلتهم غير المشروعة نحو (جنوب إفريقيا)، كان هو الراعي الذي يقودهم إلى مدينة الذهب؛ الأرض الموعودة كما يُفترَض.. الأرض العامرة بالحليب والعسل والفرص التي لا تُعَد ولا تُحصَى. كان هو المتحكّم في مصيرهم جميعًا، تسعة ركاب يُسافرون معه.

بخلاف التوأم كانت هناك امرأة شابة لا يزيد عُمرها عن الخامسة والعشرين، مُسافرة بصحبة ابنها الصغير ذي الخمس سنوات، كانت يافعة وجميلة عدا شعرها القبيح الذي يبدو كعُش دبابير. عبّرت نظرتُها المُتطلّعة عن سذاجتها المُحتملة. كان يعرف هذا النوع من النساء اللاتي يعِشن في الضواحي البعيدة

ويحضُرن إلى (بولاوايو) فقط في المناسبات والأعياد، أما الآن فهي حالمة بذهابها إلى (جوهانسبرج) التي تفوق (بولاوايو) حجمًا وعنصريةً. آمن (ميلوزي) بأن (جوهانسبرج) مثلها مثل (سدوم) و(عمورة) المذكورتين في الإنجيل، تلك القرى الفاسدة الفاسقة التي لا ينجو فيها إلا القليل.

بجانب المرأة هناك فتاة صغيرة في عمر الخامسة أو السادسة، طويلة وترتدي فستانًا أصفر اللون. كانت مسافرة وحدها، تشعر بالخوف الشديد، لم تنطق بكلمة واحدة منذ ركبت السَّيَّارة، لكنها بكت بكاءً شديدًا في البدأيّ حين أوصلتها جدتها العجوز. (ميلوزي) يكره الأطفال في سيارته، يعتقد أنهم أسوأ أنواع الركَّاب.

خلفهم جلس شاب في نهأيّ العشرينات، يبدو عليه التفاؤل والغرور وكأنه يمتلك العالم من حوله، ينوي تجربة حظه في التجارة عند وصوله إلى (جوهانسبرج). أحس (ميلوزي) بالاستياء تجاهه إلَّا أنَّه تمنَّى داخله لو ينجح هذا الرجل في تلك المدينة التي أسقطت الكثير من الأبطال الطَّموحين.

الراكب السابع كانت الفتاة الجالسة بجانبه، فتاة جميلة يافعة تُدعى (ليندانى)، تعرّف عليها في (بولاوايو) في الأسبوع الماضي. لم تدفع (ليندانى) أُجرة السَّفر على متن سيارته مثل الركَّاب الآخرين، ليس بالطريقة المعتادة على الأقل. عندما نظرت إليه لأول مرة شعر بالإثارة، لم يُطِق الانتظار حتَّى وصولهم وممارسة الحب معها من جديد.

”عزيزي.. ماذا ننتظر؟“

سألته بصوتٍ رقيق، فأجاب:

"لم يحضر جيڤمور بعد!"

لم يكن (جيڤمور) راكبًا، بل مُساعده وصديقُه المُقرَّب، كانا يعيشان في منزلين مُتجاورين في طفولتهما، ويجلسان معًا في المدرسة والكنيسة، ويرعيان الأغنام في أيام الإجازات. أخذ هاتفه واتصل به دون رد، لكن بعد قليل ظهر (جيڤمور) أمامه بصُحبة فتاة مراهقة.

"ستأتي معنا.. تعتقد أنك الوحيد القادر على إحضار الفتيات!".

هزّ (ميلوزي) كتفيه، لم يكن قادرًا على الشكوى. أغلق (جيڤمور) باب الكوانتم. انطلقوا في رحلتهم من جديد، ذكّر نفسه أنه يفعل ذلك من أجل إيصال البضائع لأصحابها؛ الكثيرون يعتمدون عليه.

فكّر في اليوم الذي يتقاعد فيه، اليوم الذي لا يُضطر فيه لقيادة هذه السَّيَّارة مرة أخرى، ولا يُضطر فيه للتحدُّث مع حرس الحدود.. لكن لسوء الحظ، لن يحدث ذلك اليوم.



2

يستطيعُ التوأمان أن يتذكّرا بوضوحٍ يوم أن غادرت أمُّهما المنزل، كان أحد أيامِ أكتوبر المُشمسة، وكانا يلعبان بحديقةِ المنزلِ المحرومةِ من الحشائش والأزهار. يتظاهران أنهما بمنزلٍ خياليٍّ ويطبُخان الكعك المصنوع من الطين، غير آبهين لأشعةِ الشمس القاسية تحرقُ ظهريهما الصغيرين.

ظهرت أمُّهما كقوسِ قزحٍ في أعقابِ العاصفة، تحملُ في يدها حقيبةَ سفرٍ بُنية مُتهالكة، وقد ارتدت فستانًا جميلًا منقوشًا بالورود، ضيقًا يُبرز خصرَها الدقيق، كان شعرها الإفريقي بمثابة المظلة التي تحميها من الشمس الحارقة. توقَّعا في البدأيّ أن توبِّخهما على اتِّساخهما ولعبهما بالطين، لكنها في المقابل انحنت لتُقبِّل وجهيهما وقد غطَّاهما التُّراب. امتلأت عيناها البُنيتان بالدموع كعادتها. تحدثت بصوتها الغنائي الرقيق:

«عليَّ الذهاب إلى منزلي، سأعود قريبًا».

تكررت الجملةُ على مسامعهما في الماضي كأنها بيتٌ من أغنيةٍ طفوليةٍ يُحبانها. لطالما غادرت أمُّهما، ولطالما عادت. كانت عودتُها مصحوبةً دائمًا بالسعادة والضحك والقُبلات الغامرة، حتَّى أبوهما يُصبح في مزاجٍ احتفالي. خرج الأب في تلك اللحظة من المنزل وهو عاري الصدر، والشعر الأسود يلمع على صدره بفعل العرق المُتقاطر كالندى في صباحات الصيف الباردة. ارتدى سروالًا بنُيًا مثبتًا بحزام جلدي سميك له إبزيم فضي لامع. كثيرًا ما تراقص هذا الحزام على ظهريهما ليجلد لحمهما الطري. كان وجهه غاضبًا يخلو من أيِّ سعادة. صاح خائرًا:

«سيبونجيل! أخبرتكِ أن ترحلي.. ارحلي الآن، لا أرغب في رؤية وجهك أبدًا».

أحنت أمهما رأسها في استسلام، في العادي كانت لتتحدى أباهما إلا أن تصرفها الآن جاء تعبيرًا عن هزيمتها واستسلامها. لطالما شاهدا أباهما وهو يضرب أمهما. لم تستوعب عقولهما الصغيرة هذا العنف، وعادةً ما كانا يبكيان بجانبها وهي تحاول حمأيّ نفسها من لكمات زوجها الغاضب.

تناولت حقيبة السفر وغادرت.. لم تعُد أبدًا.

نشأ كُلٌّ من (شامونوروا) و(شيناي) دون أم. في بدءِ الأمر كانا يبكيان بحُرقة على أملِ عودتها، لكنهما سرعان ما تعلَّما أن بكاءَهما يثيرُ غضب والدهما بدلًا من استجداء تعاطُفه، وبعد مرور عامٍ تقريبًا أحضر لهما الأب أُمًّا جديدةً بصُحبةِ ابنتها (سارو).. فتاة خبيثة كثيرة الغضب.

كانت (شيناي) مُقتنعة أن زوجة أبيها هي زوجة الأم الشريرة في قصة (سندريلا)، وأن (سارو) هي الأخت الشريرة. كانت هناك أختان شريرتان في القصة، لكن (شيناي) سعيدة أن عليها التعامُل مع واحدةٍ فقط.

في عالمها كان (شامو) هو الأمير المُنقِذ، كانت على يقين بأنه سيشبُّ طويلًا وقويًّا ووسيمًا لينقذها من هذا العناء، أما أمها فهي الجِنِّية العرَّابة، كانت تُصلي كل ليلة من أجلِ عودتها لتأتي وتلوّح بعصاها السحرية ويتلاشى جميعُهم في عالمٍ سحري كذلك الذي تحكي عنه القصة.

هي الآن حبيسة المنزل تمسح أرضيات الغُرفتين حتَّى اللمعان، هذه مهمتها اليومية التي تنتظرها لدى عودتها من المدرسة، بعدها يتوجَّب عليها إعداد العشاء. مكّنها الوقوف على المقعد الصغير من رؤية الموقد ذي الشعلتين. كان (شامو) بجانبها ويساعدها على الدوام، جعلته يُقطّع البصل الذي يتسبب في بكائها. ربما كان السبب في بكائها هو دموعها القريبة، خاصةً أن (شامو) يُقطّع البصل دون أن يذرف دمعةً واحدة.

بعدما ينتهيان من إعداد العشاء، يجلسان معًا على الأرضية الحجرية لأداء واجباتهما المدرسية بينما يسمعان ضحكات زوجة الأب وطفلتها وهم تُشاهدان التلفاز، ذلك الشيء المُحرَّم عليهما. يتماهى التوأم مع خلفية المنزل وحوائطه الخرسانية المُصمتة، يتحدَّثان فقط عندما يُطلَب منهما، عرفا أنه لا قيمة لهما بحلول الكريسماس إذ ذهب والدهما للتسوُّق مع عائلته الجديدة ولم يزعج نفسه بشراء شيء لهما.

اقتحمت (سارو) غرفة نومهما وهي تستعرض ثوبها الاحتفالي الجديدة، إلا أن موسم السعادة كان قصير العُمر باندلاع العنف في المنزل، أصبح والدهما عنيفًا مُجددًا، يضرب (سارو) وأمها إلى حدِّ الانهيار، وفي أحد المساءات رحلتا عن المنزل ولم تعودا أبدًا.

حدث هذا في نفس الوقت الذي اعتقدت فيه (شيناي) أنها على وشك الموت حين اكتشفت بُقعة دم على سروالها التحتي، هرعت إلى مُعلّمتها بالمدرسة والتي تعتبرها المرأة الوحيدة محل الثقة في حياتها. شرحت لها المعلمة أنها على مشارف البلوغ.

حين عادت (شيناي) إلى المنزل وأخبرت والدها، أخبرها بلهجةٍ

آمرة:

"لا يُمكنك مشاركة الفراش مع شامو بعد الآن".

تذكرت كلماته وهو يتسلل إلى فراشها في صمتٍ، صدر عن الفراش صرير مُعارض لحركات جسده غير المتناسق أعلى جسدها، كادت أن تختنق بفعل رائحة البيرة القوية المنبثقة من أنفاسه. همس في إذاها:

"أنتِ الآن امرأة، سأُعلمك ما معنى أن تكوني امرأةً حقيقيةً".

زجّ بيده أسفل فستانها وبدأ تحسُّس جسدها، أدركت بغريزتها أن ما يُحدث أمرًا خاطئًا.. خاطئًا للغأيّ. مال نحو الأمام وخنق وجهها بشفتيه السميكتين. دفعته بعيدًا بكل ما استجمعته من قوة.

"شرسة مثل أمك إذًا!".

ثبَّتها في مكانها وغيّر وضعية جسده، ثمَّ أقحم نفسه داخلها.

أيقظت صرخاتُها المُتألمة (شامو) من نومه العميق، هرع نحو باب غرفة (شيناي)، حاول فتحه إلَّا أنَّه كان مُغلقًا. ضرب الباب بقبضتيه وهو ينادي:

"شينشي.. شينشي!"

أجابه صوت أبيه الثقيل:

"عُد إلى فراشك يا شامو، كُل شيء على ما يرام".

شعر (شامو) لوهلةٍ أن قلبه قد توقَّف، أراد الصراخ والاحتجاج، ضرب الباب بقبضتيه مُجددًا. لم تكن لديه فكرة متى سينهار

بفعل الإرهاق، جرجر نفسه شاعرًا بالهزيمة نحو فراشه بغرفة المعيشة. ظل مُستيقظًا في العتمة يسمع أخته تصرخ مرة أخرى، تساقطت الدموع من عينيه الواسعتين وشعر بالحسرة. كان خليطًا من مشاعر الغضب والارتباك والعذاب الخالص، وشوقٍ إلى والدته أكثر من أي وقتٍ مضى، أين هي؟ لماذا ليست هنا لتحميهما من ذلك الرجل؟

استسلم الليلُ لضوء النهار بينما اشتعل غضب الشياطين داخل (شامو)، سمع والده يُغادر في الصباح، لذا هرع إلى غرفة (شيناي) بخطوات مُثقلة. كانت مُتقوقعة في ركن الغرفة وقد ضمَّت رُكبتيها إلى صدرها. ركض نحوها واحتضنها، أطلقت صرخةً عميقةً شعر (شامو) بسببها أن شيئًا ما قد تحطَّم داخلَه.

3

بدأت الرحلة نحو الجنوب على طريق (ليوبولد تاكاويرا) الذي يحمل اسم أحد أبطال التحرير الذي لاقى حتفه في السبعينيات. كان الطريق واسعًا يُرحب بك بأشجار الجكراندة التي تُظلُّه من حرارة الصيف المُتَّقدة، عندما تُزهر تلك الأشجار تُضفي على سماء المدينة لونًا بنفسجيًا خلَّابًا. كان الطريق بمثابة الشريان الرئيسي للخروج من المدينة، كما أنه الطريق نحو الضواحي الشرقية حيث يقطع متنزه (سينتناري) الذي يحوي متحف التاريخ الطبيعي الزيمبابوي، إلا أن هذا المتنزَّه حصل على شُهرته في الماضي من إقامة حفلات الزفاف وجلسات التصوير في أيام السبت من كل أسبوع، كان مُتنزَّهًا عامرًا بالأزهار التي لا مثيل لها.

تذكر (ميلوزي) كيف كان يُواعد الفتيات فيه، يسيران معًا بأيدٍ مُتشابكة ثمَّ يتوقفان لشراء المُثلَّجات، وعندما يشعران بالتعب يستلقيان في الظل أسفل شجرة السرو. أحسَّ باحمرار وجهه وهو يتذكر قُبلاته في ذلك المتنزَّه، وحرارة الأجساد المُستلقية في أحضان الطبيعة.

لم يعُد المتنزَّه أخضر اللون بل غطَّاه التراب والوَسَخ، خسر بريقَه المُعتاد وامتلأ بالشحاذين والسُّوقة. التمشية عبر المتنزه كفيلة بتعرُّضِك للسرقة وربما الاغتصاب. جفَّت النافورة داخله كما جفَّت مثيلاتُها في المدينة. أحس (ميلوزي) بالغضب والحزن الشديدين وأشاح بنظره بعيدًا عن الطريق.

أصبحوا الآن على طريق (جواندا) القديم والذي يقطع ضاحية (خومالو) الخاصة بالأغنياء والطبقات العُليا. لقد اعتاد السُّكان

هنا تناول الطعام في المطاعم الفاخرة، أما الآن فقد خلت المتاجرُ من البضائع الأساسية، لذا كان (ميلوزي) يتسوق على الجانب الآخر من الحدود لإحضار ما يطلبه عملاؤه الأغنياء. يقوم بتوصيل البضائع المطلوبة مثل الشيكولاتة وورق التواليت ويحظى حينها بقضاء بعض الوقت في هذه الضاحية المُرفهة.

على يسار الطريق توجد الجامعة الوطنية للعلوم والتكنولوجيا والتي يتخرج فيها الآلاف سنويًا. يتخرجون نحو اقتصادٍ متدهور. استمرت قيادة السَّيَّارة بعيدًا عن الضواحي، لا أكثر من بضع منازل وأراضٍ على جانبي الطريق بالإضافة إلى حقول شاسعة سبق زراعتها بالذرة قبل أن تصبح جرداء.

زاد (ميلوزي) من سرعة السَّيَّارة حتَّى تجاوزوا مزارع السافانا، توقفوا للتزوُّد بالوقود في (جواندا) وانضم لهم راكب إضافي يُدعى (مالومي). اضطروا جميعًا لسماع حكايته على مدار خمسين كيلومترًا من الرحلة. أخبرهم كيف طردته شركة الإسمنت التي عمل بها لمدة عشر سنوات، بعدها أغدق عليهم بالمزحات اللطيفة التي خففت من وطأة الرحلة الصعبة.

حلَّ منتصف الليل مع وصولهم إلى (بيتيبريدج)، كانوا جميعًا نائمين حتَّى (مالومي). (بيبتيبريدج) هي البلدة الحدودية في الجنوب الشرقي من (بولاوايو)، في زمنٍ ما كانت هناك تلك الفكرة الرائعة لربط المدينتين بالسكة الحديدية إلَّا أنَّها تبخرت مع الوقت. كانت المدينة في حالة من اليقظة الدائمة سواء نهارًا أو ليلًا، تُرحب بك الفنادق كما تُرحب بك العاهرات اللاتي يعتمدن في عملهنَّ على سائقي الشاحنات وعُمَّال الخدمات في

محطات الوقود.

تشتعل حرارة (بيتيبريدج) نهارًا طوال العام، ولا يختلف الأمر كثيرًا في الليل؛ كان الهواء جافًّا لا يحمل نسيمًا. اخترق (ميلوزي) شوارع البلدة حتّى وصل إلى أطرافها، الآن يتوجَّب عليه ترك حمولته من الرُّكاب لحين عبورهم النَّهر على أملٍ أن يقابلهم بعد قليل وبعد عبورٍ آمن.

(جيڤمور) هو المسئول عن عملية عبور نهر (ليمبوبو) المعروف أيضًا باسم (نهر الموت) لما يحتويه من تماسيح مُفترسة، عادةً لم تشتهِ تلك الوحوش الضارية لحم الزيمبابويين العابرين في طريقهم نحو مدينة الذهب.

4

عرف (دوميساني) منذ صغره أنه مُقدرٌ لأمور عظيمة. لقد نشأ في أقدم ضواحي (بولاوايو) والتي تحمل اسم الملك (مزيلكازي) الأب المؤسس لمنطقة (ماتابيليلاند)، القائد العظيم الذي حكم حتَّى موته عام ١٨٦٨ ودُفِن في ضاحية (إنتومبين).

تنتمي أغلب الضواحي الغربية لعائلة (خومالو)، ينتمي (دوميساني) لهذه العائلة التي ينحدر أصلها من قبيلةٍ مَلَكيَّة مما جعله يتفاخر بنسله ويتمنَّى لو يعيش حياةً جديرةً بدمائه الملكيَّة. عمِل والدُهم كمُعلّم في مدرسة (مزيلكازي) الابتدائية، أما والدتهم فكانت تعمل كمُساعدة تمريض في الأوقات التي لا تحمِل فيها أو تلد.

لقد غادر رحِم والدته في يومٍ من أيام يونيو الباردة عام ١٩٧٦ بمشفى (إمبيلو)، المشفى الأكبر المُخصَّص للأفارقة فيما قبل حصولِ (زيمبابوي) على استقلالها عام ١٩٨٠. حملته أمه بين ذراعيها كما حملت أشقاءَه الثلاث الأكبر من قبل، وخلال ثلاث سنوات فقط تبعه اثنان آخران إلى أن أصبح في منزلهم سبعة أشقاء من نسل (خومالو).

يحمل (دوميساني) الكثير من الذكريات المُشرقة لنشأته في الضاحية وهو يلعب في الشارع مع الأطفال عقب دوام المدرسة، بحلول الظلام يتسابقون جمعيًا إلى منازلهم وهم يتقافزون عبر حدائق الخضروات الضيقة. ارتاد مدرسة (مزليكازي) الإبتدائية مثله مثل أشقائه، وتوارثوا الزي المدرسي من الأخ الأكبر للأخ الأصغر، أما أختهم فهي التي حظيت برفاهية الملابس الجديدة

كونها الفتاة الوحيدة.

كان والدهم معلمًا شغوفًا ورثوا عنه الحماسة، دائمًا ما عاقب فشلهم بجلداتٍ بغصنٍ من شجرة الخوخ النامية أمام باحة المنزل. تتم عملية الجَلد داخل غرفة الوالدين، بينما يجتمع الأطفال الآخرون أمام الباب في رعب وهم يستمعون للصرخات المُتألمة القادمة من الداخل. تعهَّد (دوميساني) منذ صغره أن جسده لن تمسَّه تلك الجلدات، لذا اجتهد في دراسته وكان الأول على فصله، ما مكَّنه من تجنُّب عقاب والده القاسي وأغدق عليه بالمديح بدلًا منه.

بعد انتهاء العام الدراسي يصطحبهم الوالد إلى موقف حافلات (رينكيني)، كانوا يذهبون إلى (سيلوبيلا) حيث يقضون العطلة مع أجدادهم، على عكس عطلة الكريسماس التي يقضونها في الضاحية. كان الكريسماس هو الوقت الوحيد الذي يتسوقون فيه الملابس الجديدة. يصحبهم والدهم في سيارته الألفا روميو بعدما يستحمُّون ويضعون طبقة رقيقة من الفازلين على وجوههم. كانت لديهم رفاهية اختيار الأحذية والملابس الجديدة من محلات مثل (توبيكس) و(سيلز هاوس) و(إدجارز)، لا يقدر (دوميساني) على النوم لعدة أيام وهو يتخيل حماسته يوم الكريسماس عندما يخرج وسط أطفال الضاحية متفاخرًا بملابسه الجديدة.

كان الكريسماس هو يومه المُفضل في العام، تطبخ أمه الأرز بقطع الدجاج المقرمشة وسلطتي الكُرنب والبطاطس المُزينة بالفاصوليا الخضراء وبجانبها طبق سلطة البنجر. يشربون من

زجاجات (تارينو) و(سبارليتا) و(فانتا) مُستسلمين للمذاقات الرائعة التي تجوب أفواههم. فقط في الكريسماس يتناولون الحلوى، الجيلي الأخضر والمهلبية الصفراء سميكة القوام. يأكلون للدرجة التي يشعرون بعدها بالمرض لعدة أيام. أما ملابسهم الجديدة فلن تظهر مُجددًا إلا في المناسبات المهمة مثل الذهاب إلى الكنيسة واحتفالات يوم الاستقلال التي تُقام سنويًا في ستاد (باربورفيلدس)، هناك تتوفر الأطعمة والمشروبات المجانية للجميع، وُتقدِّم الفرقة العسكرية وفرقة طبول المُجندات عرضًا موسيقيًا مُذهلًا. أرادت أخته (بوهلي) لدى مشاهدتها للمُجندات للمرة الأولى أن تصبح واحدةً منهن ذات يوم.

خلال هذه الفترة لم يكن (دوميساني) على درأيّ بما يرغب أن يكون، أراد أخوه الأكبر (نكوسانا) أن يصبح شرطيًا، أما أخوه الأصغر (ماندلا) فيحلم بأن يصبح ميكانيكيًا، أما (فوملاني) فيرغب أن يصبح مُمرضًا. أراده أبوه أن يُصبح معلمًا مثله، لكن (دوميساني) كانت لديه طموحات أكبر، كان هو الوحيد في العائلة الذي ذهب لدراسة المستوى المُتقدم من الشهادة الثانوية بمدرسة (سان كولومبا)، كان يقطع الطريق للمدرسة سيرًا على الأقدام ليوفر أجرة الحافلة لعلّه يُدلل حُب عمره (كريستين).

حلم بها في كل ليلة، وتفجرت رغباته في صورة بُقع مبللة على فراشه. لحُسن حظه أنه لا يتشارك الفراش مع أيٍّ من إخوته الذين غادروا المنزل. يعيش (نكوسانا) في مُعسكر شُرطة (روس كامب) مع زوجته، أما (ماندلا) فيتدرب بأحد معاهد التدريب المهني المحلية.

كانوا يعيشون في راحةٍ وسعادة، وكان لديه كلُّ ما يحلم به عدا (كريستين). لقد حاول إبهارها لعامين دونَ كلل إلَّا أنَّها لم ترضخ بعدُ لمحاولاته، إنه ولا شك يُعتبر جذابًا، فهو شاب وسيم بجسدٍ رياضي رشيق، كان رياضيًّا بطبيعته وتُزين الكؤوس والأوسمة منزلهم. ولديه نادٍ من المعجبات، إلا أن قلبه لم يكن ملكًا إلا لكريستين. كان يصحبها إلى منزلها يوميًّا حيث تعيش بجانب مشفى (إمبيلو) حيث تعمل أمها مُشرفة تمريض في عنبر الولادة. منزلهما على بُعد أربعة مبانٍ من منزله، إلَّا أنَّه لم يمانع أبدًا السير لميلٍ زائد. كان ليسير نحو القمر من أجل (كريستين). ما أحبَّه في (كريستين) أنها فتاة لامعة ومن أذكى الفتيات في فصله، كما أنها جميلة الملامح، لها شعر حريري أسود يرغب في تمرير أصابعه عبر خُصلاته، وجهُها بيضاوي بعينين سوداوتين تضيقان عندما تضحك، ضحكتها رنانة تجعل قلبه ينبض سريعًا أو يتوقف أحيانًا، شفتاها ناضجتان بلون أحمر جعله يرغب في تقبيلهما.

«كريستين، أرغب أن تشاركيني حياتي».

أخبرها بذلك وهما على بُعد أمتار من منزلها.

”ما معنى هذا يا دومي؟“

”أرغب في الزواج منك“.

”سأتزوجك عندما تتمكَّن من تحمُّل نفقات الزواج“.

زفر بعمق.. لا مجال للفوز أبدًا مع (كريستين).

”عليَّ الذهاب.. أراك غدًا“.

هكذا تنتهي الأمور كل يوم. لا قُبلة.. لا شيء، لم تستسلم

(كريستين) أبدًا لمحاولاته الظفر بها.

وافقت أخيرًا أن تصبح حبيبته في عامه الأول بالجامعة، كانت تدرس التمريض وكانت لهما طموحات بالغة بالنجاح. تطورت علاقتهما الآن إلى المعانقة وتبادُل القُبلات، إلَّا أنَّها لم تسمح له بأكثر من ذلك. كان يعوض ذلك بالاستمناء الغاضب في الظلام تاركًا سعادته تتدفق بين يديه مع حضور صورة نهديها بمُخيِّلته. توفَّرت المُغريات أمامَه في حرم الجامعة، الكثير من الفتيات الراغبات بالزواج كُنّ على استعدادٍ لمضاجعته دون تردد، إلَّا أنَّه لم يكن ليخون ثقة (كريستين).

مع تخرُّجه وحصوله على عملٍ في شركة هندسة محلية، استطاع براتبه الأول أن يدفع مهر (كريستين) التي أصبحت تعمل في مشفى (إمبيلو). تزوَّجا في حفلٍ صغير وأتمَّا علاقتهما أخيرًا في تلك الليلة. حصل على كل ما تمنَّاه على طبقٍ من فضة، كان يشعر كأنه مُزارع ظفر بحصاده. فاز أخيرًا بجسد (كريستين) الجميلة وزرع بذوره في أعماقها.

كانت الحياة الزوجية كما يحلم بها، عاشا معًا في شقَّة صغيرة بجانب المشفى وخطَّطا لشراء منزل في الضواحي الشرقية، تحقَّق ذلك في سنة الزواج الثانية حيث اشتريا منزلًا في (إيلاندا). مارسا الحُب في كل غرفة ودوَّى الصَّدى في أرجاء المنزل الخاوي. حملت في ابنهما الأول (سيفو) على أرضية هذا المنزل، وكانت ولادته في مشفى (ماتر داي).

كانت الحياة طيبة، يجتمعون كل أسبوعين مع الأصدقاء، وفي أيام الآحاد يذهبون إلى الكنيسة الميثودية في (مزليكازي)،

بعدها يتناولون الغداء في منزل عائلة (دوميساني)، تُعِدُّ أمُّه الأرز والدجاج وسلطتي الكُرنب والبنجر كما اعتادت أن تفعل في صغره، وبحلول الصيف يقضون العطلة في (كاريبا) وشلالات (فيكتوريا)، أما عطلة الشتاء فيقضونها في جبال (نيانجا) أو (فومبا).

لمع أمامَهم مُستقبل مُشرق تكون فيه الحياة ملكًا لهم، لكن بحلول ٢٠٠٦ تلك السنة الكئيبة أعلنت الشركة التي يعمل بها (دوميساني) عن إغلاقها نتيجة الحالة الاقتصادية المتدهورة، عرضوا عليه عملًا في مكتبهم بلندن. وافق (دوميساني) واستيقظ في الرابعة فجرًا باليوم التالي كي يذهب لاستخراج جواز السفر، وجد الطابور مُمتدًا على مسافة بنايتين.

مع سطوع النهار وتوزيـع الصحف، جاءت العناوين الرئيسية لتنصَّ:

"هيئة الجوازات في زيمبابوي تُعلن وقف استخراج جوازات وأوراق السفر".

5

أدخل (جيفمور) يدَه في حقيبَتِهِ القماشيَّة ثمَّ أخرج عقدًا جلديًّا يحمل دلَّأيّ على شكل قرن مُتصلة به، تحتوي الدلَّأيّ على خليط من الأوراق المطحونة ودماء تمساح، باعه إياها مُعالج رُوحاني منذ عدة سنوات، ولطالما وفَّرت له الحمأيّ من الأخطار عند عبور نهر (ليمبوبو)[1]، هذه التميمة المُعلقة على عنقه لم تُخيِّب ظنَّه حتَّى في أحلك الظروف، كان يخرج من النَّهر سالمًا.

تفاخر (جيفمور) بسلامة حمولته، فإن آخر ما يرغب به هو خسارة أحد رُكابه أو بضاعته، وإلا فلن يحصل على نقوده. سأله (ميلوزي) بقلق:

«هل أنت مُستعد؟».

لم يكن معهم السيولة النقدية الكافية لرشوة حرس الحدود، هذا لأنهم يُحصِّلون النُّقود عند الوصول لبرِّ الأمان.

"نعم، ليس لدينا حلٌّ.. أليس كذلك؟ أتعرف؟ أنا أُخبر نفسي دائمًا أنَّها ستكون آخر مرَّةٍ، ثمَّ أجد نفسي مُجدَّدًا في هذا النَّهر».

«هذه آخر مرَّة يا صديقي.. لن نُكرِّر هذا الأمر مُجدَّدًا».

تنهَّد (جيفمور) وترجَّل من أمام السَّيَّارة، فتح بابَها الرَّئيسيَّ وأيقظ الجميع بنبرةٍ قيادية وهو يُزمجر:

«هيَّا.. لم نأتِ هنا للنَّوم! تحرَّكوا!».

عادتِ الأجساد النَّائمة للحياة ببطءٍ، بينما يُصفِّق لاستعجالهم. واصلَ مُخاطبتَهم بحزم:

1 نهر ليمبوبو: أحد أكبر الأنهار في إفريقيا ويفصل بين جنوب إفريقيا وزيمبابوي.

«من جاء للنَّوم يُمكنه المغادرة، أمَّا مَن يرغبُ في الوصول إلى إيجولي[1]، فعليه الإسراع. اتركوا كلَّ شيءٍ حتَّى عقولكم، لا هواتفَ ولا نقودَ ولا أيَّ شيءٍ.. اتركوا الأحذية والسَّاعاتِ والأقراط والنُّقود.. كلَّ شيء".

بدأ الرُّكاب في تفريــغ مُتعلقاتهم المهَّمة. سأل الطِّفل الصَّغير بنبرةٍ مُرتعدة:

«ماما.. إلى أين نذهب؟»

«إلى إيجولي.. جوهانسبرج.. وطنك الجديد».

أجابه (جيڤمور) ثمَّ التفت لبقية الركاب بوجه مُحتدٍّ. أفاق الجميع وأنصتوا لكلّ كلمة ينطق بها:

«أمران في غايّ الأهمِّيَّة.. سنتحرَّك بسرعة وفي صمتٍ، لا ضوضاءَ ولا صوت واحد وإلا سيعثُر علينا الجنود. سأسير في المقدِّمة بينما يتبعني الجميع.. أنا قائدُ المسيرة».

ضرب على صدره بحزم بينما هزَّ الرُّكاب رؤوسَهُم في صمت.

«أيّ أسئلة؟»

لم يجرؤ أحدٌ على رفع يده رغم عاصفة الأسئلة التي تدور برؤوسهم.

"جيِّد، هيَّا بنا إذًا.. ليخرجِ الجميع عدا أنتِ يا ليندانى؛ ستبقين مع ميلوزي".

ترجَّل الرُّكَّاب خارج جوف السَّيَّارة الآمن وهم على غير درأيّ بما هو قادم أو لديهم أيُّ فكرةٍ عن الرّحلة أمامهم، تبعوا (جيڤمور)

---

1 إيجولي: يقصد بها بلاد الذهب أي جنوب إفريقيا.

كالأشباح نحو عُمقِ الغابة. حينها فقط دار (ميلوزي) بالسَّيَّارة عائدًا نحو مَعبَر الحدود.

صاحَبَتهم في رحلتهم أصواتُ صَرير الجنادب ونعيق البوم، وغيرها من الأصوات المميَّزة التي جعلت (جوجوليثو) ترتعش. لمع القمر فوقهم باسطًا الظِّلال على الأرض المُموَّجة، بدت التَّمشية لا نهائيَّةً. الطَّريق مليءٌ بالحجارة والأغصان المُدبَّبة التي تخترقُ قدميها الصغيرتَين. قاومت رغبتَها في الصراخ مُتألِّمةً، مهما بلغ شعورها بعدم الارتياح. لقد تعلَّق الصوت المخيف للرَّجل الذي يقودهم بذهنها. تبعته وهي تعرف أنَّه يقودها إلى أمِّها، كان هذا سببها لتلك الرحلة، أن تجتمع بأمِّها.

لا تتذكر (جوجوليثو) والدتها، كُلُّ ذكريات الطُّفولة كانت لجدَّتها السَّمينة صاحبة الابتسامة المُشرقة والتنانير المُزهرة. تألَّم قلبها لفراق جدَّتها ولطَّخت الدُّموع وجهَها الملائكيَّ. أرادت أن تُريح قدميها إلا أنَّ خطوات المُترجِّلين ذكَّرتها أن لا وقت للرَّاحة. خدشت الأحجارُ المُدبَّبة قدميها. تبدَّلت التضاريسُ أسفلَ منهم، وغاصت أصابعها الصَّغيرة في الرِّمال، خلَّفت قدماها الصَّغيرتان بصماتٍ تمحوها الأقدام الكبيرة من خلفها. بالنِّسبة لجوجوليثو كانت هذه المسافة الأسهل من التَّمشية. سرعان ما تبدَّلت الرِّمال الجافَّة بالطين وهم يقتربون من النَّهر، غمر الماء البارد كاحليها، ثمَّ وطأت قدمها حجرًا زلقًا فكادت تقع داخل الماء لولا اليد التي جذبت ذراعها لأعلى، ابتلَّ فستانها الأصفر الجميل وهي تعضُّ على لسانها لتمنع دموعها.

"سأُمسكُ بكِ".

جاءها الصَّوت من خلفها، أومأت برأسِهَا صامتةً، خوفًا من التَّحدُّث. شعرت بالامتنان لهذه اليد التي أمسكت بها خلال رحلتها عبر الماء، أمسكت اليدُ بخصرها عندما وصل الماءُ إلى عنقها، تعالَت دقَّات قلبها كالطُّبول الإفريقية لكن الصَّوت همس من خلفها:

"ستكونين بخير، أنا مُمسكٌ بكِ".

كان صوت (دوميساني) حازمًا ومُطمئنًا، لم يُثر داخلَها الخوف كصوت الرَّجل الذي يقودهم عبر الماء الحالك، وحتَّى مع عدم تمكُّنها من مُلامسة القاع طافت على وعي منها بأنَّ هذا الصَّوت الذَّكوريَّ الخشن سيُمسك بها. سرعان ما أحسَّت قدماها بالرِّمال الدَّقيقة في قاع النَّهر، أدركت أنَّهم اقتربوا من الضِّفَّة.. لقد انتهى الكابوس ولا شكَّ.

أوشكت (جوجوليثو) على الخروج إلى ضفَّة النَّهر عندما اخترقت صرخةً عالية صمتَ اللَّيلُ، كان الهروب ردَّة فعلها الأولى إلَّا أنَّ قدمَيها لم تُسعفاها، أحسَّت أنَّها عالقة وسط القصب الممشوق على ضفَّة النَّهر. التفتت باحثةً عن مصدر الصَّرخات المُتألِّمة.

"ساعدوني.. ساعدوني!"

صرخ (مالومي) ويداه تتخبَّط بالهواء وكأنَّه يُصارع قوَّةً غيرَ مرئيَّةٍ، تشنَّج جسدُه كأنَّه ملبوسٌ بروحٍ شرِّيرةٍ ثمَّ اختفى أسفل الماء في لمح البصر، ولا تزال صرخاتُه رنَّانةً.

أحسَّت (جوجوليثو) بيدٍ تجذبها نحو الضِّفَّة، ثمَّ تبعتها

خطواتُ بقيَّة الرُّكَّاب الخارجينَ من الماء بحثًا عن الأمان؛ هم الآن على دِرايّ بالأخطار التي تجوب الماء الذي ابتلع واحدًا منهم. اخترقتِ الأجواءَ صرخاتُ النِّساء الحادَّة، أرخى (جيفمور) الواقف على الضِّفَّة ذراعَيه باستسلامٍ، لم يكن مصدِّقًا لما يحدث، فلا شكَّ أنَّ ما حدث سيجذب انتباه الجنود الذين يجوبون الجسرَ أعلاهُم. عقد يديه أعلى رأسه وكأنَّه يمنع الصَّرخاتِ.

"مالومي!"

شهق أحدُهُم وهو يصل إلى الضِّفَّة، بينما أوضح الآخر:

"أعتقدُ أنَّنا فقدناه".

"لقد كان خلفي تمامًا، كان يحاول الإمساكَ بي".

بكت امرأةٌ شابَّةٌ.

تجمَّعت الأجساد المُبلَّلة من حوله في محاولة للإفصاح عن تجاربهم، استطاع أن يشمَّ رائحة الخوف الذي ألمّ به أيضًا؛ صاح (جيفمور):

"اخرسوا.. اللَّعنة! هل ترغبون في إيقاظ كلِّ الجنود؟"

كان يشعر بالدُّوار إلَّا أنَّه يعرف أنَّ عليه جمع شتَاته، ليس بإمكانه الانهيار.

بدأ يحسب حمولته مُجدَّدًا، الجميع هنا عدا (مالومي)؛ لم يكن أكثر من مجرَّد رقم. زجَّ بالفكرة في مؤخِّرة رأسه، لو انتهت رحلة (مالومي) فإنَّ رحلتهم قد بدأت للتَّو.

6

أخرجتِ الطُّرقات العاليَة (بورشا) من سُباتها، تسلَّل ضوءُ النَّهار المُبكِّر عبر شقوق الباب.. أغلقت عينيهَا بقوَّة؛ لم تكن قادرةً على مواجهة يومٍ آخر.

"بورشيا.. بورشيا".

جائها صوت حماتِها الخشنُ، حماتها التي لا تستطيع نطق اسمها بشكلٍ صائب؛ كان يخرج من فمها الخالي من الأسنان ليُصبح (بورشيا) بدلًا من (بورشا).

"حسنًا يا أُمِّي".

غمغمت من أسفل البطانية التي تآكل صوفُها بفعل الشتاءَات الجافَّة.

"لا يوجد ماءٌ وأنتِ تنامين!"

تتكرَّر هذه المُحادثة بشكلٍ يوميٍّ على مدار ثلاثمئَةٍ وستِّين يومًا في السَّنة، أما الأيَّام الخمسة المُتبقِّية فيكون زوجها قد تكرّم بحضوره، ممَّا يشغل عنها حماتَها التي تأمل لو أنَّهما أطالا النَّوم في الفراش فسينجبون لها حفيدًا ثانيًا؛ لم تكن على درأيّ بأن (بورشا) تتناول حبوب منع الحمل، هذا لأنَّ إحضار طفلٍ آخرَ لهذا العالَمِ هو آخر شيء قد ترغبُ في فعله.

تسير الأمور كالمعتاد في منزلهم الصَّغير في منطقة (مدرسة سيليما)؛ لحماتها تلك العادة المُزعجة حيث تستيقظُ في السَّادسة صباحًا، كانت تؤمن بأنَّ على المرأة الاستيقاظ قبلَ

الشَّمس أمَّا النِّسوة اللَّاتي ينمْنَ عقب ذلك كسولاتٌ. فشلت (بورشا) في استيعاب الهدف من الاستيقاظ فجرًا خصوصًا أن لا شيءَ تفعله في ذلك الوقت، فحتَّى حماتُها قد يئِست من حرث أرضهمُ الجرداءِ؛ هذه الأرض التي أينعَت تربتها في زمنٍ ما، وزرعوا فيها البطاطا والذُّرة والفولَ السُّودانيَّ. كانت هذه هي الأيَّام التي فتحت فيها الجنَّة أبوابها وأغدقت عليهمُ السَّماء بالأمطار الغزيرة، أمَّا الآن فتفتقد إحساسَها بدغدغة المطر البارد على بشرتها والرَّائحة المُميَّزة التي تُخلِّفها العاصفة.

هم الآن مُحاطون بالهواء الجافّ الذي يأبى أن تلئم جراحَه قطرةُ مطرٍ واحدة، العُقم وحده ما بينهم وبين السَّماء الخالية من السُّحب، لا شيء سوى الأعشاب الجافَّة النَّامية بين شقوق الأرضِ، أمَّا قطيع الماشية الضَّئيل الذي سبق لهم تربيته قد تضّور جوعًا ومات؛ لولا معونات الطَّعام الشَّهريَّة التي تصل إليهم لماتوا بدورهمُ من الجوع.

يحتوي جوَّال المَعونة على عشرِينَ كيلوجرامًا من الذُّرة وخمسة كيلوجراماتٍ من السُّكَّر البُنِّيّ، وخمسة كيلوجراماتٍ من الفول الأحمر، وزجاجة لترين من زيت الطَّهي، وخمسة كيلوجراماتٍ من الدَّقيق وألواح صابون لوكس وخمسة كيلوجرامات من مسحوقِ الغسيلِ، بحلول الكريسماس قد يحتوي أيضًا على الشيكولاتة والبسكويت؛ دائمًا ما تحدثُ الأشياء الجيِّدةُ في الأيَّام الأخيرة من شهر ديسمبر وكأنَّ الشُّهور الإحدى عشر الأخرى مُقدَّرٌ لها أن تقضيَها في الفراغ.

تأرجحَت (بورشا) خارج الفراش المسنود بقالبَين من الطُّوب،

أخرجت فستانها من كومة الملابس المُتَّسخة على الأرض؛ لم تنجز غسيل الملابس لعدَّة أسابيع الآن، كانت تكره فكرة تنظيف الملابس المُتَّسخة. فتحتِ الباب ليتسلَّل ضوءُ النَّهار إلى جوف الكوخ المُظلم، تبعت حماتها الضُّوء كالثَّور الهائج ووجهُهَا ينضح بالغضب.

"لقدِ اقترْبنا على مُنتصف اليوم ولم يأكل ابنُكِ بعد".

تعلَّق طفلُها ذو الأربعة أعوامٍ بجدَّته، كان ينام في صُحبتها ولا يفترقُ عنها أبدًا.

"سَأطبخُ العَصيدةَ".

ردَّت (بورشا) وهي تتجاوزُ العجوز التي تضع يدها على وسطِهَا.

"لا يُوجد ماءٌ! كيف ستطبخينَ العصيدةَ بدون ماءٍ؟"

"سأخرجُ لإحضار الماء".

"ماذا عن الغسيل؟ متى ستغسلينَ المَلابسَ؟ لا تُوجد ملابس، نظِّفيها لنرتديَها أنا ونيكوسي في الكنيسة يومَ الأحد القادم!"

"لا يُوجد صابون، أخبري ابنَكِ أن يرسلَ لنا الصَّابون".

أثارتِ الجملة حِنقَ العجوز وفتحتِ الحديث عن كيف يعملُ ابنُها جاهدًا لتوفير مصروفاتهم؛ تجاهلَتْها (بورشا) وحملَتِ الدِّلاء بيدها ثمَّ وضعت واحدًا على رأسها، خرجت من المنزل الذي أصبح بيتًا لها عندما تزوَّجت (فوساني) منذ خمس سنوات. قبل أن يكون (فوساني) زوجَها، كان مُعلِّمَها للجغرافيا في المدرسة الكاثوليكيَّة التي تبعد أربعين كيلومترًا. حمِلت منه في السَّنة التي كان يُفترض أن تجتاز فيها شهادة الثَّانوية، وحينَها أصبحت في

مكانةٍ أعلى بكثيرٍ من التَّعليم.. أصبحت زوجتَهُ.

هناك بعض المُميِّزات للزَّواج من مُعلِّمٍ، كانوا يعيشون في منازل العاملين بالكنيسة ويأكلون مع الكهنة والرَّاهبات، وقتَها احمرَّت وِجنتَاها من السَّعادة بل كانَتْ قادرةً على تحمُّل حماتها في تلكَ الأيَّام.

قرَّر (فوساني) بعدَ ميلاد ابنِهم أن يُجرِّب حظَّه في (جنوبِ إفريقيا)، ورحَّبت هي بقراره؛ ظنًّا منها أنَّها ستنضَمُّ له، وعدَها بأن تُسافرَ إليه عندما تستقرُّ أُمورُه إلَّا أنَّ ردَّه تكرَّر العامَ تلوَ العامِ:

"جوهانسبرج ليسَت مكانًا للنِّساء.. ومَن سيتولَّى رعأيَ المَنزل وَماما؟"

فكَّرَتْ بينَما تقطعُ طريقها نحو النَّهر في كونها تُعاقب على جريمةٍ لم ترتكبْها، تشقَّقت قدمَاها من السَّير حافيةَ الأقدام، كثيرًا ما ترجَّت (فوساني) أن يشتريَ لها حذاءً رياضيًا إلَّا أنَّه كان يعتذِرُ بضيق الحال تلكَ الأيَّام. سالتِ الدُّموع على وجهِ (بورشا)، تمنَّت لو لم تُنجبْ أبدًا.. على الأقلّ كانت لتتمكَّن من إنهاء دراستِها والحصول على عملٍ كصديقاتِها اللَّاتي يُراسلنَها باستمرارٍ، أصبحت إحداهنَّ سكرتيرةً في إحدَى المَصالحِ الحُكوميَّة، والأخرى مُمرِّضة تحتَ التَّدريب. مسحتِ الدُّموع من على وجهِها، لا فائدة من الشَّفقة على الذَّات الآن؛ لقد سالتِ الكثيرُ من الدُّموعِ وجفَّت، ولا زال وضعُها كما هو لم يتغيَّر.

بوصول (بورشا) إلى النَّهر كان العرقُ يَتقاطرُ من وجهِهَا وإِبطيها، لم تكن هناك نِسوة في النَّهر، فهذه المهمَّة ينجزنَها في السَّاعات

الباكرة من النَّهار قبلَ أن تشتدَّ حرارةُ الجوِّ، لم تفتقدْ صُحبتَهنَّ وقضاءَهنَّ الوقت في النَّميمة على الأزواج الغائبينَ والحمواتِ الشِّرِّيراتِ.

وضعت (بورشا) الدِّلاء على الضِّفَّة، ثمَّ خلعت فستانها لتكشف عن ثديَيها المُستديرينِ كالطَّماطم النَّاضجة، لم يتخدل ثديَاها حتَّى مع إرضاع (نكوسي). اخترقتِ الماء الذي بلَّل كاحليها، ثمَّ انحنَت لِتملأَ يديَها بالماء وتغسل وجهَهَا وجسدَهَا.

"بسسسس.."

بحثَت (بورشا) عن الصَّوت القادم من خلف الأشجار على الضِّفَّة الأخرى من النَّهر.

"بورشا.."

انفرجت ابتسامتُها، كان صوت (ثاباني) المألوف؛ يعمل (ثاباني) في رعي المَاشية ويعيش في كوخٍ على الضِّفَّة الأخرى للنَّهر.

"أنتِ عاريةٌ! ماذا لو رآكِ أحدٌ؟"

"هذه مشكلتُهم إذًا.. ليس لديَّ ما أُخفيه".

بدأَ (ثاباني) في خلع ملابِسه وانضمَّ لها في الماء عاريًا، احتضنا{بعضَهما البعض} وتشارَكا قبلةً طويلةً. تحسَّست يدُه الشعر غير المُشذَّب بينَ فخذَيها.

"أنا أُريدُكِ الآن.. لا أستطيعُ الانتظارَ".

لم تستطع الانتظارَ هي أيضًا، قادَها خارج الماء ومارسَا الحُبَّ على ضِفَّة النَّهر. انعكستِ الشَّمس على عضلاتِ (ثاباني) القويَّة

بينما برّدتِ الرّمال المبلّلة جسد (بورشا)، بعدَها استلقَيا على الرّمال مُحدِّقين في السَّماء الخالية من السُّحب. داعب (ثاباني) بطن (بورشا):

"إذًا، فإنَّ طفلي ينمو داخلَكِ؟"

"نعم.. أتمنَّى أن تكونَ قد أحضرتَ النُّقود.. سأحتاجُها للولادة".

"النُّقود في بنطالي، ذكِّريني أن أُعطيكِ إيَّاها قبلَ أن نُغادر".

"عليَّ أن أُغادرَ الآن قبل أن تخرجَ تلكَ الشَّمطاءُ وتبحثَ عنِّي".

وقفَتْ (بورشا) وعادَتْ إلى النَّهر لتنظيفِ جسدها بينما ينظرُ لها (ثاباني) بإعجابٍ، كان ليمارسَ معها الحبَّ مرَّةً أخرى؛ ولِمَ لا وهي امرأةٌ فائقةُ الجمال بوجهٍ بيضاويٍّ، وعينينِ سوداوَينِ، وبشرةٍ ناعمةٍ، وشفتَين كحبوبِ التُّوت البرّيِّ الذي يحبُّ التهامَه. كان يشعرُ بالسَّعادة كونَها تحملُ طفلَه، لقد عقد العزم على أن تحملَ منه، بينما زوجُها يعيش في منفاه الاختياريِّ.

"ارتدِ ملابسَكَ".

أمرَتْهُ (بورشا) وهي ترشُّه بالماء.

"حسنًا حسنًا".

صحبها (ثاباني) لمنزلها على عربته التي يجرُّها حمارَين، شعرت بالسَّعادة البالغة وهي تتمدَّد على العربة، هي تحمل بين يديها ألفَي دولارًا لا تعرف من أين أتى بهم (ثاباني). كان لديها ألف دولارٍ مخبَّئِين في سقف المنزل حيث لا يتمكَّن أحدٌ من العثور عليهم. تسارعت دقَّات قلبها، لقد أصبح لديها ما يكفي لتأمين حرِّيَّتها.

صدّق (ثاباني) المُغفل أنَّها تحمل طفلَه بالفعل، كان عليها خداعه للحصول على النُّقود؛ لأجل الخروج من هذا المكان التَّعيس الذي أصبح منزلَها، شعرت بالخزي لاضطرارها خداعَ رجلٍ طيّبٍ مثله إلَّا أنَّه لم يكن أمامَها خيارٌ.

"تبدين سعيدةً اليوم!"

"أنا سعيدةٌ بالفعل.. أنتَ تجعلني سعيدةً".

بادلَها الابتسام وركل الحمار في جانبه ليُسرع، بوصولهم إلى المنزل ساعدها في حمل دلاء الماء، شكرته حماتُها.

بدأت (بورشا) في كسر الأغصان لإشعال النَّار، ثمَّ أعدَّت العصيدةَ وتناولوا الطعام أسفل شجرةِ الصَّمغ، والذُّباب يطير أعلى أطباق الطَّعام، بعد قليل أخبرت (بورشا) حماتها بأنَّ عليها الذهاب إلى بلدة (بلومتري).

"وصلتْنِي أخبارٌ بأنَّ خالتي مريضة، سأذهب وسآخذ نيكوسي معي".

عبسَت حماتُها:

"ستفوتُه الكنيسة إذًا!"

"خالتي ترغب في رؤيته بشدَّةٍ، لا أستطيع تركَه".

أجابت (بورشا) ثمَّ التفتَتْ إلى طفلها:

"هل ترغب في أن تأتِيَ معي غدًا؟ سنشتري الحلوى والفانتا".

لمعت عيناه في مقابل الطُّعم الذي أعدَّته له (بورشا).

"نعم يا ماما، أودُّ الذهاب".

ردَّتْ حماتُها منزعجة:

”احرصي فقط على العودة قبل حلولِ الظَّلام يا بورشا؛ أنتِ تعرفين مخاطر السَّفر في الظَّلام“.

”نعم يا أمّي، سنعود مبكّرًا قدر المُستطاع“.

عندما غادرَتْ (بورشا) المنزل في الصباح التَّالي مع ابنها، لم يخطر على بالِ حماتها أبدًا أنَّها المرَّة الأخيرة التي ستراهُمَا فيها.

7

خطوا عبر الغابة عاقدِين نيَّة الوصول، كان الطَّريق مألوفًا بالنسبةِ لجيڤمور الذي قطعه مرارًا، لكنَّها المرَّة الأولى التي يموت فيها أحدهم تحت قيادتِه؛ تمنَّى ألَّا تطاردَه روحُ (مالومي) أو تلعنَه بسوء الحظّ.

قادهم (جيڤمور) عبرَ الطَّريق الذي خطاه الكثيرون من قبلهم، ساروا بحيويَّة دون أن يتجرَّأ أحدٌ على التَّعبير عن شعوره بالإرهاق؛ كان ليصدَّه صوت (جيڤمور) الحازم. لم يتحدث أيٌّ منهم لكن ذكَّرتهم أصوات اللَّيل أنَّهم ليسوا وحدَهم.

زادت الأمتار إلى أن أصبحت عدَّة كيلومترات، حتَّى وصلوا إلى حاجز من الأسلاك الشائكة القادرة على تمزيق لحمِ أيِّ شخصٍ يُحاول العبور من خلالها، أوضح (جيڤمور) أنَّ هذا واحدٌ من أربعة أسوارٍ سيتوجَّب عليهم الزَّحف أسفلَ منها:

"الآن يجبُ على الجميع أن يزحف أسفلَ السُّور وبأسرع ما يُمكن".

رفع (جيڤمور) جزءً مُتهتِّكًا من السُّور، عبرَ الأطفال أوَّلًا وهم يزحفون بأجسادهم الضَّئيلة تحت السِّلك الشَّائك، ثمَّ تبعتهم النِّساء بما فيهنَّ رفيقة (جيڤمور) ذاتُ الجسد النَّحيف، بعدها كان دور (شيناي) التي عبرت سريعًا إلى الطَّرف الآخر. كانت (بورشا) الأخيرة وسط النِّساء، زحفت لكنَّ شعرها علق بالسِّلك الشَّائك؛ صرخ (جيڤمور) مزمجرًا:

"تحرَّكي!"

"لا أستطيع".

تأوّهت (بورشا) بينما يدفعها (جيمفور) من كاحليها وهي تصرخ متألّمةً. احتجَّ (دوميساني):

"أنتَ تؤلمها!"

"اخرس! إنَّه شعرُها المستفزُّ".

أدخل (جيڤمور) يده في جيبه وأخرج مطواة صغيرة، فتح الشفرة وسط نظراتِ الرُّعب على وجه (بورشا) وبكاء طفلها الصَّغير. أشاحت النساء نظرها وهو يقطع خصلات شعرها بالمطواة؛ أصبحت تبدو كخيال المآتةِ.

حان دور الرِّجال ليعبروا أسفل السُّور حتَّى وصلوا جميعًا إلى الجانب المُقابل؛ قال (جيڤمور) بحزم:

"اسمعوا جيِّدًا، أنا المسؤول هنا؛ ستفعلون ما أقول".

لم يقدر أحد على الاحتجاج أو الرَّدِّ، وقفوا صامتِين في الظَّلام على غير درايةٍ بشدَّة غضب (جيڤمور) التي يخفيها الظَّلام.

"لا تكذب عليهم يا رجل! لستَ المسؤول هنا".

حضر صوتٌ قيادي لرجلٍ طويل البنية، وبشرته داكنة للدَّرجة التي تساعده على التَّماهي مع اللَّيل، كان معه رجلان أقصرَ منه يحملان البنادق على أكتافهم.

"نحن لسنا هنا لإحداث مشكلاتٍ".

رد (جيڤمور) بصوتٍ انخفضت نبرته عن المعتاد.

"بالطَّبع، إلَّا أنَّك في منطقتِنا. لا يُمكنك العبور من هنا دون

دفع المُستحقّ".

"مُتأسّف، لكنّنا لا نحمل نقودًا".

أفرغ (جيڤمور) جيوبه ليكشفَ عن فقره؛ نخر الرَّجلَ ولوّحَ بيده ليضحكَ رجالُه دون النُّطق بكلمة واحدةٍ.

"أنا لست غبيًا! كيف لا تحملون نقودًا وأنتم بهذا العدد؟"

أشار ببندقيّته نحو مجموعة الرُّكاب المرتعدة.

"إذا لم يكن لديكم النُّقود، فستدفعون بأرواحكم".

تنهّد (جيڤمور) بعمقٍ:

"أرجوكم، هل يمكنكم تركنا نعبر؟"

تجاهل الرَّجل توسُّله وأمر رجاله بتفتيش المجموعة.

"سنبدأ بكَ أنتَ!"

فتّش الرَّجلان جيوب (جيڤمور) ثمَّ عرَّياه من ملابسه لتفتيشه مرة ثانية باحثين في ثنايا جسده عن النُّقود، دفعاه جانبًا لمّا تيقَّنا أنَّه لا يحمل شيئًا. فتَّشا (شامونوروا) ومرَّروا أصابعهم عبر خصلات شعره على أمل إيجاد النُّقود وسطها، ثمَّ كرَّروا الأمر مع (دوميساني) ليعثروا على لفَّة نقود مُخبأة بسروالِه التَّحتيّ؛ سلَّموها لقائدهم الذي بدأ يعدُّها فورًا.

"وتقول لنا أنَّكم لا تحملون نقودًا؛ لقد كذَّبت علينا إذًا؟"

نظر (جيمفور) لدوميساني بمرارةٍ، لم يرد على الرَّجل الذي صفعَه على وجهِهِ بقوَّة وانضمَّ له الرَّجلان في الاعتداء على (جيڤمور) بقبضاتِهم.

"أيُّها اللَّعين! نسألك عن النُّقود وتخبرنا أنَّكم لا تحملون شيئًا.. هل تريد أن نقتلكَ؟ فتِّشوا الجميع جيِّدًا".

انصاع الرَّجلان لأوامر قائدهم كالضِّباع، بدأوا تفتيش الجميع، جرَّدوا النساء من ملابسهنَّ تمامًا مثل الرِّجال، لم تكن لإهانتهم حدودٌ هم يتحسَّسون أثداء ومؤخِّرات النِّساء. بلَّل (نيكوسي) ملابسَه مُجدَّدًا، بينما عضَّت (جوجوليثو) على شفتيها مقاومةً للدُّموع. لم يُفضِ البحث عن أيّ نقود أو متعلّقات إذ أنَّهم تركوا كل ما يحملون في السَّيَّارة وفقًا لتعليمات (جيڤمور).

"أربعة آلاف دولارٍ، حصيلةٌ جيِّدة لعمل اللَّيلة! الآن كل ما ينقصنا هو امرأةٌ واحدة، فنحن لا نمانع المشاركة".

تحدَّث القائد الذي رد عليه (دوميساني) الغاضب، لقد أخذوا كلَّ ما لديه من نقودٍ لبدء حياةٍ جديدةٍ في (جنوب إفريقيا).

"هؤلاء النِّساء متزوِّجات، أرجوكم لقد أخذتم منِّي الكثير من النُّقود.. دعونا نرحل!"

"غير مهمٍ.. النُّقود وحدها غير كافيةٍ".

ردَّ القائد وهو يُحرِّك المشعل في يده أمامَ النِّساء، تفحص (شيناي) التي احتضنت (جوجوليثو) لحمايتها ثمَّ (بورشا) التي أمسكت بيد طفلها الصغير، وأخيرًا أنار المشعل وجه (ثوليزيوي) المراهقة التي رافقَت (جيڤمور). كانَت تقفُ وحدَها ببلوزتها اللامعة التي لم تجفَّ بعدُ من الماء وترتدي بنطالًا ضيِّقًا من الجينز يكشف مفاتنها.

"سآخذُها".

نظرت لأعلى خائفةً ثمَّ نحوَ (جيڤمور) على أمل أن يحاول الدِّفاع عنها، إلَّا أنَّه لم ينطقْ بل جلس صامتًا على الأرض.

"هذا يكفي!"

جاء صوت (شامونوروا) الغاضب، وكزَهُ القائد ببندقيَّته.

"نحن نحبُّ أصحاب الصَّوت العالي، سنأخذُكَ معها إن أردْنا، رجال أو نساء.. نحن لا نهتمُّ!"

جعله التَّهديد يصمتُ تمامًا.

شاهدوا الرِّجال الثَّلاثة وهم يصحبون رهينتَهم ويختفون وسط الأشجار، استجمع (جيڤمور) شتاته واستعاد موقعه كقائدٍ للمجموعة. تبعَه الجميع وقد انحنَت كتفاه من الهزيمة، لم يعد بنفس استعراضه المُسبق بل حتَّى خطواته أصبحت محسوبةً. لم يكن أيًّا منهم على درايةٍ بأنَّهم قد واجهوا مصيرَهم مع جماعةِ (الأوجوماجوما)؛ قُطَّاع الطُرق على الضِّفَّة الأخرى لنهر (ليمبوبو).

8

قبلَ عدَّة أيَّام ترجَّلت (ليندانى) خارج الحافلة، وهي تحمل حقيبة سفرها المُمتلئة بالملابس الجميلة والأحلام المُهشَّمة. نفثت الحافلة دخانًا أسودًا غطَّى (ليندانى) وجعلها تشعر بالاختناق، روَّحت عن نفسها بيدها بينما اندمج دخانُ العادم مع الهواء الجاف، تذكَّرت حينها حرارة الطقس في (بولاوايو)، لسعتِ الشَّمس رأسَها الحليق الذي لا تملكُ قبَّعةً لحمايته.

كانت محظوظةً لعثورها على مقعدٍ سليم بالحافلة، جلست إلى جوارها امرأةٌ عجوزٌ تفوح الرَّائحة الكريهة من أسفل إبطيها، أخرجت المرأة من حقيبتها علبة طعامٍ بلاستيكيَّة وتناولتْ من داخلها ساندويتشًا من البيض كريه الرَّائحة؛ سألتها المرأة:

"هل ترغبينَ بواحد؟"

"لا شكرًا، أنا بخير".

ردَّت (ليندانى).

"يبدو أنَّكِ لم تأكلي منذُ فترة".

تجاهلَتها (ليندانى)، شعرَت بالرَّاحة لمَّا بدأتِ المرأة في تناول السَّاندويتش بنَهَمٍ إلَّا أنَّ ذلك لم يمنعْها من الحديث بفمٍ مُمتلئٍ، جاءَت كلماتُها غيرَ واضحةٍ؛ بسبب البَيضِ وصوتُها مكتومٌ بسبب الخبز. تحدَّث الرُّكاب من حولها إلَّا أنَّها لم تعدْ آبهةً بأصواتهم النَّشاز ولا برائحة المرأة جانبَها.

توقَّفتِ الحافلة في عدَّة محطَّات؛ (كويكوي) و(كادوما) و(جويرو)، في كلِّ محطَّة يكثُر بائعو السَّجائر والمُقرمشات

والموز والذُّرة والبرتقال والحلوى، جميعُهم يحاولون إقناع المارَّة والحافلات بالشراء، تفهَّمت (ليندان) نظرات اِليأس في أعينِهم، لقد كانت حياتها في السَّنتَين الماضيتَين بالعاصمة (هراري[1]) حياةً يائسةً تُكافح فيها من أجل البقاء.

"إلى أين تذهبين؟"

سألتها المرأة التي وقد أمسكت بزجاجة صغيرة من الكوكاكولا، لقد قضت فترةً طويلةً من النَّهار تسرد حكايتها عن سفريَّاتها بين (هراري) و(بوتسوانا) من أجل بيع مفارش المائدة.

"إلى بيتي.. أمِّي تعيش في بولاوايو".

أجابت ليندانى.

"وماذا عن زوجكِ؟ يعيش في هراري؟"

"لستُ متزوِّجة".

"امرأةٌ جميلةٌ مثلُكِ وغير متزوِّجة!"

ابتسمَت (ليندانى) نصف ابتسامة، لقد اعتادت سماع الإطراءَات عن جمالها؛ ربَّما لوجهِها قلبي الشكل، وعينيها السَّوداويَّتَين الجميلتَين وشفتَيها المنحوتتَين، لقد ميَّزتها بشرتها الفاتحة قليلًا عن بقيَّة النساء، وحتَّى رأسُها الحليق أبرز ملامحها فجعلها أكثر جمالًا. كانت ولا شكَّ صورةٍ للجمال المثالي، وقد عاشت حياتها بالفعل مُعتمدة على مظهرها، كان بمثابة جواز سفرها لمستقبلٍ أفضل.

فكَّرت في الرِّجال الذين تركُوا بصمتهم على جسدها، عبرت

1 عاصمة زيمبابوي.

صورتهم في خيالها؛ (راينو) و(تيتو) و(فاراي) و(جوناسي) و(موسى) و(إدجار) و(ناهمو) و(فاكاما) و(آلان)، وغيرهم ممَّن نستهُم تمامًا. لقد ضاجعَتِ الكثير من الرِّجال في العقدَين الماضيَين أكثر مما قد تضاجع غالبيَّة النِّساء طيلة حياتهنَّ.

"أنتِ جميلة، اعثري على رجلٍ مناسبٍ واستقرّي في الزَّواج".

"هل أنتِ متزوِّجة؟"

سألتها (ليندايي)، لتجيب المرأة بلامبالاة:

"لا، لم أتزوَّج أبدًا. كان عليَّ الزَّواج في الماضي عندما كان أمامي الفرصة، أما الآن فأعول أربعة أبناءٍ من أربعة رجال مختلفين. أنا ذاهبة إلى بوتسوانا؛ لشراء بضاعة لبيعها في هراري، إذا لم أفعل ذلك فسنموتُ من الجوع. في الماضي كنت أُضاجع الرِّجال من أجل النُّقود، لكنَّني كبرتُ الآن، هل تظنِّين أنَّ أحدًا سيُوافق على مُضاجعة امرأةٍ مثلي؟"

تركت السُّؤال عالقًا ثمَّ أكملَت:

"أعرف أنَّني لا أبدو جميلةً الآن، لكنَّني كنت جميلةً في الماضي؛ تنافس الرِّجال من أجلي. لقد خسرتُ أسناني في شجارٍ بإحدى الحانات.. أعتقد أنَّنا لا نظنُّ أبدًا أنَّنا سنكبُر.. في حين أنَّ الرِّجال هم سببُ تقدُّمنا بالعمر".

حدّقت (ليندايي) في وجه المرأة الذي يغلبه العجز والمحن، لم يعد وجهُها يحملُ أثرًا من جمالٍ لكنَّه تجعَّد بالحكمة.

"لقد تزوَّجتُ مرَّة واحدةً.. لكنَّه مات".

أخبرَتْها (ليندايي) بذلك دون سببٍ واضحٍ، فهي لم يسبق لها

الحديث عن حبِّها العميق لزوجها، هذا لأنَّها لم نشعر نحوه بالحبِّ بل بالامتنان. لقد وفَّر لها منزلًا ودخلًا، وعَشِقَها وعشقَ التُّراب الذي تخطو فوقَه، جعلَها ذلك تشعر بأنَّها مُميَّزة، كأنَّها ذاتُ قيمة.

لم يكن زواجها كالذي تحلم به الفتيات، لم ترتدِ فستانًا أبيضَ ولم تقف الوصيفات إلى جانبِها، لم يكن هناكَ حفلُ زِفافٍ كبير بل تزوَّجَا في قاعة المحكمة في (هراري) قبل عام من وفاة زوجِها بالإيدز. بعد وفاته حضرت زوجتُه السَّابقة وطالبَت بحصولها على المنزل والسَّيَّارات، كشف هذا النِّزاع أنَّ زواجهما لم يكن قانونيًّا ممَّا جعلَها تخسر كلَّ شيءٍ.

جاءَها إعلان الإخلاء الذي لم تستطع قراءَته بسبب دموعِها الغزيرة، أمسكَت بهاتفها وطلبت (راينو)، رنَّ الهاتف ثمَّ أجابها البريد الصَّوتيُّ. اتَّصلت بتيتو لتردَّ عليها زوجته، ثمَّ (آلان) ثمَّ (فاكاما) الذي وعدها بأنَّه سيتَّصل بها خلال دقائق.

نامت (ليندانى) نومًا مُضطربًا ثمَّ استيقظَت لتجد أنها لم تستقبل أيّ مكالمات من (فاكاما)، تنهَّدت بعمق وقرَّرت أن ترتديَ ملابسَها وتخرج للبلدة. كان عليها العمل كعاهرة تستقبلُ الرِّجال في منزلها، لم يعد الرِّجال قادرين على الزَّواج أو ارتضاء حبيبةٍ، بسبب الحالة الاقتصاديَّة المُتدهورة، أصبحت النِّساء مسؤوليَّةً أو عالة على أغلبهم.

وقفت (ليندانى) عند جادَّة (جوساياه تونجوجارا)[1] مثلها مثل النِّساء العارضات أجسادَهُنَّ، لا شكَّ أنَّ (جوساياه) سيتقلَّب

---

1 (Josiah Tongogara): أحد أبطال التحرير في زيمبابوي، توفى عام ١٩٧٩

في قبره لو عرِف ما آلت إليه مجهوداتُه في التَّحرير. كانت ليلة بطيئة تتبادل فيها العاهرات أطراف الحديث، لم تشعر (ليندان) بالرغبة في التَّحدُّثِ معهن، أشعلت سيجارة تقضيةً للوقت إلى أن جاءَت سيارة مازدا ووقفت أمامها، فُتِحت نافذتها لتكشف عن مجموعة رجال بأصواتٍ خشنة.

"نحنُ لدينا حفلة ونحتاج لبعض التَّسلية، سندفع مُقابلًا جيدًا".

لم تتردَّد (ليندان) وركبت السَّيَّارة فورًا، وصلَت إلى حفلٍ صاخب يبدو وكأنَّه في قمَّة مجونه. أعطاها صاحب الحفل نقودًا لتذكيرها ببدء العمل، لم يكن عليها الرَّقص أو إثارة شخصٍ بعينِه بل صحبَها إلى غرفة نوم وانضمَّ لها فيما بعدُ ستَّة رجال.. كان عليها مضاجعتهم السِّتَّة.

بعدما انتهوا زحفت نحو الحمام وهناك حدَّقت في المرآة، بكت عندما لم تتعرَّف على نفسها. باغتتها طرقات الباب وصوت الرجل يُخبرها:

"أسرعي، الآخرون في انتظارِكِ".

نظرَت (ليندان) إلى نافذة الحمَّام وقرَّرت القفز، قطعت طريقها في الظلام وصولًا إلى منزلها. بدأت تمزيقَ شعرِها، ثمَّ بدون تردُّد أحضرت ماكينة الحلاقة وقصَّته من جذوره. وقفت أسفل الدُّش وبكَت منهارةً بينما يُلامس الماء جسدها، دعكت جسدَها بقسوة وكأنَّها تمحو بصمات هؤلاء الرِّجال، بعد ذلك زحفَت للفراش ونامت طيلة الليل والنَّهار، وعندما استيقظت قرَّرت أنَّ الوقت حان لِتعود إلى بيتها إلَّا أنَّ محادثتَها مع والدتها

لم تكن كما تمنَّت.

"ماذا ستفعلينَ هنا؟"

سألَتِ الأمُّ.

"لا أعرف بعد".

"أنا لا أستطيع الاعتناء بكِ، لقد اعتنيت بك طوال حياتي يا ليندانى.. متى سيتوقَّف ذلك؟ متى ستعتنين أنتِ بي؟"

قاومت (ليندانى) البكاء:

"سأحصلُ على عملٍ ما".

"هذا ضروريٌّ، الظُّروف صعبة ولن أستطيع الاعتناء بكِ".

أغلقت والدتها الهاتف دون توديعها.

حزمت أمتعتها في حقيبة سفر واحدة، نفس الحقيبة التي انتقلت بها للعيش في (هراري). كانت في حاجة للتَّفكير في مستقبلِها الآن وقد تمَّ هزيمة مِلكها على رقعةِ الشَّطرنج.

شدّت المرأة الجالسة بجانبها على يدها وقالت:

"عندما يُغلق بابٌ يُفتح غيره، لا تستسلمي.. اجمعي شتاتَك وامضي للأمام".

للمرَّة الأولى ابتسمت (ليندانى) وامتلأت عيناها بالدُّموع، لم تكن مُعتادة على حميمية الغرباء إلَّا في سياقٍ جنسيٍّ.

تعانقتَا سريعًا قبل أن تترجَّل (ليندانى) من الحافلة، شعرت بأنَّ تلكَ المرأة غير العاديَّة قد منحتها بداية جديدة لحياتها؛ أحسَّت بأنَّها على مشارف طريقٍ جديد.. فصل جديد في الحياة.

بدأت إيقاف السَّيَّارات العابرة إلى أن توقفت أمامها سيارةُ كوانتم بيضاء.

9

سطع نور الصَّباح وسطع معه إحساس التَّفاؤل داخل كُلٍّ منهم، وعلى الرَّغم من كونهم في الصَّباح الباكر إلا أنَّ الحَرَّ بدأ في الاشتعال. لمع بريق الأمل بيومٍ جديد خلف جبال (ساوتبانسبرج)، وخرجت المجموعة من الغابة ليركبوا سيارة (ميلوزي) الواقفة على الجانب المقابل للطريق؛ فُتِح باب الكوانتم لاستقبالهم ثمَّ انغلق وركب (ميلوزي) دون تردد.

"هل الجميع هنا؟"

سأل وهو يأخذ مقعده خلف عجلة القيادة.

"نحن جميعًا هنا".

أجابه (جيفمور) بنبرة قيادية.

استقرَّ الرُّكاب في مقاعدهم تاركين مقعدَ (مالومي) عن قصدٍ كي تُحتضَن روحُه، لم يذكر أحدهم حادثة (ثوليزيوي) بل كانت وجوهم مُغبرَّة بالقلق، وأجسادُهم مُرهقة من أهوال السّاعات الفائتة. الأطفال هم أوَّل من استسلمَ للنَّوم، لم يؤرِّقهم القلقُ حيال الطَّريق كما يؤرِّق البالغين. لم يُحرِّك أحد شفتيه الجافَّتين للنُّطق بأيّ كلمة، كانوا مرهقين وجوعى.

زأرَ المُحرِّك وانطلقت الكوانتم في طريقها، يُمكن حساب المسافة بامتداد الطَّريق اللَّانهائي أمامَهم، تشاركوا الطَّريق مع الشَّاحنات التي تنقل البضائع، وبدأت الإنشاءَات تستبدلُ الأشجار والأعشاب وأصوات العصافير والحشرات. أضحى نهر (ليمبوبو) ووحوشُه الضَّارية مُجرَّد ذكرى عابرة.

بوصولهم إلى بلدة (موسينا) بدأت العيون تتفتَّحُ، كانت البلدة تُعرف أيضًا باسم (ميسينا) كما أَطلق عليها السُّكان الأوائل في القرن العشرين وهي أوَّل بلدة تُرحِّب بكَ في جنوب إفريقيا. تختلف كثيرًا عن (جوهانسبرج)، لم يكن الذهب ما جذب إليها السُّكان الأوائل بل مناجم النُّحاس الأحمر. تضمُّ (موسينا) قُرابة الاثنين وأربعين ألف نسمة، رُبعهم تقريبًا من الزيمبابويين الذين حضروا من معسكراتِ اللَّاجئين والشوارع، يبحث بعضُهم عن العمل في المزارع القريبة ويعتبرُها البعض الآخر ملاذًا مؤَّقتًا قبل الرَّحيل إلى المُدن الكُبرى في (جنوب إفريقيا). اِسأَل أيَّ شخصٍ في (موسينا) وسيخبركَ أنَّ هؤلاء الزيمبابويين يختلفون عن أولئك الذين يمرُّون بالبلدة في سيَّاراتهم السَّيِّدان؛ لأجل رحلات التَّسوق الأسبوعيَّة على طريق (ماين) وتناول الدجاج المُقرمش في السَّلاسل الشَّهيرة مثل (كنتاكي). يختلفون عن الزيمبابويين النَّافرين من الحافلات لِشراءِ البضائع بالجُملة؛ لإعادة بيعها في بلادهم، عن أولئك القابعين في الفنادق وبيوت الضِّيافة في عطلات نهاية الأسبوع، في انتظار حصولهم على سيَّارات الباجيرو والنيسان والتويوتا، بعدما تحصل على التَّصاريح اللَّازمة للعبور بها. اِسأَل أي بائعٍ في (موسينا) وسيخبرُكَ أنَّ هناكَ نوعان من الزِّيمبابويين؛ فاحشِ الثَّراء وشديدِ الفقر.. طبقتان مختلفتان تمامًا.

ذهب (ميلوزي) لشراء الطَّعام من أجلهم، أثارتهم رائحة الرَّقائق المَقلية الغارقة في الخلّ، بدأ (جيڤمور) في توزيع الأرغفة سريعًا وبدأت الأصابعُ النَّهمة في تناولها، تشاركوا بعدها زجاجات الفانتا والكوكاكولا والسبرايت حتَّى (جيڤمور) كان في حالة معنوية جيدة

وهو يأكل النَّقانق الدَّسمة التي لم يحظَ الآخرون بفرصة تناولها.

"لقد ساءَتِ الأمورُ هناكَ".

أوضح لميلوزي فيما بين القضمات.

"لقد انتهى الأمرُ الآن، ما يهمُّ أنّنا في طريقنا".

ردَّ (ميلوزي) وهو يزيد من سرعة السَّيَّارة.

"ماذا حدث لمالومي وثولي؟"

سألت (ليندايي) المحشورة بينَهما في الأمام، كانت تضعُ في حجرها كيسًا ساخنًا من الرَّقائق والدَّجاج المقليِّ الذي تشارَكته مع (ميلوزي). ردَّ (جيڤمور) باقتضاب:

"لقد اضطُررنا لتركِهِم".

"ربَّما لا تعمل تميمتُكَ بعدَ الآن".

قالها (ميلوزي) ثمَّ أخرج (جيڤمور) السّلسلة وأمسكها لثانية.

"إنَّها تعمل، ألسنا هنا؟"

أومأ (ميلوزي) وفتح الرَّاديو، سرحت نغمات (بريندا فاسي[1]) في السَّيَّارة لتُغير الحالة المزاجية العامَّة.

"أعلى وأعلى.. أعلى وأعلى.. لا شيء سيوقفُنا.."

استمرَّت الرِّحلة دون شائكةٍ، وفي الثَّالثة عصرًا تنهَّد (ميلوزي) بعمق لمَّا عبروا بوَّابَةً مكتوب عليها (بريتوريا)[2]؛ لقد اقترب وصولهم.. لا يستطيع الانتظار لإيقاف سيَّارتِه والاسترخاء.

---

1 مغنية وكاتبة أغاني من (جنوب إفريقيا) ماتت عام ٢٠٠٤.

2 أحد العواصم الثلاثة لجنوب إفريقيا.

اختلس نظرةً نحو (ليندانى) وزاد من سرعته، باغته زحام الخامسة مساءً على طريق (ميدراند) الجنوبي؛ لطالما أبهرَتهُ السَّيَّارات التي تسير بنظام في الحارات السِّتِّ المتوازية، سيَّاراتٌ من جميع الأشكال والأحجام بألوان قوس قزح. لم يتخيَّل عند وصوله لأوَّل مرَّة إلى هُنا أنَّه أيضًا سيقود سيَّارته في زحامٍ مماثلٍ ما بين الحارة والحارة. أمامَه يظهر برج (تيلكوم) الشَّهير في (جوهانسبرج).. مدينة الذَّهَبِ.

ابتسم ابتسامةً عريضةً.. كان سعيدًا بعودته إلى المدينة الكبيرة وكأنَّه عائد لأحضان حبيبته. شعر بالحماسة المُتسارعة، كلُّ تجربة تختلف.. لا أحد يعيش نفسَ التَّجربة في (جوهانسبرج).

10

يخاف مُعظم الأطفال بطبيعتهم من الظَّلام، أما (جوجوليثو) فلم تخفْ؛ لقد نشأَت في (زيمبابوي) المُظلمة ولم تعرف نورًا سوى النَّهار وأحيانًا ضوء شمعة تُبدِّد ظلام المَنزل الذي تتشاركه مع جدَّتها. كانت تقضي نهارها في اللعب مع الأطفال في الشَّارع إلى أن يغطِّيها الغُبارُ تمامًا، وقُرابة غروب الشمس يحين وقت العودة للمنزل. كانت تلعب دائمًا بالقرب من منزلها، لقد حذَّرتها جدَّتُها من اللَّعب بعيدًا حيث لا تستطيع مراقبتَها؛ أخبرتها مرارًا أنَّ الوُحوش تتواجد{موجودةٌ} بعيدًا عن المنزل، وحوش تفترس الفتيات الصغيرات مثلها.. تُنادي عليها:

"جوجو! جوجو!"

فيحضر ردها:

"جوج!"

كانت تُلبِّي النِّداء من المرَّة الأولى تجنُّبًا لصفعات جدَّتها إذا ما اضطرت على تكرار النِّداء مرَّتين أو ثلاث، ركضت إلى بوَّابة المَنزل واحتضنت مريلة جدَّتها التي تحتويها بالحبِّ والحنان. سارا يدًا بيد نحو المنزل؛ كان هذا روتينهم اليومي المُعتاد.

تذهب (جوجوليثو) إلى المدرسة المُجاورة للمنزل، يمرُّ عليها أصدقائها في طريقهم للمدرسة وتسير معهم في طريق العودة، لم تلعب أبدًا خارج المنزل إذ تقف جدَّتها على الدَّوام في انتظارها عند البوَّابة. في إحدى المرَّات لم تشعر بالوقت وظلَّت تلعب إلى أن جاءَت جدّضتها وضربَتْها أمامَ جميع أصدقائها، حينها تعلَّمَت ألا تتركَ جدَّتها تنتظرُ أبدًا.

بوصولها إلى المنزل تُغير زيّضها المدرسيَّ وترتدي ملابس المنزل التي تختلف عن ملابس الذهاب إلى الكنيسة، تتناول الغذاء وتخرج للَّعب ثمَّ تعود مع غُروب الشَّمس للاستحمام؛ تفرك جدَّتهُا جسدَها بقوة حتَّى يصبح الماء بُنيَّ اللَّون أما هي فتصبح نظيفة للغاية. ترتدي منامتَها التي تختلف كلَّ ليلة، لقد كان لديها دولاب زاخرٌ بالملابس التي ترسلُها لها أمُّها.

لا تتذكَّر (جوجوليثو) والدتها بما يكفي، حتَّى صورُها الموضوعة بالمنزل لا تحفزُّ ذاكرتَها؛ صورُها موجودةٌ بجانب صور جدها الذي يُعتبر غريبًا عليها بدوره. لقد غابت الأصوات الذُّكورية من حياتها، حتَّى الصِّبية الذين تلعب معهم أصواتهم رقيقةٌ كالنِّساء، كل ما يحيطها هو الأصوات الحادَّة للنِّساء عدا صوت جدَّتها الموسيقيُّ النَّاعم. أخبرتها جدَّتُها أنَّ لديها أبًا، لكَّنها لم تقابلْه أبدًا ولم تكن له صورٌ تثبت وجودَه.

"جدَّتي.. أين هو أبي؟"

باغت السؤالُ جدَّتها، تجعَّد حاجباها من الصَّدمة وأجابت:

"إنَّه مع والدتكِ، ستقابلينَهمَا قريبًا".

"متى يا جدَّتي.. متى؟"

"قريبًا".

جدتها هي (جوجو إمخيزي) التي ولا شك لا تحبُّ زوج ابنتها، لقد جلب الخزي إلى حياتهم. تعرّف (باتريك) على ابنتها (زوليلي) في المدرسة الثانوية، وكثيرًا ما ضربَت ابنتَها مُحذِّرةً إياها من أخطار اللَّعب مع الأولاد أو تركهم يلمسونَكِ بشكلٍ غير لائق.

عندما حملت ابنتُها أصبح الجميع يتحدَّث عنها، توقَّفوا عن الذَّهاب إلى الكنيسة تجنُّبًا للنَّظرات والهَمهَمَات، كانوا يقولون أنَّها أمٌّ سيِّئةٌ وأن لو كان لزوليلي أبًا لما حدث كلُّ ذلكَ.

انقشعَ الضَّباب يوم وُلِدت (جوجوليثو) وتبدَّل الخزي بالبهجة المُفرطة، استيقظ داخل (جوجو) شيءٌ ما دُفِن مع زوجها، واستقبلت دورَها كجدَّة ببالغ السعادة. عادت (زوليلي) لاستكمال دراسَتها، أمَّا حبيبها عديمُ الفائدة فقد سافر إلى (جنوب إفريقيا)، اعتقدت (جوجو إمخيزي) أنَّها لن تسمع عنه مُجددًا، لكن في العام التَّالي أرسل إلى ابنتِها لتنضمَّ إليه؛ لم تقل (زوليلي) وداعًا بل أخبرَتها أنَّها ذاهبةٌ لشراء الخبز ولم تعد أبدًا.

خرجت (جوجو إمخيزي) وهي تحمل (جوجوليثو) على كتفها، هرعت تبحث في البلدة عن ابنتها وحرَّرتْ محضرًا بفُقدانها في اليوم التَّالي، أمَّا في اليوم الثَّالث جاءَتها مكالمةٌ من (زوليلي) تُخبرها بأنَّها قد وصلت إلى (جوهانسبرج) وأنَّها بخير. لم يتحدَّثا لمدَّة عام كامل حتَّى بدأت بإرسال النُّقود والبقالة ممَّا ساعد على لينِ قلبِ (جوجو)، لكن بمرورِ السَّنوات أرادَت لطفلتها أن تأتي وتعيش معها.

"ماذا سنأكلُ اليوم؟"

سألت (جوجوليثو).

"لقد أعددت السباجيتي{المعكرونة} واللَّحمَ المفرومَ".

ردَّت الجدَّة التي سبق وعملت كمُعلِّمة طهيٍ وتغذيةٍ، لقد طبخت لها كلَّ الوصفات في كتاب الطَّهي؛ لذا كانت (جوجوليثو)

تنتظرُ وجباتِها الملوَّنة بحماسة، لم تكن على دراية بأنَّ جدَّتها تُغيِّر الوصفات أحيانًا عندما لا يتوفَّر لديهم جميع المُكوِّنات المَطلوبةِ.

تفاخرت (جوجو إمخيزي) بكونِها واحدة من القلائل المُتعلِّمات في شارعهم، كان زوجُها مُتعلِّمًا بدوره ويعمل في وزارة الزِّراعة. كان لديهم حديقةٌ صغيرةٌ خلفَ المنزل يزرعون فيها الخُضروات، لقد حافظت عليها حتَّى بعد وفاته كي تبقى على مَقرُبة من روحِهِ.

لم تعرف (جوجوليثو) جدَّها الذي مات قبل مولِدها بزمن طويل، مات في حادثة سيَّارة سلبَت روحَهُ. فقد سائقُ شاحنةٍ السَّيطرة وتصادم دون رحمة بسيَّارته المازدا التي انقلبت ثلاث مرَّاتٍ. كانت (جوجو إميخيزي) في السادسة والعشرين وقتها، واضطُرت لتربية ابنتها ذات الأربعة أعوامٍ وحدَها. لم تتزوَّج أبدًا إخلاصًا لذكرى زوجها، حاول الكثير من الرِّجال التَّقدُّم لخطبتها إلَّا أنَّها كرَّست حياتها للكنيسة كي تُصبح عروسَ يسوع.

"لقد اتَّصلت والدتكِ اليوم مرَّة أخرى، تقول أنَّ عليكِ الذَّهاب وزيارتَها في جوهانسبرج".

"جوهانس اييبيه؟"

ردَّت (جوجوليثو) دون أن ترفع وجهَها من على الطَّبق.

"جو-هانس-برج".

كرَّرتِ الجدَّة ببطء.

"لكنَّني لا أرغب في الذَّهاب، أُريد البقاء معكِ يا جوجو.. أُريد اللعب مع نانا وبازيل ولونجي.."

استكملت تعدُّ جميع أصدقائها على أصابعها؛ أَنَّ قلب (جوجو) فهي لا تحتملُ فكرة فقدان (جوجوليثو). في ذلك المساء بعد أن نامت (جوجوليثو)، قرَّرت الجدة أن تحمل هاتفها وتتَّصل بابنتها وهو الأمر نادر الحُدوثِ؛ كانت تتَّصل بها فقط في حالات الطوارئ وعند موتِ أحد أفراد العائلة. رنَّ الهاتف طويلًا دون ردٍّ وبعدَ عدَّة دقائقَ اتَّصلت (زوليلي)، بدت منزعجةً:

"هل أنتم بخير يا أمي؟"

"نحن بخيرٍ يا زولي".

"هل حزمتِ حقيبة جوجو؟ سيغادرون غدًا".

"هل تثقينَ في هذا الرَّجل؟ هل الموضوع آمن؟"

"الجميع يفعل ذلك يا ماما، كيف سيُمكنها تجاوز الحدود دون أوراقٍ رسميَّة إذًا!"

"يُمكنك أن تدعيها هنا معي، إنَّها بخير هنا".

"لا يا أمي، إنَّها طفلتي وتحتاج لأمِّها".

"لقد ربَّيتها طيلة حياتها يا زولي، ماذا تعرفين أنتِ عن الأمومة؟"

"ماما، أرجوكِ اِصطَحبيها إلى سيارة الكوانتم؛ فهمتِ؟!"

كادت أن تبدي اعتراضها قبل أن تنهي ابنتُها المُكالمة، شعرت بالهزيمة وهي تعتلي الفراش، في تلكَ الليلة تقلّبت كثيرًا في نومها وفي الصباح كانت تشعرُ بالقلق الزَّائد.

أعدَّت (جوجوليثو) للرَّحلة، وذهبا معًا لمقابلة (ميلوزي) في

جراج (ماكس)؛ كانت (جوجو إمخيزي) تعرفه بسبب المرَّات التي أوصل فيها البقَّالة لمنزلهم. كان يُتمُّ هذه المهمَّة لسنوات دون أن يتحدَّث معها بخلاف إلقاء التَّحية.

"من فضلك اعتنِ بحفيدتي".

"لا تقلقي يا جوجو.. نحن نفعل ذلك يوميًا".

رد (ميلوزي) بينما jf;d (جوجوليثو):

"جوجو.. لا تتركيني.. لا تتركيني!"

قاومت الجدَّة دموعها:

"لا يا صغيرتي.. عليكِ الذَّهاب إلى والدتك".

جاء صوتها مُحملًا بكسرة القلب، مسحت دموعها سريعًا ونظرت بعيدًا؛ ربَّما هذا هو الأفضل لها، تحتاج (جوجوليثو) لوالديها.. كلُّ طفل يحتاج لوالديه.

"لا تقلقي يا أمي.. سأراقبُها طول الطريق".

تطوعت امرأة شابة مُسافرة بصحبة ابنها الصغير، شكرتها (جوجو إمخيزي) إلَّا أنَّ (جوجوليثو) لم تشعر بالراحة بل استمرَّت في البكاء والنداء على جدَّتها حتَّى بعد انطلاق الكوانتم، ضربت النافذة برأسها وهي تصرخ:

"جوجو! جوجو! لا تتركيني!"

التصق وجهها الباكي بنافذة السَّيَّارة الرَّاحلة، علقت صورتُها برأس (جوجو إمخيزي).. صورة ستصحبها معها حتَّى قبرِها.

الجزء الثاني
(مدينةُ الذَّهبِ)

وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ:

«اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ

وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ

إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ».

سفر التكوين: ١٢ - ١

11

(هيلبرو) ذلك الحيُّ السَّكني الذي تعلو فيه المباني كالأغصان الهاربة من جحيمِ الشوارع، تقشّرت واجهات المباني لتكشف عن حاجتها لطبقة جديدة من الطِّلاء؛ بعضُها حالفه الحظ وتمَّ تجديده بطلاءٍ أبيض أو أصفر أو وردي. ألوان ساطعة وسط المباني الرَّمادية الباهتة للمباني.

بوصول سيارة (ميلوزي) لشارع (كلايم) انضمَّ لصفِّ السَّيَّارات المُتَّجهة إلى (نوورد) حيث حافلات الأجرة تقف في انتظار الرُّكاب المحتملين، كانت (بورشا) أوَّل المُترجلين من السَّيَّارة؛ وجهها (ميلوزي) نحو أبراج (كلايم) وهي العنوان الذي كانت تبحث عنه، نفس العنوان الذي وجدته على آخر خطاب وصلها من زوجها. وقفت هي و(نيكوسي) على الرَّصيف بينما تتجاوزهم حُشود البشر السريعة، أمسكت بيد ابنها بقوة وسارت نحو مدخل المبنى، برج (كلايم) بواجهته الرمادية، كان المدخل أشبه ببوَّابة السِّجن، وبينما هي في طريقها للدَّاخل أوقفها رجل الأمن لِيَستجوِبَها، أخبرته:

«أنا هنا لرؤية زوجي».

سألها الرَّجل عن بطاقة هويتها.

"أنا لا أملك واحدة".

"جواز السفر؟"

"ليس لدي جواز سفر".

نخر الرجل:

"لا بد أنَّكِ حصلت على بطاقة هُوية في مرحلةٍ ما من حياتكِ".

بعدها أشار لها بالابتعاد عن المدخل وتحدَّث مع الزَّائرين خلَفها، كان دقيقًا يفحص بطاقات الهوية جيدًا ويطلب منهم ملءَ استمارةٍ ما.

"أرجوك تفّهم أنَّني لا أملكُ بطاقة أو جواز سفر".

"نحن لا نسمح بدخول الغرباء، ماذا لو جئتِ لقتل شخصٍ ما؟"

"أرجوكَ.. هل أبدو لك كقاتلة؟"

توسلت (بورشا) لكنَّه لم يتأثَّرْ أو يتحرَّك من مكانه.

"تحرَّكي من هنا يا سيدتي، أنتِ تسدِّين المدخل".

أخذت (بورشا) ابنَها وقادته للخارج، جلست على الرَّصيف بين اثنين من البائعِين الذين يبيعون الحلويات والفشار والفاكهة، أراح (نيكوسي) رأسه في حجرها، كان مُجهدًا لذا بدأت في تدليكِ رأسِهِ بحنان. لقد مرُّوا بأيامٍ مريرة، لذا لن تدع رجل أمنٍ عنيد يحول بينَها وبين الاجتماع بزوجِها؛ لن تغادر قبل أن تعثر على زوجها الذي ولا شكَّ سيخرج من المبنى عاجلًا أم آجلًا. تعجَّبت

(بورشا) من مظهر النساء الحسنوات اللاتي يرتدين الكعوب العالية والملابس المُنمقَّة، بعضُهُنَّ ارتدى الجونلات القصيرة كاشفين عن أرجلهن العارية، وحتَّى الرجال ارتدوا البناطيل الضَّيِّقة والقمصان الملونة والأحذية مدبَّبة الرأس. استمرَّ عرض الأزياء فترة طويلة إلى أن بكى (نيكوسي) من الجوع، حينها تذكرت (بورشا) أنَّهما بالشارع، أحضرت له كيسًا من الرَّقائق ثمَّ أعادت ما تبقى من النُّقود داخل حمالة صدرها. تحدث معها البائع قائلًا:

"أنتِ من زيمبابوي، أليس كذلك؟"

كانت جملة خبرية أكثر من سؤال، أومأت له وأخبرته بموقفها مع رجل الأمن الذي يمنعها من دخول المبنى.

"إنَّه يقوم بعمله وحسب، لكن ليس عليكِ البقاء في الشَّارع، إنَّه غيرُ آمن. أنا أعرف زوجَكِ ويُمكنني مُساعدتُكِ، لكن عليكِ إكرامي بمَشروب".

تفحَّصته (بورشا) بارتياب غير دارية بما يرغب.

"النُّقود يا امرأة.. أحتاج لنقودٍ؛ لا شيء مجَّانًا هنا".

أخرجت (بورشا) النُّقود من حمَّالة صدرها، كانت مطوية ورطبة وهو ما لم يأبَه به البائع، وضع النُّقود في جيبه سريعًا وصحبهما إلى مدخل المبنى. تبادل الحديث مع رجل الأمن الذي سمح لهما بالعبور، كلَّفها الوصول إلى زوجها الكثير من الألم بالإضافة لمئة راند[1].

"زوجُكِ في الطَّابق الثَّاني عشر، المصعد لا يعمل".

---

1 الراند هو عملة جنوب إفريقيا.

تنهدت (بورشا) وهي تنظر نحو السلالم التي تحول بينَها وبينَ زوجِها، صعدت ووقفَت أمام باب الشقَّة رقم ١٢١٥ وهي تلهث من التَّعب ويلهث ابنها الذي كاد ينهار على الدرج. طرقت (بورشا) الباب لتفتح لها امرأة لفّت جسدها بمنشفة، تحيرت (بورشا) وقالت:

"أنا أبحث عن فوساني سيبدانا، لقد قال أنَّه يعيش في رقم ١٢١٥".

سألتها المرأة:

"ومن أنتِ؟"

"أنا زوجته".

تفحَّصت المرأة (بورشا) من رأسها لأخمص قدمها قبل أن تغلق الباب في وجهها، شعرت (بورشا) بالحيرة، فهي شبه مُتأكدة أنَّه العنوان الصحيح؛ هل انتقل زوجها للعيش في مكان آخر دون إخبارها؟ طرقت الباب مُجددًا دون إجابة إلَّا أنَّها سمعت الأصوات المُتجادلة بالدَّاخل تتعالى حدَّة غضبِها.

عندما انفتح الباب فجأة خرجت المرأة غاضبة وقد ارتدَت ملابسَها وعلَّقت حقيبتَها على كتفها، وخلفها وقف (فوساني) زوج (بورشا) وقد بدت عليه الحيرة؛ صاح (نيكوسي) وهو يحتضن أبيه من رجليه:

"بابا، بابا!"

بادله (فوساني) عناقًا جافًا، تعلَّقت عينا (بورشا) بزوجها الذي نظر بعيدًا وأشار لهما بدخول الشقَّة. كانت الشّضقة مكوَّنة من

غرفة كبيرة بها فراش كبير في المُنتصف وخزانة مسنودة على الحائط، لم يكن الفراش مُرتبًا ويبدو أنَّ أحدهم كان نائمًا فيه، نظرت (بورشا) نحو ركن الغرفة حيث أدوات المطبخ وموقد ذي شعلتَين والحوض المُمتلئ عن آخره بكومة من الصحون والآنية المُتسخَةِ.

"يُمكنكما الاستحمام لحين أذهب وأحضر بعض الطَّعام".

أومأت (بورشا) في صمت بينما قادها (فوساني) إلى الحمام، استطاعت أن ترى انعكاسها في المرآة المعلَّقة على الحائط المُجرَّد من البلاط، حتَّى الحمام كان في حاجة لإعادة طلاء؛ هذه الأفكار الثَّانوية لا أهمِّيَّة لها أمام الماء السَّاخن. استحمّضت ونظَّفت جسدها جيدًا ثمَّ فركت جسد (نيكوسي) قبل أن يعود (فوساني) الذي أحضر لهما الدَّجاج المقليّض والرَّقائق.

"بورشا، كيف جئتِ إلى هنا؟"

سألها (فوساني) بعد أن نام (نيكوسي)، سردت له أحداث اليومَين الماضيَين وكيف غادرت المنزل.

"لقد خاطرتَ لهذه الدَّرجة ووضعتِ حياة ابني في خطر حتَّى تحضري إلى هنا؟"

تعجَّبت (بورشا) من الإحباط البادي على وجهه.

"اعتقدتُ أنَّكَ ستُسعدُ بحضورنا هنا".

"أُسعَد؟ تتركين بيتي وأمِّي للحضور إلى هنا؟ من أجل ماذا يا بورشا؟ من أجل ماذا؟"

"من أجلك.. أردتُ لنا أن نكون معًا كعائلة.."

لم تنهِ جملتها إذ باغتَتها صفعةٌ على وجهِها.

"هراء.. عائلتي تبقى في البيت يا بورشا.. هل تسمعينَني؟ هنا ليس بيتكِ!"

"لكنَّه بيتُك أنتَ، أنتَ والعاهرة التي رأيتُها معكَ!"

صفعها (فوساني) مرة أخرى فنزفَت شفتُها السُّفلى.

"المشكلة أنَّكِ لا تسمعين كلامي يا بورشا".

فكَّ حزامه وبدأ في ضربِها بينما غطَّت وجهَها بيديها لتحميه من اعتدائه.

"أخفضي صوتَك يا بورشا وإلّا أيقظتِ الجيران.. أنتِ زوجةٌ غير مُطيعة، لا تسمعين أوامرَ زوجِكِ! أنتِ امرأةٌ سيِّئةٌ يا بورشا.. امرأةٌ سيِّئةٌ!"

كلُّ كلمة كانت مصحوبةً بجلدة بحزامه القويِّ الذي تراقص على جسدها، واصل (فوساني) ضربها حتَّى ألقى بالحزام وانهار على الفراش.

"هل رأيتِ ما جعلتِني أفعله يا بورشا؟ لم أكن لأفعل ذلك لو كُنتِ امرأةً مُطيعة!"

لم تردّ (بورشا).

"ستنامين على الأرض، وفي صباح الغد ستغادرين للعودة إلى المنزل.. هل تسمعينَني؟"

نام (فوساني) على الفراش بجوار ابنه الذي تظاهر بالنَّوم طوال الوقت ووالدتُه تتعرَّض للضَّرب.. كان يستطيع سماع صوت بكائِها وهي تنام على الأرض.

12

سرت الدماء في كُل مكان، غطت الدماء كل بوصة من الأرضية الخرسانيَّة بالغرفة، علقت قدماه في بركة الدَّم الدافئ اللزج تاركًا بصماتٍ دموية على الأرض. هزّ رأسه بصدمة محاولًا استيعاب هول المشهد ببطء.

"يا إلهي! ماذا فعلتِ؟"

لم يُدرك أن جسده يرتجف بشدة إلا عندما أمسكت (شيناي) بكتفيه.

"توقَّف! توقَّف عن الفزع!"

نطقت (شيناي) بصوتٍ كالفحيح، أرعبَه صوتها لدرجة جعلته يصمت. لم تنطق (شيناي) بكلمةٍ واحدةٍ مُنذ عادت من الجناح النفسي في مشفى (باريرنياتوا)، كانت تتواصل مع (شامونوروا) بلغة العينينِ؛ رجَّح الأطبَّاء عجزها المفاجئ عن الكلام نتيجةٍ للصَّدمة النَّفسية التي تعرَّضت لها، وقال البعض أنَّها تعاني من اكتئاب ما بعد الولادة خصوصًا أنَّها وضعت طفلًا ميتًا. كانت لديهم الكثير من التَّفسيرات المُعقدة لحالتها دون أن يهتم أحدُهم بتوفير العلاج، أرسلوها للمنزل بصحبة مُضادَّات الاكتئاب التي تناولتها (شيناي) بإرادتها ومن ثمَّ تبيتُ تُحدِّق في الفراغ.

(شيناي) التي حدقت لسنوات في صمتٍ، تتحدَّث الآن بنبرةٍ آمرة كأنَّها لم تفقد صوتَها؛ حملت وعاءً كبيرًا سبق واحتوى على عصير البرتقال ثمَّ سكبتهُ في أنحاء الغرفة، كان يعرف أنَّه لم يعد يحتوي على البرتقال ذي الرَّائحة النفاذة بل البنزين الذي

اخترقَت أبخرتُه الهواء.

كان (شامونوروا) مُنبهرًا بدقَّة تصرُّفاتها، لقد جرّت الجثَّة نحو رُكن الغرفة، كانت الدِّماء تخرج من جميع فتحاتها؛ العينين والفم والأذنين.. لطالما اعتقدت أنه عديم الدِّماء. تلاقت عيناها بحدقتَيه المُتَّسعتين، لن تقدر أبدًا على مسح المشهد من ذاكرتها. أشعلت الشَّمعة المُجاورة للفراش، لم يستغرق الأمر عدَّة دقائق قبل أن تشتعل الغرفة وتأكلها النِّيران بما فيها جثَّة أبيهم. ابتسمَت ابتسامةً ساخرةً وهي تتخيَّل لحمَه السَّمين تنهشُه النيران المُؤجَّجة.

"شامو، دعنا نخرج من هنا!"

جاء صوتها قويًا ثابتًا، ما زال (شامو) مصدومًا من سماع صوت أخته؛ لقد مضت سنوات دون أن تنطقَ بكلمة. تبعها خارج الغرفة ثمَّ خارج المنزل حيث الشَّوراع المُظلمة التي يُغطيها الليل، ابتسمَت للمرَّة الأولى منذ سنوات، شعر (شامونوروا) بالسَّعادة لرؤيتها تبتسم؛ لقد أداروا ظهورَهم أخيرًا لمنزل طفولتهم القاسية.

أبلغت جارتُهم عن الحريق لدى رؤيتها الدُّخان النَّافر من المنزل، وصل رجال الإطفاء بعد ثلاث ساعات بعد أن تساوى المنزل بالتراب، الأساسات الحديدية وحدها التي بقيَت على حالها. حضر رجال الشرطة في الصباح على درَّاجاتهم الهوائيَّة للتحقيق في سبب الحريق، وبحلول الظهيرة استطاعوا تمييز بقايا الأب المحترق. جلس (شامونوروا) و(شيناي) أمام المنزل بوجوهٍ يائسة، تحدَّث إليهم الشُّرطي:

"أعرف أن الأمر صعب، لكن لدي بعض الأسئلة التي تحتاج

لإجابات".

تناثر الرَّذاذ من فم الشرطي على وجه (شامو) الذي أراد مسح وجهه لكن شعر بأنَّه سيكون تصرفًا وقحًا، أجابه:

"تفضَّل يا سيِّدي الشُّرطي".

"أين كنتَ ليلة أمس عندما اندلع الحريق؟"

"كنت في ملهىً ليليٍّ، لقد عدت للمنزل في الساعات الباكرة من الصباح لأجدَ ما حدث".

أشار نحو الهشيم الأسود الذي كان في يومٍ ما منزلهم.

"أي ملهى ليلي؟"

"إند تايمز".

أومأ الشُرطي ودوّن شيئًا في دفتره، ثمَّ التفت لشيناي:

"ماذا عنكِ؟ أين كُنتِ؟"

لم ترد على أي من أسئلتِه، لذا كرَّرهما مرة أخرى بصوتٍ أعلى؛ قاطعه (شامونوروا):

"هي تستطيع سماعك يا سيدي، لكنَّها فقدتِ القدرة على النُّطق منذ سنوات".

لقد قادتها صدمة الاعتداء الذي تعرَّضت له على يد أبيها نحو الانتحار، كانت في عامها الثاني بالمدرسة الثانوية عندما انقطع نزيفها الشهريُّ فجأة، لم تقلق حيال الأمر بل شعرت بالرَّاحة للتَّخلص من عناء النزيف الذي يصحبه ألمٌ شديدٌ، لكن للأسف صاحب انقطاع النزيف وعكةٌ صحية غير مفهومة، كانت تشعر

بالمرض على الدَّوام وتضطر للتَّقيُّؤ في ساعات الصباح الباكرة، ثمَّ خفَّ الأمر تدريجيًا وبدأت استعادة صحتها.

خلال الأشهر التالية لاحظت أن بطنها تكبر حجمًا، اعتقدَت في البداية أن الدماء التي لم تعد تنزفها كل شهر باتت تتجمع داخل بطنها، وأنَّها ستنفجر في مرحلةٍ ما إلَّا أنَّها أدركت فيما بعد أنَّها حبلى. كانت حالة متكررة بين الفتيات في المدرسة، صدمها الإدراكُ للدَّرجة التي أفقدَتها وعيَها، شعرت بالخزي وفكَّرت كيف ستتعامل مع نظرات زميلاتها، لم يكن بيدها حتَّى مشاركة الأمر مع (شامونوروا) إلَّا أنَّه كان يشعر بمعاناتها كلَّ يوم؛ تعاطَف معها وكأنَّه من يحمل هذا الطفل.

اكتشفت إدارة المدرسة حمل (شيناي) الذي أخفته أسفل سُترتها الزَّرقاء، حدث هذا في أحد أيام أكتوبر الحارة لمّا فقدت وعيها في حصة التَّربية الرّياضية وانفضحَ سرُّها. في مكتب النَّاظرة سألوها عن اسم الولد المسؤول عن حملها؛ انفجرت (شيناي) في البكاء فمن المستحيل أن تخبرَهم بأنَّه لا يوجد ولدٌ مسؤولٌ بل أنَّ أباها هو من تسببَّ بذلك.

تأثرت المعلمات بحالتها لكن لم يكن بأيديهنَّ شيءٌ يمنعُ طردها من المدرسة؛ لقد نصَّت قواعد المدرسة على عدم السماح للفتيات الحبلى باستكمال تعليمهن. لمَّا عرف والدها بالأمر لم يهتمَّ، بل كان رأيه أنَّه لا داعي لتعليم المرأة في الأساس؛ بالنسبةِ له كان الأمر إهدارًا للنُّقود خصوصًا أنَّ على المرأة الزَّواج والإنجاب. قال بلامبالاة:

"ستبقين في المنزل وتربِّين هذا الطفل".

لم يخطر على باله أنَّها لا تزال طفلةً. في اليوم التَّالي ومع ذهابه إلى العمل وذهاب (شامو) إلى المدرسة، أخرجت (شيناي) زجاجة الخمر الفارغة التي شربها أبوها السَّكِّير ليلة أمس، كسرت عنق الزجاجة في مقابل الحائط ثمَّ بدأت تجرح رسغيها وهي تعضُّ على شفتيها وتغرس الزُّجاج في لحمها؛ سرى الألم في جسدها بالكامل، كان ألمًا مُبرِّحًا لم تختبرْه من قبل. فتحت عينيها على مشهد الدِّماء القرمزية.

"يا إلهي!"

شهقت وجثت على ركبتيها؛ هكذا وجدها (شامو) مغشيًّا عليها على الأرض، هزَّها بقوَّة.

"إذًا أنت من عثرتَ على أختكَ؟"

أعاده سؤال الشُرطيّ للحاضر.

أومأ (شامونوروا).

"سندع أختكَ لشأنها الآن ونطلب منها كتابة إجاباتها فيما بعد. هل تعرف أين كانَت؟"

"أعتقد أنَّها ذهبت لزيارة صديقتِها، لا أعرف أيَّ واحدة".

"طوال الليلة؟ أي نوع من الأصدقاء هذه؟"

هزّ (شامو) كتفيه:

"أنا متأكِّد أنَّها ستشرحُ لكَ".

"هل كان والدك يشرب الخمر عندما غادرتَ المنزل؟"

"نعم، كان يشرب!"

"إذًا تعتقد أنَّه كان مخمورًا وتسبَّب في إسقاط الشَّمعة وحرق المنزل؟"

"ربَّما.. لستُ مُتأكدًا؛ هذا محتمل!"

"لكن لماذا لم يحاول الهرب؟ عادةً ما يُحاول الإنسان الهرب من منزل مُحترق، أو على الأقلّ طلب المُساعدة".

"كما قلتُ لكَ، لا أعرف.. يُمكنني فقط التَّخمين؛ لقد كان والدنا سكيرًا على الدَّوام، كان يشرب إلى أن يفقدَ وعيَه".

دوّن الشُرطي شيئًا ما في دفتره ثمَّ أكمل:

"ليس لديَّ أسئلةٌ أخرى الآن، دعنا نتحدَّث بعد الجنازة".

ظهر القلقُ على وجه (شامونوروا):

"لماذا يا سيّدي الشُرطي؟ هل هناك شيءٌ آخر؟"

"أنتَ في حالة صدمة، أعتقدُ أنَّك ستتذكَّر المزيد بعد الجنازة".

تفحص الشرطي (شيناي) التي تنهمر الدُّموع على وجهِهَا.

"أين ستنامان اللَّيلة؟"

"لدينا عمَّة تعيش في مابفوكو".

أوضح (شامو) بينما يُغلق الشُرطي دفتره، تركهما وركب درَّاجته وانطلق مُسرعًا.

"لقد سأل الكثيرَ من الأسئلة!"

نطقت (شيناي) فسألها (شامو):

"هل تعتقدين أنَّه يشكُّ بأمرنا؟"

”لستُ مُتأكّدة..“

”هل تعتقدين أنَّهم سيعرفون أنَّنا الفاعلون؟“

”لا.. نحن فقط من سنعرف؛ هذا سرُّنا“.

أحاطها بذراعه وهو يُفكر.. بعدما يدفنون والدهم سيتركون كل هذا خلفَهم.

13

استندَت (ليندانِي) على سور الشُرفة الصَّغيرة المُطلَّة على شارع (بريتوريا)، كانت في حاجة للاستجمام بعيدًا عن الشقَّة المُزدحمة. عندما أخبرَها (ميلوزي) أنَّ لديه شقَّتَه الخاصة في (جوهانسبرج) اعتقدت أنَّها شقَّة واسعة ذات سطح خاصٍّ في وسط (ساندتون)، لذا شعرَت بالصَّدمة وهو يقودُها نحو بناية لا تحمل اسمًا، مكوَّنةٍ من ستَّة طوابقَ، تحطَّمت كلُّ توقُّعاتِها فورًا.

كانت الشقَّة واسعة وبها غُرفتَين، يتشارك فيها (ميلوزي) العيش مع عدَّة أشخاص آخرين، زوجان ومعهم ابنُهم ذي العام يعيشون في غرفةٍ من الاثنتين، تُنافس صرخات الرَّضيع ضجيج الحياة اللَّيلة لحي (هيلبرو)، يدفع الزَّوجان لميلوزي ألفين وخمسمئةِ راند شهريًا. أمَّا غرفة المعيشة فينام فيها ثلاثة رجال من (الكونغو) يتحدَّثون الفرنسية، يدفعُ كلٌّ منهم خمسمئة راند شهريًّا وينام على مرتبة إسفنجيَّة على الأرض؛ توضع المراتب جانبًا خلال النَّهار لتُفسح مجالًا للعبور من الغرفة نحو المطبخ الذي ينبض بالروائح الشهية على مدار اليوم. يتشاركُ الجميع حمامًا مشغولًا على الدَّوام خلال المساء خصوصًا عندما يُحضر الرِّجال الكونغوليين رفيقاتِهم؛ كثيرًا ما تتحوَّل غرفة المعيشة إلى حفلٍ من العربدة والجنس الجماعي.

تفاخر (ميلوزي) بأنَّ قاطني شقته يساهمون في دفع رهنها العقاري، لقد أخبرها دون قصدٍ أنَّه اشترى المكان برهن يُقدر بمئة وخمسين ألف راند في وقت الرُّكود الاقتصادي؛ تفاخر بأنَّه يكاد يُغطي المبلغ الكامل للشقَّة وأنَّه فيما قريب سيُصبح

مالكها. في الغرفة الثَّانية كانت تنام هي و(ميلوزي) و(جيڤمور) و(جوجوليثو) التي لم تحضر والدتها لاصطحابها، أصرَّ (جيڤمور) في البداية على أن ينام ثلاثتهم على نفس الفراش بعد ضم السريرين معًا.

"هكذا نفعل دائمًا".

أوضح (جيڤمور) الذي قاده (ميلوزي) نحو الشُّرفة بينما وقفت (ليندانى) بجوار الباب لتسترق السمع.

"دعكَ من ليندانى!"

"لكنَّنا نتشارك دائمًا!"

"الأمر مختلف.. ليندانى مهمَّة بالنسبةِ لي، لن نتشاركَها أبدًا!"

"مُهمة؟ إنَّها عاهرة!"

"انتبِه لكلامك".

حذره (ميلوزي). ابتسمَت (ليندانى) التي لم يكن (ميلوزي) يعرفُها جيدًا بعد لكن هاهو يُدافعُ عنها، قرَّرت أن يكون (ميلوزي) تذكرتَها المؤقَّتة نحو مُستقبلٍ مُشرقٍ.

في اللَّيلة الأولى نام (جيڤمور) على سريرِهِ الذي زجَّ به بجانب الحائط، أمَّا هي و(ميلوزي) فناما على السَّرير الآخر في ركن الغرفة ونامت (جوجوليثو) على الأرض في المساحة الشَّاسعة بين السريرين. لم يحدث بينهُما شيءٌ في تلكَ الليلة، احتضنا بعضهما البعضَ مُنهارَين من التَّعب، أما في الليلة الثانية كانت (ليندانى) تعرف ما عليها فعله بجسد (ميلوزي) المُثار؛ لم تتوقَّع أبدًا أن يمارسَ معها الحبَّ بهذه المهارة والدِّقَّة، ذكَّرها بشعريَّة وتحرُّر

مُمارسة الحبِّ، لعِب على أوتار جسدها بمهارة في الظَّلام. كُلَّ ليلة تتراقص أجسادهما المُلتحمة حتَّى باتت (ليندان) تنتظر تلكَ اللَّحظة، قد تكون نهاراتُها مملة وطويلةً إلا أنَّ ليلتها دائمًا نابضةٌ ومثيرة.. لم ينتبهَا لكون (جيڤمور) يُراقب التحامَهما اللَّيلي المُتكرِّر.

تستيقظ (ليندان) كل صباح وهي تتضوَّر جوعًا، وتُعلن (جوجوليثو) عن جوعها أيضًا. تحمل (ليندان) الطفلة من ذراعيها وتحتضن جسدها الضَّئيل، لقد أقسمت أن تأخذَها تحتَ جناح رعايتها فقد كانت (جوجوليثو) الطِّفلة الأكثر براءَةً بابتسامتها المُشرقة وعينيها الطُّفوليَّة؛ ذكَّرتها بشكل غريب بنفسِها في تلك المرحلة العمرية.

"هل أنتِ أمي؟"

سألتها (جوجوليثو)، لم تكن المرَّة الأولى التي تطرح فيها هذا السؤال. ضحكت (ليندان):

"كنت أتمنَّى ذلك يا عزيزتي.. الآن هيا نفكِّرُ فيما سنأكل اليوم!"

"الرَّقائق.. الرَّقائق.. ومزيدًا من الرَّقائق".

أجابت (جوجوليثو) فضحكت (ليندان)، كان كلاهما مُدمنًا على الطعام السريع؛ لم يطبخوا أبدًا في الشقَّة لسببٍ بسيط وهو أن (ميلوزي) لا يمتلك أي أوانٍ للطَّهي أو أدواتِ مائدة. تناولوا الطَّعام السَّريع كلَّ يوم، إمَّا السمك والرَّقائق وإمَّا كيكة الذُّرة.

كان (ميلوزي) قد غادر الشقَّة صباحًا لاستلام الطلبيات التي سيأخذها معه في رحلته إلى (بولاوايو) في نهاية الأسبوع،

أمَّا (جيفمور) فقد غادر بصحبته، شعرت (ليندانى) بالسعادة للتَّخلُّص منه هذا لأنَّ نظراتِه تُشعرها بعدم الارتياح.

"ماذا سنفعل اليوم؟"

سألتها (جوجوليثو) وهي تتناول آخر قطعة من الرَّقائق الغارقة في صلصة الطَّماطم.

"سآخذك إلى الصالون لتصفيف شعرِكِ".

"جدتي من تُصفِّف شعري، لكنَّني أرغب في الذهاب معكِ إلى الصَّالون".

لم تفهم معنى الكلمة خاصةً أنَّ المكان الوحيد الذي أخذتها إليه جدَّتها كان الكنيسة.

"لماذا ليس لديكِ شعر يا عمَّة؟"

ابتسمت (ليندانى) وأجابت:

"إنَّها قصَّة طويلة غير مهمة، ما يهم أنَّني أحبُّ شكلي هكذا".

كانت النَّهارات في الشقَّة أهدأ كثيرًا حيث يرحل كل الرِّجال بحثًا عن لُقمة العيش، تستطيع (ليندانى) حينها أن تستحمَّ دون مُقاطعة، ساعدت (جوجوليثو) على الاستحمام كما تفعلان كلَّ صباح، ثمَّ اصطحبتها إلى صالون تصفيفِ الشَّعر في شارع (كوتسيه).

كان حي (هيلبرو) يعج بالصالونات في كل ركن، تحمل بعضها أسماءً غريبة ومُلفتة مثل (بارادايس) و(صالون الجمال) و(صالون الجمال الأسود) وغيرها، بالإضافة للمُلصقات التي تحمل صورًا

لسيدات بقصأت شعرٍ مُختلفةٍ، ويقفُ مصفِّفو الشَّعر على قوارع الطَّريق يعدون بتحويل أقبح بطة سوداء إلى أميرة.

استطاعت (ليندانى) في مقابل أربعينَ راند فقط أن تغسلَ وتصفِّف شعر (جوجوليثو)، المُصففة الماهرة كانت تُدعى (مارجريت) وقد قامت بتصفيف شعر (جوجوليثو) بينما جلسَت (ليندانى) في مقاعد الاستقبال تقرأ إحدى المجلَّات القديمة من على الطاولة، انهمكت في القراءة إلى أن قاطعها صوتٌ عميقٌ، نظرت لأعلى لترى واحدًا من هؤلاء الرجال طوال القامة بعينَين ثاقبتَين وملامح حادة، أثار مظهرُه الداكن وبشرته المخمليَّة ذكرياتٍ كثيرةً داخلَها.

"كيف هو يومكِ؟"

جفلت (ليندانى) ومالَت نحوه:

"ماذا؟"

"سألتُكِ كيف هو يومُكِ؟"

كان يتحدَّث بلكنة غير واضحة، نظرت (ليندانى) حولها وكأنها تبحث عن شخص ليُترجم لها كلماتِه. مد يده نحوها فصافحته، كانت يده دافئة وأمسكت بيدها لفترة أطول من الطَّبيعي.

"اسمي كايين فرانك أبوتا".

(كايين).. يا له من اسم غير معتاد، يبدو أنَّه أجنبي؛ أعطاها بطاقتَه الشَّخصية التي تحمل بياناتِه.. المدير التَّنفيذي لشركة أبوتا العقاريَّة، هيلبرو أن بيريا.. حملت البطاقة أرقام خمسة هواتفَ مُختلفة.

"اتَّصلي بي يا عزيزتي.. لا بدَّ أن تفعلي".

أصابت (ليندانى) الحيرة وهو يغادر مبتعدًا عنها، وضعت بطاقتَه في حقيبتها بلامبالاة. عاد بعد قليل ومعه بعض المشروبات المُنعشة؛ شكرته (ليندانى):

"شُكرًا لك، هذا ليس ضروريًا".

"لا شكر على واجب، استمتعوا بها عزيزتي".

شعرت (جوجوليثو) بالسعادة لدى رؤيتها المشروبات والحلوى، رشفت (ليندانى) قليلًا من الكوكاكولا وهي تستكمل قراءَة مجلتها.

"ماذا أراد كايين منكِ؟"

سألتها (مارجريت) مصففة الشعر، كانت انتهت من تصفيف شعر (جوجوليثو) وربطه للأعلى؛ تفحصتها (ليندانى) من أسفل لأعلى وأجابت:

"وما شأنكِ أنتِ؟"

خفضَت صوتها وكادت أن تهمس في إذًا (ليندانى):

"إن كايين رجل خَطِرٌ؛ ابتعدي عنه!"

"شُكرًا لنصيحتك يا عزيزتي، لكنَّني أفضل الوقوع في الخطأ بنفسي".

ناولتها ورقة بخمسين راند ثمَّ أكملت:

"ويُمكنك الاحتفاظ بالباقي".

نهضت (ليندانى) وأمسكت بيد (جوجوليثو) وخرجتا من الصَّالون، شعرت بالانزعاج من تدخُّل مصفِّفة الشَّعر في شأنها.. لقد فهمت هذا الرَّجل بصعوبة، فما الذي قد يضطرها للتَّعرف عليه أفضل.

14

تستيقظ (سيبونجيل) وحدها في الخامسة صباحًا، حتَّى في عطلة نهاية الأسبوع عندما لا تكون مضطرَّة للذَّهاب إلى العمل. تجلسُ بعدها على حافَّة الفراش في انتظار شروق الشَّمس، تُقلّب أحيانًا في صفحات إنجيلها وهي تقرأ كلمات لا تفهم مغزاها. في أوقاتٍ أخرى تفتح التلفاز الذي عادةً ما يوقظ (شامونوروا) الذي ينهض فورًا ويستحم في كابينة الحمَّام الضيقة. أما (شيناي) فكانت تشد الغطاء أكثر وتتلحف به.

يتسبب تصرُّفها هذا في إزعاج (سيبونجيل) بدرجة كبيرة؛ يجب ألَّا تنام النِّساء حتَّى هذا الوقت المتأخِّر، هكذا علّمتها أمُّها. لم تعرف كيف تُغير تلك العادة لدى (شيناي) دون أن تجرح مشاعرها، فهي لم تجد بعد الطريقة المُناسبة للتَّواصل مع أطفالها؛ كانا يتحدثان معًا على الدوام مستثنِيِنَ إيَّاها من المُحادثة. كانت محادثاتهم معها مقتضبة وكأنَّها لم تكن أمَّهما يومًا ما، وكأنَّهم غرباء يعيشون في منزلها في (هورلينجام). لقد فشلت في التَّعرف عليهما عندما ذهبت لاستقبالهما في محطَّة (بارك ستيشين)، في ذهنها كانت تبحث عن هيئَتهما كما تركتهُمَا طفلَين في الرَّابعة من العمر. لم تتوقع أن يكون (شامونوروا) بهذا الطُّول والشَّعر الكثيف على رأسه، ولم تتوقع أن تصبح (شيناي) امرأة شابَّة بالغة بثديَين بارزَين. أدركَت لدى رؤيتِهما أنَّ الوقت قد مرّ وأنَّها بدورها قد تقدَّمت في العمر دون أن تتنبه لذلك.

بعدما يرتدي (شامونوروا) ملابسه يودِّعها فتُذكِّره:

"لا تنسَ غذاءك".

كانت أعدَّته له، ابتسم لها مُقدرًا:

"شكرًا لكِ يا أمي".

تُدفئ كلمة –أمي- قلبها، لطالما كان (شامونوروا) مهذبًا على عكس (شيناي) المُتحفِّظة الغاضبة، لم تستوعب (سيبونجيل) مصدرَ غضبِها؛ فكَّرت وهي تستعدُّ للذَّهاب إلى العمل في الوقت الذي ستتحسَّن فيه علاقتهما. ارتدت زيَّها الورديَّ المكوي، لديها زيٌّ بلون مُخصَّص لكلّ يوم من أيام الأسبوع؛ الأزرقُ ليوم الإثنين، والأخضرُ للثُّلاثاء، والبُرتقاليُّ للأربعاء، أمَّا الورديُّ ليوم الخميس، والأحمر ليوم الجُمعَة، في الشِّتاء ترتدي تي شيرت بولو أسفل الزي مع سروالٍ بلون مُماثل. عدَّلت رابطة الرأس التي يتماشى لونُها مع المريلة البيضاءِ المربوطة على وسطها.

عندما بدأت عملها كخادمة منذ عشر سنوات مع عائلة (كورنرز) كانت ترتدي زيًا أزرق اللَّون، اختلف الأمر عندما عملت لصالح عائلة (موليفيس)؛ لقد خلفوا عائلة (كورنرز) بشراء منزِلهم والذين أصروا على أن تكون خادمتهم جزءً من عمليَّة البيع ليضمنوا لها عملًا بعد رحيلهم لمنزل تقاعُدهِم في (دوربان).

كانت تبدأ عملها في السَّادسة صباحًا بتجهيز أطفال العائلة للمدرسة، وتنهي العمل في الخامسة مساءً وأحيانًا بعد ذلك عندما يُطلب منها غسل صحون العشاء. كان لعائلة (موليفيس) طبَّاخٌ يُدعى (فيلمون) يبيت معها في سكنِ الخدم، كان يُبقي على صُحبتها خلال الساعات الباكرة للصباح؛ (فيلمون) كان طبَّاخًا مُتقاعدًا لديه زوجة وعشرة أطفال يعيشون في (ليمبوبو) ولا يراهم إلا في الأعياد، حتَّى عائلته لم يكن مسموحًا لها بزيارته في المنزل.

عانت السَّيِّدة (موليفيس) من جنون الارتياب خاصَّة فيما يتعلَّق بأمان المنزل، لكنها عادةً ما كانت تتحدَّث بصوتٍ هادئ متَّزن حتَّى عندما توبِّخ أطفالها، أو عندما تتجادل بهدوء مع السَّيِّد (موليفيس) والذي عادةً ما يرفع صوتَه في مقابل هدوئِها. لكن على الرغم من هدوئها كانت تستطيع تحطيم كرامتك إلى قطعٍ صغيرة أصغرَ من النَّمل.

لم تحب (سيبونجيل) العائلة التي تعمل لديها بسبب تسلط السَّيِّدة (موليفيس) وأسلوب إدارتها للمنزل، كانت موجودة على الدَّوام للإشراف على عمل الخدم وحرصت على أن يعمل كلٌّ منهم جاهدًا ليستحق كل قرشٍ يتحصَّل عليه.

"أنتِ تحصلين على أكثر من الحدِّ الأدنى للأجور".

تعمدت السَّيِّدة تذكيرها بذلك على الدَّوام وهي تطلب منها غسل ملابسها الداخلية. استغلت (سيبونجيل) فرصة الوظيفة المتاحة لدى عائلة (هيرش) لتقدِّم استقالتها على الفور، ندمها الوحيد كان مفارقة (فيلمون). لم تعبأ السَّيِّدة (موليفيس) بمغادرتها، وبعد أن دفعت لها راتبها الأخير طلبت من رجال الأمن تفتيشَها جيِّدًا قبل مُغادرة المنزل لتتأكَّد أنَّها لم تسرق شيئًا.

هي الآن تعمل لدى عائلة (هيرش) لمدَّة ثلاث سنوات، كان لديهما طفلان في بداية عملها هما (آرون) و(ديفيد) ثمَّ حضرت أختهما (جيلا) ذات العيون الخضراء والشعر الأحمر. لم تكن السَّيِّدة (هيرش) تعمل أو على الأقل تعمل عملًا تحسبه (سيبونجيل) عملًا حقيقًا، كانت تقضي وقتها في الاستوديو الخاص بها بالطابق العلوي ترسم اللَّوحات وهي تُمسك دائمًا

بكأس النبيذ بحجة إمدادها بالإلهام. كان السَّيِّد (هيرش) يُغادر للعمل في الصَّباح الباكر ويعود مُتأخرًا في المساء.

بوصول (سيبونجيل) في الصَّباح تزجُّ إليها السَّيِّدة (هيرش) بابنتها التي تُصدر أصواتًا سعيدة.

"لم تنمْ على الإطلاق".

اشتكَت السَّيِّدة (هيرش).

"لقد رفضت النوم في غرفتها. لا تزعجيني إذًا، سأعاود النوم. يمكنك اصطحابُها لأيِّ مكان، فقط أبعديها عني".

ضحكت (جيلا) ضحكتها المُعدية، فضحكت معها (سيبونجيل) وقالَت لها:

"فتاة شقية، ألستِ كذلك؟"

اصطحبَتها إلى الحديقة بعدما انتهت من غسل الملابس وتعليقها لتجفَّ، أشارت (جيلا) لكلِّ شيء حولها؛ الطُّيور والسَّيَّارات والأعشاب. امتلأت الحديقة بالخادمات اللاتي اصطحبنَ الأطفال على الرغم من أنَّ الوقت لم يتجاوز مُنتصف الظَّهيرة بعد، كانوا يعرفْنَ بعضهُنَّ البعضَ ويتجاذبنَ أطراف الحديث.

"لدي كومة من الملابس المُتَّسخة لأغسلَها".

تذمَّرت (كوني) التي تخدم بمنزل على بعد شارع من عائلة (هيرش) وترعى صبيَّين توءَم.

"أنا سعيدة أنَّ أطفال العائلة يذهبون إلى المدرسة، لقد

أرهقوني كثيرًا من قبل".

تذمرت خادمة أخرى تُدعى (ميلي):

"لقد أخبرت سيِّدتي أن ترسل الأطفال إلى حضانة كريشيه، إلَّا أنَّ السَّيِّد يقولُ أنَّها باهظة الثَّمن كما أنَّه دوري أن أقوم برعايتهم.. المُشكلة أنَّهم لا يدفعون لي مقابلًا مجزيًا".

انضمت (باتريشيا) للمحادثة:

"العائلات البيضاء مُقرفة، يرفض سيِّدي في كلّ مرَّة أطلب علاوة.. أندرو... اِنزل من على الأرجوحة، أندرو!"

هرعت (باتريشيا) نحو الطِّفل غير الآبه بصياحها.

"أنا تعبت من هؤلاء الأطفال ومن تنظيف هذه المنازل".

تذمرت (رو) الجالسة على المقعد المُجاور لهم، ثمَّ رشفت من زجاجة معدنيَّة صغيرة تحملها معها؛ يعرف الجميع أنَّها تشرب الخمر أثناء العمل.

(كوني) و(ميلي) و(باتريشيا) و(رو) ليست أسماؤهنَّ الحقيقية، بل الأسماء التى تم اختيارها لهنَّ عند بدء العمل في منزل السَّيِّد و السَّيِّدة بما يتناسب مع نطقهنَّ للاسم؛ أصبحت (كانانيلو) تحمل اسم (رو)، و(ميلوسوساندو) أصبحت (ميلي) أما (باتيسوا) فهي الآن (باتريشيا) و(روفينيكو) هي (رو). جعلتهن هذه الأسماء أصغر عمرًا على الرغم من أنَّهن جميعًا على مشارف الخمسينات عدا (كوني) التي أصرَّت أنَّها في الأربعين من عمرها.

كانت (رو) من (زيمبابوي) مثلها مثل (سيبونجيل)، لكن لوقتٍ طويل قررت (سيبونجيل) إخفاء حقيقة الأمر عنها مُفضلةً أن

تعتبرَها صديقاتها الجنوب إفريقيات واحدةً منهنَّ. في إحدى المرَّات وفي لحظة طيِبة بينها وبين (رو) قرَّرت أن تردَّ عليها بلغة (الشونا)؛ ظهرت الصَّدمة على وجه (رو) وهما يجلسان وحدَهما في الحديقة، اتَّسعت عيناها دون تصديق:

"أنتِ من زيمبابوي؟"

"لقد كنت متزوجة من رجل من قبيلة الشونا.. تدخَّلت أخواته في زواجنا كثيرًا وأجبروني على المُغادرة".

حكت لها (رو) فورًا عن كيف تركها زوجها من أجل امرأة أخرى لتضطر هي لتربية أطفالها الثَّلاثة، وكيف كانت تعمل كمُعلِّمة تاريخ في مدرسة الكنيسة لكنَّها اضطرَّت للرَّحيل إلى (جنوب إفريقيا) كي تضمن ألَّا يخسروا منزلَهم في (بوديريو).

عندما روت (سيبونجيل) القصَّة على الخادمات الأخريات كانت ردودهن مُتحاملةً على (رو)؛ قالت (كوني):

"مُعلِّمة تاريخ وتعمل الآن كخادمة في بيتِ عائلة من البيض!"

"زيمبابوية وتعمل كخادمة.. اعتقدتُ أنَّ لديكم كرامة".

ردت (باتريشيا) بينما أضافت (ميلي):

"لا يوجد فقراء في زيمبابوي، وعلى الرَّغم من ذلكَ أنتم هنا".

كانت (سيبونجيل) على يقين أنَّهنَّ يتحدَّثن عنها أيضًا في غيابها خصوصًا مع وصول أبنائها منذ شهرين، أخبرَتهم ذات صباح أنَّها لا تستطيع العثور على عمل لابنتها، أظهرْنَ تعاطفهُنَّ وأخبرَتها (باتريشيا) فيما بعد أنَّها سمعت عن وظيفة مُتاحة.

"صديقة سيدتي تبحث عن خادمة، من الواضح أن خادمتها عادت إلى زيمباكوي".

"زيمبابوي.."

صحَّحت لها (سيبونجيل) لكن (باتريشيا) ردَّت مُتجاهلة تصحيحها :

"يُمكنها حتَّى بدء العمل اليوم.."

لمعت عينا (سيبونجيل) بالحماس وقرَّرت إعلام (شيناي) على الفور، بحثت عن (جيلا) في حديقة الأطفال ثمَّ ودَّعت الخادمات وسارت في طريقها.

15

انقضى اليوم وأشرقت الشمس إيذانًا بيوم جديد، على الرَّغم من كونها السادسة صباحًا إلا أنَّ شوارع حي (هيلبرو) كانت تضج بالحياة؛ كان الحيُّ بمثابة نقطة الانصهار للثَّقافات واللُّغات الإفريقية المُتَّقدة في قلب (جوهانسبرج). هنا يجيء الناس من أقصى الشمال حيث (جمهورية الكونغو الدِّيمقراطية) ومن أقصى الغرب حيث (غانا) و(نيجيريا) ومن السَّواحل الشَّرقيَّة المُوزمبيقيَّة، من وسط إفريقيا الدامي ببلادٍ دمَّرتها الحروب مثل (الصُّومال) و(السُّودان) ولبلادٍ في جنوبها مثل (زامبيا) و(زيمبابوي). جميعهم قادمون إلى هذه الأحياء السَّكنيَّة التي تفيضُ بالبشر والأوساخ والجريمة.

كانت (بورشا) وابنها جزءً من هذا الزُّحام، تتبَّعا خطوات (فوساني) المُسرعة، رغبت في إمتاع نظرها بكل بناية وكلّ مشهدٍ في شارع (كلايم)؛ لن يصدِّق أحد من السُّكَّان الحاليِّين أنَّه في منتصف السَّبعينات كان حيُّ (هيلبرو) بمثابة (نيويورك) لكن هنا في (جوهانسبرج) وذلك بسبب الحياة اللَّيلية النَّابضة والشُّقق السَّكنية المُرفهة.

في الماضي كان الحيَّ الأساسيَّ للبيض، لكن بمرور الوقت اختلط بالألوان العِرقيَّة المُختلفة. بحلول مُنتصف الثَّمانينات غادر سُكان الطبقة المُتوسِّطة، وبحلول التِّسعينات ظهرت علاماتُ التَّهالك والجريمة على الحيّ؛ النَّوافذ المُهشَّمة والحوائطُ المُشوَّهة والطِّلاء المُتآكل أصبحوا يُغطُّون واجهة (جوهانسبرج).

بإمكانك شراء أي شيء في هذه الشوارع بداية من علب الحلوى

وحتَّى جرامات الكوكايين. غطت المُلصقات الجدران، مُلصقاتٌ دعائيَّة لخدمات تتنوَّع من التَّطهير الرُّوحيّ وحتَّى تضخيمِ العضو الذكريّ؛ أحد المُلصقات كان أحمرَ اللَّون مكتوبٌ عليه.. النَّبيُّ مويو من بينجا.. وأسفل الاسم يوجد رقم الهاتف والخدمات التي يعرضها من شفاء الأمراض وحتَّى علاج المشكلات الماليَّة والزَّوجيَّة.

قطع (فوساني) شارع (كلايم) ثمَّ انعطف نحو شارع (وولمارانس) حيث توجد كنيسة كبيرة في ركنه، حفرت (بورشا) صورتَّها بذاكرتها؛ هذا المكان سيكون ملاذًا آمنًا لها ولنيكوسي عند اللُّزوم. تابع (فوساني) قيادتَّهما نحو شارع (كينج جورج) المُكتظّ بسيَّارات الأجرة؛ ضمت (بورشا) ابنَها حتَّى لا تدهمَهُ السيارات. كانت الأرصفة المُخصَّصة للمارَّة تعجُّ بالبائعين، واستطاع (نيكوسي) من وسطهم أن يميِّز حديقةَ الأطفال القابعة أمامَهم.

"ماما، أنظرِي!"

أشار بصوتِه المُتحمِّس نحو ألعاب الأطفال المُلوَّنة في الحديقة والتي تحمل شخصيَّات ديزني مرسومةً عليها.

"نعم، نعم!"

"هل يمكنني اللَّعب هناك؟"

"لا يوجد وقتٌ للَّعب".

رد الأب بينما قطعت (بورشا) عهدًا على نفسها أن تُحضره إلى هنا فيما بعد ليلعب؛ تذكَّرت الشارع جيدًا.. (كينج جورج)،

ستتركه يلعب طيلةَ اليوم إن أراد، ستجلس هي على المقاعد أمامَ الحديقة مع البالغين الآخرين وتراقبه وهو يلعب. أقسمَت أنَّه سيحظى بحياةٍ أفضل من تلكَ التي عاشَتْها.

ازداد البائعون بامتداد الطريق، كانوا يفترشون كلَّ بقعة مُتاحة لدرجةٍ تمنعُكَ من السَّير دون الالتحام مع الشَّخص المجاور لكَ. توقَّفوا أخيرًا عند موقفٍ لحافلات الأجرة أمام محطَّة (بارك ستيشين)، وبدون أيّ مقدمات زجَّ بهم (فوساني) داخل حافلة من الحافلات المُتَّجهة إلى (زيمبابوي)، دفع ببعض النُّقود في يد (بورشا) مؤكِّدًا أنَّها ستكون كافية لرحلتها. شدَّ على يد ابنه وأَومَأَ لزوجته ثمَّ التفتَ راحلًا بعيدًا عنهم.

أخبرت (بورشا) السَّائق بأنَّها ستذهب لشراء بعض الطعام ثمَّ تعود إليه، غمغم السَّائق بكلام غير مفهوم بينما التحمت (بورشا) وابنها بالحشد الغفير للبشر؛ لا شيء سيدفعها أبدًا للعودة إلى هذه السَّيَّارة.. لقد وجدت حرِّيَّتها أخيرًا وهي غير مُستعدَّة للتَّخلِّي عنها.

توقَّفت أمام محال الطعام عند مدخل (بارك ستيشن)، فاحت روائح اللَّحم والدَّجاج المقلي وتغلغلَت أنفها. اشترت (بورشا) النَّقانق والأماجوينيا المَقليَّة في الزَّيت، ثمَّ اشترت الفانتا وصودا اللَّيمون من بائع آخر. جلسا في منطقة مُظلَّلة لتناول الطعام بنهمٍ.

"أحبُّ المكان هنا".

قالها (نيكوسي) لتردَّ (بورشا) وهي تمسح وجهَه بيدها:

”وأنا أيضًا!“

”لماذا يريد بابا أن نعود؟“

”لأنَّه أنانيٌّ يرغبُ في الاستمتاع بهذه الحياة وحدَه.. لكنَّنا لن نعود إلى هناك؛ هل تفهمُني؟ سنجعلُ هنا بيتنا“.

أومأ (نيكوسي):

”أفهمُكِ يا ماما“.

ربتَت على رأسه الحليق بحنان:

”لكن عليّ أوَّلًا العثور على عمل“.

”حسنًا يا ماما، لكن هل يُمكنني قبل ذلكَ اللّعب في الحديقة؟“

أومأت (بورشا) وعقدت عزمها على العثور على عمل، على كل حال لديها حوالي ألف راند مُخبَّأة في حمّالة صدرها إلّا أنَّها لا تعرف إلى متى ستكفيهما هذه النُّقود قبل أن يصبحا معدومينِ. انضمَّت (بورشا) لجموعِ النأّس الغفيرة في تلكَ السَّاعة النَّهاريَّة المُزدحمة وقد سلّحت نفسَها بالثِّقة وإحساسٍ زائفٍ بالجُرأة.

16

أشرق الصَّباح على حيِّ (جارث)، هُنا أصبح منزل (دوميساني) في تلك البناية ذات الطوابق السِّت بشارع (تويست). نام على مرتبةٍ إسفنجيَّة على الأرض الخرسانيَّة لشرفة شقَّة خالِه، كان يحلُمُ كلَّ ليلة بفراشِه الواسع المُريح ويستيقظُ كلَّ صباح بألمٍ مُبرِّحٍ في ظهره لم يتسنَّ له أن يشكو منه.

أسفل البناية توجد كابينة هاتف ومكتبة، في المكتبة استطاع نسخَ سيرته الذَّاتية عدَّة نُسخٍ بعدما صادق الكاشير الباكستانيَّ الذي يعمل بها فأصبح يتركه يستخدم ماكينة التَّصوير مجانًا.

لقد وصل (دوميساني) إلى (جوهانسبرج) بدون قرش واحد أو هاتف، أعطاه أحد الرُّكاب عشرين راند ليتمكن من الاتِّصال بخاله (مالومي جاكسون) وهو الأخ الأصغر لوالدتِهِ.

جاء (مالومي جاكسون) إلى (جوهانسبرج) في الثَّمانينات، استطاع الاندماج بالثَّقافة والحياة الجنوب إفريقية بفضل أسلوبِهِ غير المُتكلِّف، كان فخورًا بأنَّه انتقل بعائلته للعيش في شقَّة بحالٍ مناسبة؛ ستبدو الشقَّة مُريحة لو ما كلفت زوجتَه خاطرَها بتنظيفها من الحين للآخر. كانت زوجتُه امرأةً ضخمةً تقضي يومها على الأريكة المُخمليَّة لمُشاهدة التِّلفاز ولا تفارقُها إلَّا للذَّهاب إلى الحمَّام أو النَّوم، وكان لديهما ثلاث بناتٍ جميلاتٍ تتجوَّلن في الشقَّة شبهَ عارياتٍ ولا يفعلْنَ أيَّ شيءٍ مثلُهنَّ مثلُ أمِّهنَّ.

"ستنام هنا".

أشار (مالومي جاكسون) إلى الشُرفة المُغلقة في الشقَّة والتي أصبحت مخزنًا لكلِّ الأغراض غير الضَّرورية، اجتهد (دوميساني) في تخصيص مساحة مناسبةٍ لينام فيها وسط الفوضى، وضع صورة زوجتِه وابنِه أعلى صندوقِ جعَّة فارغ؛ كان يتأمَّلها في اللَّحظات التي يشعر فيها باليأس.

عاني (دوميساني) من الأرق في اللَّيالي الأولى، كانت الضَّوضاء القادمة من الأسفل هي السبب، وبدلًا من النَّوم كان يُراقب حالة الشَّارع بالأسفل وكأنَّه يُشاهد فيلمًا حقيقيًا؛ السَّيَّارات المُسرعة وأصوات دويِّ الرَّصاص والصَّرخات الثَّاقبة القادرة على إيقاظ الموتى. شاهد عمليَّات بيعِ المُخدِّرات للرِّجال البيض الأغنياء في سيَّاراتهم الفارهة، تُفتح النَّوافذ وفي لمح البصر يتمُّ تبادل النُّقود في مُقابل اللُّفافات البيضاء.. كانت المَشاهد تُكرِّر نفسَها كلَّ ليلةٍ.

استيقظ (دوميساني) هذا الصباح على أصوات شجار (مالومي جاكسون) مع زوجتِه، من الواضح أنَّه قد عاد للمنزل في الخامسة صباحًا ويأبى إخبار زوجته بمكانِه، لذا بدأت الزَّوجة في الصُّراخ والسِّباب. ارتدى (دوميساني) قميصَه الأسود وبنطالَه الجينز سريعًا ليهرب من أصوات الصِّياح، كان هذا زيَّه الضَّروريَّ للعمل في المطعم. أخبره (مالومي جاكسون) أنَّها الوظيفة الوحيدة التي يُمكن العمل فيها فورًا دون الحاجة لأوراق إثبات هُويَّة، وقد كان بالفعل.

لم يحب (دوميساني) عمله خاصَّةً مع ساعاتِ العمل الطويلة التي لا تتوافقُ مع النُّقود التي يحصل عليها، بالإضافة إلى أسلوب التَّعامل الخاص ببعض العملاء الذين يخدمُهم في المطعم والذين

كثيرًا ما يأبون تركَ البقشيش.

غادر (دوميساني) البناية واتَّجه إلى كابينة الهاتف، لقد اكتشف أن استخدام الكابينة أرخص بكثير من استخدام الهاتف المحمول للاتِّصال بزوجته؛ كانا يتبادلان الرَّسائل النَّصِّيَّة كثيرًا إلَّا أنَّه لم يقدر على مُقاومة رغبتِه في الاستماع إلى صوتِ ابنه أو صوت (كريستين) العذب الذي يُبهجه دائمًا وهي تقول:

"أنا أفتقدُكَ بشدَّة".

"أنا أيضًا أفتقدُكِ بدرجة لا تتخيَّلينَها".

كثيرًا ما استيقظ في مُنتصف اللَّيل وهو يحنُّ للعودة إلى المنزل إلَّا أنَّه يعرف أن لا خيار أمامه.

"كلُّ شيء سيُصبح على ما يُرام بعدما أحصل على أوراقي القانونيَّة للعيش هنا".

لم يُخبرها (دوميساني) عن تعرُّضه للسَّرقة خلال الرِّحلة، فهو لم يتعرَّض لسرقة نقودِه وحسب بل سطوا أيضًا على كرامته. كان يعرف أنَّه بدون النُّقود لن يقدر على شراء هُويَّةٍ جديدة، أخبره (مالومي جاكسون) أن بإمكانه تيسير الأمر له عندما يتحصّل على المبلغ المناسب.

حاول (دوميساني) الاتصال ببعض أصدقائه القدامي الذين سرعان ما تتغير نبرة صوتِهم بمجرَّد أن يسرد عليهم مشكلتَه، وفي الأغلب لا يُجيبون مكالماتِه عندما يُعاود الاتِّصال بهم. كان يعمل جاهدًا لتوفير النُّقود، لكنَّه يحصل على مئتي راند فقط في نهاية يوم العمل وأحيانًا في اللَّيالي المَشغولة قد يحصل على أربعمئة

راند؛ بهذا المُعدَّل لا يعرف متى سيقدر على جمع المال اللازم.

"بدأ الجنينُ في الرَّكل الآن.. إنَّه يحبُّ اللَّعب".

نبض قلب (دوميساني) سريعًا، لقد كانَت (كريستين) في شهر الحمل الخامس، كانت فكرتُهم الأساسيَّة أن تنضمَّ له في (جوهانسبرج) بعد ولادتِها وبعدما يكون قد استقرَّ في شقَّة مُناسبة ذات غرفتَين؛ لكن ما آلت إليه الظُّروف دفعَه للشكِّ في قدرتِه على تحقيق هذه الأهداف.

سمع (دوميساني) صوت صفارة نهاية المكالمة التي تُنبِّهُه لضرورة وضع عملات إضافيَّة لاستكمال الحديث.

"حبيبتي، عليّ الذهاب.. أعدكِ أن نتحدَّث قريبًا.. أحبُّكِ بشدة".

ردَّت (كريستين):

"أنا أيضًا أحبُّكَ".

انقطع الخط وشعر (دوميساني) بالخواء داخلَه، مد يده في جيبه لإخراج عُملة إضافيَّة لكن جيبَه كان خاليًا.

عبر الطريق مُثقلَ القلب وبدأ رحلتَه نحو العمل، عادةً ما كان يسيرُ قليلًا ومن ثمَّ يستقلُّ سيَّارة أجرة إلَّا أنَّه قرَّر اليوم توفير عشرة راند قيمة الأجرة. واصلَ السَّير حتَّى وصل إلى جادَّة (جرانت) حيث الشَّارع المُزدحم بالمقاهي والمطاعم وصالونات الشَّعر.

ذكّر نفسه بأنَّه مع تحسُّن الأمور سيُحبُّ الاستقرار مع عائلته في حي (نوروود) كونه حي آمن ولطيف، تخيَّل نفسَه يلعب مع أطفاله في الحديقة أثناء عطلة نهاية الأسبوع. فكّر في أن يصحب عائلته لتناول الطعام في مطاعم مثل (شاي كارما) و(يوروبا)

و(شاورما)، وأن يشتري لزوجته سيَّارة عائليَّة مناسبة أما هو فيقود سيَّارة مرسيدس فارهة. كانت هذه الأحلام بمثابة الوقود الذي يدفعُه للعمل.

ابتسم ابتسامة مُشرقة فورَ وصوله إلى مطعم (دولشي فيتا) حيث يعمل وهو مطعمٌ إيطاليٌّ مُتخصِّص في الطَّعام الإيطالي الأصيل. كان عليه في يومه الأوَّل أن يحفظ قائمة الطَّعام عن ظهر قلبٍ ومن ثمَّ يخوض اختبارًا للتَّأكُّد من حفظها بنجاح؛ لطالما تحلَّى بذاكرته البَصريَّة القويَّة.

كان (دوميساني) أوَّل الواصلين إلى العمل، يبدأ مُساعدة مُشرف المطعم على فتحه في الصَّباح ومن ثمَّ يبدأ بتقديم المَشروبات وطعامِ الإفطار للزَّبائن الدَّائمين؛ زبونُه المُفضَّل رجلٌ يهوديٌّ في مُنتصف العمر اسمه (سولومان كاوفمان)، كان يحضر كلَّ صباح ليحتسي الكابوتشينو ويقرأ صحيفتَي (بيزنس داي) و(فاينانشال تايمز)، تذمَّر (سولومان) بينما يشرب الكابوتشينو من حالة الوضع الاقتصاديِّ العالميِّ المُتردِّيَة. ما أحبَّه (دوميساني) بخصوص هذا الرَّجل أنَّه دائمًا ما يستقطِعُ من وقته للتَّحدُّث معه، يسألُه عن حياته وزوجتِه وعائلتِه ويترُكُ له البقشيش السَّخيَّ؛ تكرَّر الأمر هذا الصباح وعندما غادر تاركًا الصُحف قرر (دوميساني) الاطلاع عليها ليعثر على ما يتحدَّث بخصوصِه مع الرَّجل في الغد.

"أنتَ! يا دومي.. أنا لا أدفع لكَ لقراءة الصُّحف.. افعلْ ذلك في وقتِ راحتكَ".

صاح مُديره فطوى الصحف وتعهَّد أن يقرأَها لاحقًا بعدَ ساعات العمل الرسمية. مرَّ اليوم طويلًا واتجه (دوميساني) في طريقه،

باغته صوتٌ مألوفٌ يُنادي اسمه، التفت ليجدَه (شامونوروا)؛ لقد جلسا جنبًا إلى جنب في رحلتهم المريرة إلى (جنوب إفريقيا). شعر (دوميساني) بالبهجة لدى رؤيته، لقد كان (شامونوروا) من أعطاه العشرين راند ليتَّصل بخاله، وبعدما تفارقا لم يخطر على بال أحدهما أنَّهما سيتقابلان مُجددًا.

تعانقا بحماسٍ وتبادلا التَّحيَّة، بعدها أخبره (شامونوروا) أنَّه يعمل في مطعمٍ للطَّعام السَّريـع؛ ردَّ (دوميساني):

"يبدو أنَّنا نعمل في نفس المجال؛ أنا أعمل كنادلٍ".

"على الأقلِّ أنتَ تُقدِّم الطَّلبات، أمَّا أنا فأُنظِّف الأرضيَّات والمَراحيض.. أين تُقيم؟"

"في هيلبرو مع خالي".

"حسنًا هيا نسيرُ معًا، أنا أَستقلُّ سيارة أجرة من نوورد.. أعيش مع والدتي في شقَّة مُريحة لكنَّها ليست أفضل ما يكون".

فهم (دوميساني) قصدَه دون الحاجة لمزيدٍ من الشرح. سارا معًا نحو (هيلبرو) وهما يتشاركان تجربتَهما حتَّى الآن في (جوهانسبرج)، والأهمُّ من ذلك تطلُّعاتُهما للمُستقبل. سعد (دوميساني) بهذه التَّمشية لدرجة أنَّه انتظر ركوب (شامونوروا) سيَّارةَ الأجرة قبل أن يودِّعَه؛ تبادلا أرقام الهاتف وتعهَّدا على التَّواصل.

شعر (دوميساني) بأنَّ حملًا ما خُفِّفَ من على كتفيه، شعر بالرَّاحة جرّاء معرفتِه أنَّه ليس وحيدًا في معاناتِه وأنَّ شخصًا غيره من وطنه يشاركُه نفسَ الصُّعوبات؛ أحسَّ أنَّهما قد قطعا طريقًا طويلًا بالفعل.

17

لو كانت سيارة الكوانتم قادرةً على النُّطق لتلفَّظت بالكثير من الشَّتائم المُوجَّهة لمالكيها، لقد ثبَّتوا بمؤخِّرتها جرَّارًا لحمل البضائع المُكدسة أعلاه؛ أجهزة التِّلفاز والثَّلَّاجات وهياكل الأسرّة وقطع الأثاث المُتجهة إلى (زيمبابوي). أما السَّيَّارة من الداخل فكانت تعجُّ بصناديق البقَّالة التي تحتوي على بضائعَ مثل زيتِ الطَّهيِ ومعجون أسنانِ (كولجيت)، أمَّا البضائع التي زادت عن استيعاب السَّيَّارة فقد افترشت أرضية الجراج أمامَهم؛ عقد (ميلوزي) ذراعيه باستسلام:

"نحن في حاجة لسيَّارة جديدة، هكذا سنتمكَّن من مُضاعفة أرباحنا".

وافقه (جيفمور):

"نعم.. حالة هذه السَّيَّارة لم تعدْ مُناسبة".

وقفت (ليندانى) بجوار السَّيَّارة مُنبهرةً بكميَّة البضائع أمامَها، حتَّى الأطعمة الأساسيَّة مثل البيض والبطاطس كانت جزءً من الحمولة، على الأرجح أنَّ بعض العائلات ستتضوَّر جوعًا لو لم تصل إليهم صناديق التَّموين هذا الشهر.

تعلَّقت يد (جوجوليثو) بيد (ليندانى)، سيتفارقان أخيرًا بعدما أخبرَها (ميلوزي) أنَّه سيصحب (جوجوليثو) إلى جدَّتها بما أنَّهم لم ينجحوا في العثور على والدتِها.

"علينا التَّحرُّك الآن، ستكون رحلةً طويلةً إلى بولاوايو".

تنهَّد (ميلوزي) ثمَّ التفتَ نحو (ليندانى) وداعبَ وجنتَها:

"كوني فتاةً طيِّبَة.."

قبَّلها بشغفٍ ثمَّ وضع حزمة نقودٍ بين ثدييها، لقد اكتسبت بعض الوزن من الطَّعام السَّريـع الذي تتناوله، زاد حجم صدرها وفخذيها مما جعلَها أكثرَ جمالًا؛ أصبح شغوفًا بجسدها أكثرَ ممَّا سبق.. وكذلك (جيڤمور).

"اذهبي للتَّسوق وشراء بعض الملابس الجميلةِ من أجلكِ".

"سأفعل".

التفتَتْ (ليندانى) وقبّلت (جوجوليثو) قبلةَ وداعٍ ثمَّ احتضنَتْها بقوَّة، استطاعَت أن تشعر بنبضاتِ قلبِها المُتسارعة خلفَ ملابسها الرَّثّة. اضطرَّ (ميلوزي) لتحريرِ الطِّفلة من بين ذراعيها، ثمَّ وضعَها وسط صناديق البقالة داخلَ السَّيَّارة.

انطلقت الكوانتم في طريقها لكنَّها توقَّفت بعد دقائق أمام بناية مُتهالكة يبدو أنَّها كانت فندقًا في يومٍ من الأيَّام، حملت أعمدة المدخل أعلامًا رثّة لثلاث بلدان هي (أمريكا) و(إنجلترا) و(جنوب إفريقيا).

لقد سبق واكتظ حي (هيلبرو) بالفنادق الشهيرة التي يحمل كلٌّ منها قصَّته؛ فندق (كويرينال) تصدَّر عناوين الصُّحف عام ١٩٩٥م عندما عُثِر على عشيقِ الفنانة (بريندا فاسي) ميتًا في إحدى غُرفِه، أما فندق (لاندروست) الفخم فكان أوَّل فندقٍ يتحوَّل إلى بناية سكنيَّةٍ تطلُّ على موقف سيَّارات (نوورد).

بإمكانك في هذه المنطقة أن تحصل على زجاجة جعّة مقابل خمسة عشر راند وعلى جنسٍ فمويٍّ مُقابلَ خمسين راند، أما

في مُحيط البنايات الأكثر فخامةً فتتمكّن من الاستمتاع بليلةٍ ساخنةٍ مُقابلَ مئةٍ وخمسة وأربعين راند؛ لم يكن (ميلوزي) باحثًا عن هذا النَّوع من المُتعة إذ أنَّه تعلَّم أنَّ بإمكانه الحصول على ما يُريد دون أن يدفعَ قرشًا واحدًا، كما أنَّه لم يحبَّ الاجتماع بالعاهرات كثيرًا.

"أسرِع بقدر الإمكان".

وجَّهَ الأمر إلى (جيڤمور) الذي ترّجل من السَّيَّارة ثمَّ فتح بابها وحمل (جوجوليثو). انطلقا نحو مدخل البناية الذي تفوح منه رائحةُ البول، تحدَّث سريعًا مع رجل الأمن ثمَّ انتظرَا المصعد الذي أخذهما للطَّابق السَّادس. طرق على الباب لِيفتح له رجلٌ صينيٌّ تفحَّص (جيڤمور) برِيبة.

"كيف أساعدُكِ؟"

"لقد اتَّصلتُ بخصوص الفتاة الصَّغيرة".

أشار له الرَّجل بالدُّخول ثمَّ تفحَّص الرُّدهة ليتأكَّد أن لا أحدَ يُراقبُهم، بعدها تبعَهم وجلسَ على مقعدٍ خلفَ مكتبٍ في مُنتصف الغرفة.

"كم تريد؟ سأدفع لكَ ألفًا".

هزَّ (جيڤمور) رأسَه باستنكار:

"أُريد عشرة آلاف راند.. الطَّلب مُتزايدٌ على الفتيات؛ إنَّها صغيرةٌ وجميلةٌ".

أمسك بذقن (جوجوليثو) ورفع رأسَها لأعلى، كانت ولا شكَّ جميلة. عرِف (جيڤمور) أنَّه سيتمكَّن من تحصيل النُّقود على

الفور بعدما يتمُّ صفقةَ بيعِها لصالح دعارة الأطفال.

"كما أنَّها بريئة ولم يلمسها أحد".

"عشرة آلاف مبلغ كبير.. أنا أشتري ثلاثة صبيانٍ مُقابل عشرة آلاف".

"خُذهَا أو لا تأخُذها.. هذه هي الصَّفقة".

التفتَ الرَّجل نحو امرأةٍ صينيَّةٍ مستلقيةٍ على أريكة بالغرفة، نهضت من مكانها فورًا وتبادلت معه الحوار بالصِّينيَّة ثمَّ اصطحَبَت (جوجوليثو) إلى الحمَّام. عندما عادت كانت الطِّفلة في حالةٍ من الألم والانزعاج الشَّديدَين والدُّموع تغطِّي وجهَها.

"إنَّها عذراء".

أوضحت المرأة. تنهَّد الصيني وبدأ في إخراج النُّقود من مكتبه، راجع (جيڤمور) النُّقود وشعر بالسَّعادة الغامرة وهو يضعُها في جيبِه ثمَّ التفتَ إلى (جوجوليثو):

"مِن اليوم هذه هي أمُّكِ، اسمعي كلامَها".

شكر الرَّجل الصِّينيُّ الذي لم يبادلْه الامتنان بعد ما اضطرَّ لدفعه. بعد قليل عاد إلى السَّيَّارة حيث (ميلوزي) المُتوتِّر.

"لماذا استغرقتَ وقتًا طويلًا؟"

"هذا الصِّينيُّ الأخرقُ، لقد أعطاني خمسةَ آلاف راند فقط.. ماذا يمكُننَا الشِّراء بهذا المَبلغ؟"

"يُمكننا شراء سيَّارة جديدة ومن ثمَّ تلحقُ بي في المَساء".

شغَّل (ميلوزي) المُحرِّك ثمَّ أكمل:

"إذا ظهرَت والدة الطفلة فسنُخبرها أنَّها قد غرقَت في النَّهر".

"والدتها غبيَّةٌ على كلّ حال، تطلَّب إرسالُها إلى هنا ولا تحضر لأخذها.. نحن لسنا شركة تخزين".

هكذا فقط حُسِم مَصير (جوجوليثو).

أوصل (ميلوزي) رفيقَه إلى الشقَّة ثمَّ انطلق في رحلته نحو الشَّمال، أمَّا (جيڤمور) فلم يعبَأ بالبحث عن سيَّارة جديدة لشرائها، بل ذهب إلى حانة (ذا بيز) في شارع (تويست) وطلب طبقًا من الدَّجاج وكيكة الذُّرة بالإضافة لزجاجة جعَّة.

جلس بمفرده حتَّى انضمَّ له رجلٌ سمينُ الهيئة، كان يرتدي سلسلةً ذهبيَّة حول عُنقه السَّمين وساعة روليكس ذهبيَّة على معصمه. رحَّب (جيڤمور) بالرَّجل على مضض وبعدما شربوا خمسة كؤوس أخبرَه الرَّجل أنَّ اسمَه (مالومي جاكسون) وأنَّه يُدير الكثير من الأعمال في الجوار؛ أشار نحو الخارج حيثُ سيَّارته المرسيدس الواقفة أمامَ الحانة.

"أنا دائمًا ما أبحث عن رجال للعمل معي".

"أي نوع من العمل، أنا لا أنوي العمل كبُستانيٍّ في منزل أحدِهم".

ضحك (مالومي جاكسون) ضحكةً عميقةً جعلَت جسدَه بالكامل يهتزُّ.

"عملٌ في مقابل نقود كثيرة؛ لن تندم!"

اقتنع (جيڤمور) وأخذ بطاقة الرَّجل ووعده أن يتَّصل به لاحقًا، وبعد عدَّة ساعات عاد إلى الشقَّة. كانت (ليندانى) نائمة،

استيقظَت لمّا تعثَّر (جيفمور) بجانب فراشها.

"أين ميلوزي؟"

"على الأرجح أنَّه وصل إلى بولوكوان الآن.. لا تقلقي.. أنتِ آمنة".

أخرج حزمة النُّقود من جيبه وألقاها في حجرِها.

"أستطيع أن أحبَّكِ أفضل منه بالمُناسبة".

ردَّت (ليندانى):

"أيُّها الأحمق!"

"عاهرة!"

كانت على وشك النُّهوض من الفراش إلَّا أنَّه أمسكَ بها وألصق رأسَها بالفراش، حاولَت التَّحرُّر من قبضتِه إلَّا أنَّه ضحكَ في وجهِها.

"سأتناول جسدَكِ حتَّى شروق الشَّمس".

"لو عِرف ميلوزي بما تفعل سوف.."

"من سيُصدِّق؟ أنتِ أم أنا؟"

كان قد تجرّد من ملابسه بالفعل، استطاعت الشُّعور بجسدِه الثَّائر في مُقابل جسدها وعينيه الدَّاميتَين بالرَّغبة؛ قرَّرت ألَّا تدعَه يظفرُ بها دون مُقاومة.. ركَلَته بين رجليه بكلِّ قوةٍ استجمعَتْها، صرخ مُتألمًا ككلبٍ جريح ثمَّ استعاد وضعيَّة الهُجوم. حاولت الفرار فوقعت على الأرض بجانب الفراش، حاولت تحريرَ نفسِها إلَّا أنَّه ألقى بجسدِهِ عليها.. عضَّ رقبتَها بقوَّة جعلَتْها تصرخُ متألِّمة.. كان عازمًا على أن يظفرَ بها.

18

كانت القُصور الضَّخمة التي يعيش فيها المُلوك والمَلكات ليسَت أكثر من محض خيالٍ بالنِّسبة لشيناي، خيالٌ نابع من القصص التي قرأتْها وهي طفلةٌ عن الجميلات النَّائمات في انتظار الأمير المُنقذ، إلَّا أنَّ هذه الصُّورة التَّخيُّليَّة أصبحَت حقيقيةً عندما وصلت إلى منزل عائلة (فان توندر) في (بريانستون).

وقفت (شيناي) في مدخل المنزل وعلى وجهِها نظرة انبهارٍ بحجمه الضَّخم، كان منزلًا مزدوج الطَّوابق وله حديقةٌ شاسعةٌ تُزيِّنها الأزهار المتنوِّعة، انبهرَت أيضًا لدى دخولها قاعةَ الاستقبال بالمنزل حيث الثُريا المُرصَّعة تتدلَّى من السَّقف والمرايا ذات الإطارات الذَّهبيَّة على الحوائط والدرابزين الذهبي لسلالم المنزل، على الحائط صورٌ كبيرة لأفراد العائلة؛ صورٌ لأشخاص سعداءَ مُبتسمِين.

تبدَّد انبهارها لمّا أدركت أنَّها ستكون المسؤولة عن تنظيف هذا المنزل الشَّاسع من أعلاه لأسفله، أخبرَتها والدتُها أنَّها ستحصل على مقابل ماديٍّ سخيٍّ كما أنَّها ستعيشُ في غرفتِها الخاص بحديقة المنزل. كانت الغرفة صغيرةً لكن مُلائمة، بها تلفازٌ صغيرٌ مُعلَّقٌ على الحائط، وحمَّام صغير وعدَّة طبخ؛ كانت أكبرَ قليلًا من الغُرفة التي يتشاركونَها في شقَّة والدتِها إلَّا أنَّها بالمُقارنة بمنزل (فان توندر) المُرفَّه كانَت لا شيء.

بحلول مُنتصَف اليوم تنهار (شيناي) من الإرهاق بعد تنظيف الطَّابق السُّفليِّ، فكَّرت كثيرًا كيف يُمكن لشخص الالتزام بهذا العمل لبقيَّة حياتِه؛ ربَّما يُصبح أسهل وأسهل بمرور الوقت.

مسحتِ الأتربة في غُرفة المعيشة وفكّرت في الفوضى التي على وشكِ أن تُقابلَها بالطّابق العُلويّ المُكوّن من خمسة غُرف ضخمة؛ لعائلة (فان توندر) ثلاثة أطفال فوضويّين تتراوحُ أعمارُهم بين الثّامنة والخامسة عشر.

ما زالت تفكّر في حجم الثّروة الهائلة التي تتمتّع بها عائلة (فان توندر)، دلفت إلى حجرة السّيّدة وكادت أن تتعثّر في كومة المَلابس المُلقاة على الأرض، لقد خرجَتِ السّيّدة في حفلٍ ساهرٍ ليلة أمس بعدما جرّبت عشرات الفساتين التي تحمل علامات تجاريّةٍ فارهةٍ مثل (دولشي وجابانا) و(جافين رجاح) و(ثولا سيندي) و(ديفيد تليل) و(ماريون وليندي).

أمسكت (شيناي) بفستانٍ أخضرَ حريريٍّ، كان ناعمًا للغاية؛ أحسَّت برغبةٍ في تجربتِهِ ولو لعدَّة دقائقَ تشعر فيها بأنَّها أميرة. خلعَت زيّها القُطنيَّ المَنقوش بالوُرود، ووقفَت أمامَ المرآة الطَّويلة وارتدَت الفستان الذي وافق حجمها وقوامها الممشوق؛ دارت بالفستان بخفَّة لتشعر للحظة بجمالها وأنوثتِها.

خلعت الفستان وجرَّبت واحدًا أصفرَ اللَّون وجونلة طويلة، أحسَّت أنَّ هذه الفساتين قد صُمِّمت من أجلها وقد وافقَت جسدَها بدقَّة شديدة وتماشَت ألوانُها مع بشرتها السَّمراء الدَّاكنة. قرَّرت أن تُجرِّب زوجًا من أحذية السَّيِّدة، وقفت أمام صفوف الأحذية المُتنوِّعة بألوانها التي تصنع قوس قزح أمام عينيها؛ حملت الأحذيةُ أسماءً يصعب على (شيناي) نطقها.. أسماء مثل (كريستيان لوبوتين) و(جيمي شو) و(مانولو بلاكينز) و(ميو ميو) و(ناين ويست) و(ستيف مادين).

شعرت (شيناي) بأنَّها طفلةٌ صغيرةٌ في متجرٍ للحلوى التي تلمع جميعُها أمام عينيها، ضحكت وقد تذكَّرت كيف ترتدي السَّيِّدة الأحذية ذات الكعب العالي حتَّى وهي بالمنزل؛ قرَّرت أن تقلِّد مِشيتَها وألقت بشعرها الإفريقيّ للخلف في الهواء كما تفعل سيِّدتُها. تفحَّصت نفسَها أمام المرآة الطَّويلة وابتسمَت، أدركَت في تلك اللَّحظة أنَّها جميلة بحق وهو شعور غاب عنها طويلًا أما الآن فهي أجمل فتاة في هذا العالم.

باغتها صوت تصفيق مفاجئ جعلها تشهق من الخوف لمّا أدركَت أنَّها ليسَت وحدَها بالغرفة.

"يا له من عرض أزياءٍ رائعٍ!"

كان صوت (داني) زوجُ السَّيِّدة، أُصيبت (شيناي) بالفزع وأرادت خلع الفستان على الفور.

"أنا آسفة للغاية.."

حاولَتِ الإمساكَ بالسَّحَّاب الخلفيّ للفستان.

"لا تقلقي.. لن أُخبرَ السَّيِّدة".

ردَّ عليها بنظرةٍ لعوب، كانت يداها ترتعش محاولةً الوُصول للسَّحَّاب.

"اهدئي.. دعِيني أُساعدكِ، ستُصبحينَ في ورطةٍ أكبرَ لو مزَّقتِ فُستانها".

وقف ثابتًا خلفَها ومدَّ يدَه الخشنة ليفتح لها السَّحَّاب بحركة واحدة، وصلت يدَه إلى مؤخِّرتها ليسحب الفستان من على جسدِها؛ بدَت اللَّحظة أبديَّة.

وقفت (شيناي) أمام المرآة عاريةً دون حمَّالة صدر، لم يسبق لها ارتداء واحدة، تفحصت ثدييها الصغيرين اللذين لم يكبر حجمُهمَا أبدًا إلا خلال حملها سابقًا.

أمسكَ (داني) صدرَها بيدِه، كان فارق اللَّون بين بشرتهما مُدهشًا؛ مال بجسدِه عليها فتذكَّرت والدها.

"أنتِ جميلة للغاية.. هل أخبركِ أحدٌ من قبلُ كم أنتِ جميلة؟"

تساقطت الدُّموع على وجنتَي (شيناي).

"أرجوكَ يا سيِّدي.. أرجوكَ!"

أحسَّت بذقنِه تخدشُ جانبَ رقبتِها.

"أعدُكِ ألَّا أُؤذيَكِ، سينتهي الأمر سريعًا".

"أرجوكَ يا سيِّدي.. لن أُكرِّر ذلكَ أبدًا".

شعرَتْ به وهو يفُكُّ بنطالَه بيده الأخرى.

"سأكون سريعًا، لن تعود السَّيِّدة قبل السَّاعة الثَّالثة.. لن يعرف أحد، ولن أخبرَها عن سرقتك لملابسها.."

"لم أكن أسرق.."

"ششششش.. من تعتقدين أنَّها ستُصدِّق؟"

سحب سروالَها التَّحتيَّ لأسفل، عرِفت (شيناي) المَصير الذي على وشكِ مواجهتِهِ؛ أغلقت عينَيها.. لم تعد الأميرةَ الجميلةَ بل الطِّفلةَ القذرةَ التي اعتادت أن تكون. لم تعد في القصر بل عادت إلى منزل والدها.. صرخت مُتألِّمة فنهرَها واضعًا يده على فمها:

"ششششش.."

عضت (شيناي) على لسانها وهي تبكي في ألم.. انتهى الأمر سريعًا، صفعها (داني) على مؤخرتها قائلًا:

"فتاة مُطيعة.. اذهبِي ونظِّفي نفسَكِ!"

جمعت (شيناي) ملابسَها وركضَت خارج الغُرفة دون النَّظر للخلف، غسلت يديها بالماء والصَّابون وهي غير مُصدِّقةٍ بعد لما حدث؛ هل كانَت تتخيَّل؟ لا يتناسب ذلك مع قدر الألم الذي تعاني منه؛ ألمٌ مُبرح اخترق أحشاءَها. كانت تعرف كيف ستجري الأمور منذ هذه اللَّحظة، سيعتقد (داني) أنَّه قادر على مضاجعتِها وقتما يشاء. كان بإمكانها تحمُّل مشقَّة العمل لكن مثل هذا الأمر لن تقدر عليه.. فكَّرت كم أنَّ الحياة غير عادلة! لماذا هي؟ لماذا تحدث لها مثلُ تلكَ الأشياء؟ كانت تعرف أنَّها لا تحدث لكلِّ النِّساء، تتذكَّر عندما أخبرت إحدى صديقاتها بالمدرسة أنَّها تعرَّضت للاغتصاب على يد والدها، وكيف نظرَت لها صديقتُها هذه كأنَّها منبوذةٌ.

تجمَّدت مكانَها أمام الحوض المُمتلئ عن آخره بالأطباق المُتَّسخة، حضر وجهُ أبيها أمامَها على صفحة الماء وعلى وجهه ابتسامةٌ قذرة، بدأ يضحك عليها بنظرتِه السَّاخرة. أمسكت (شيناي) بأحد الأطباق الخزفيَّة وحطَّمته في مُقابل الحوض.

"اللَّعنة!"

أطلقت الكلمة ثمَّ ضحكت بصوتٍ عالٍ، تابعت تحطيم الأطباق في وجه أبيها. ثار غضبُها ولم يهدأ إلا بعدما اختفى وجهُهُ من أمامها، نظرت حولها في رعب لتجد أن السَّيِّدة (فان توندر) قد حضرَت وفي يديها بعض الحقائب التي سقطت منها على

الأرض لمّا أدركت الحُطام الذي أحدثَتْهُ (شيناي).

"شيناي!"

"أنا آسفةٌ يا سيّدتي، لم أعرف ماذا حدث!"

"ماذا تعنينَ أيَّتها الغبيَّة!"

صفعتها السَّيِّدة على وجهِها بقوَّة وصرخَت:

"أنتِ مطرودة! لا يُمكنك حتَّى غسيل الأطباق.. اللَّعنة عليك! أنا لن أدفع لكِ قرشًا واحدًا، هل تسمعينَنِي؟"

أومأت (شيناي) في صمت.

"أحضري حقائبك وأُخرجي من منزلي قبل أن أتَّصل بالشُّرطة".

خفق قلب (شيناي) لدى سماعِها كلمة الشُّرطة، لقد جاءَت هنا هربًا من الشُّرطة.. جمعَت أغراضها وخرجت دون رجعة.

19

تقطع (بورشا) شارع (بريتشارد) كلَّ صباح في طريقها نحو المكتب الذي تعمل به والذي يقبع في التقاطع بين شارعي (ماركت) و(فون برانديس). على الرَّغم من قدمها المُتألِّمة داخل حذائها ذي الكعب العالي، إلَّا أنَّها كانت تتحمَّل الألم وتستكمل سيرَها. لقد تدرَّبت كثيرًا في شقَّتها على السَّير بالكعب العالي، سقطَت عدَّة مرَّات على وجهِها وسط ضحكات ابنِها الصَّغير؛ عقدت عزمَها على اعتياد السير بالكعب العالي مثل زميلاتِهَا في العمل.

تعمل (بورشا) في مكتب (هوليساني وهيرش وهلوماني وشركائهم) للمحاماة، يقع المكتب في الطابق السابع حيث مكاتب أُخرى للمُحاسبين والمُهندسين الاستشاريِّين. تجلس (بورشا) في الاستقبال لتُرحِّب بالضُّيوف بابتسامة مُشرقة وتردُّ على المُكالمات بكفاءَة تدرَّبت عليها. لم يقتصر عملُها على ذلك بل كانت مسؤولةً عن تنظيف الحمَّامات وإعداد الشاي وكنس الأرضيات، بالإضافة إلى إنجاز بعض المهام الخاصَّة بأصحاب العمل؛ يُحب السَّيِّد (هيرش) قهوتَه الكولومبية التي تشتريها له من مقهى مُحدَّد، أمَّا السَّيِّد (هوليساني) فيجعلُها تجلب ملابسه من المغسلة في شارع (إلوف). في وقت الغذاء تذهب لشراء الطَّعام للسَّيِّد (هلوماني) من شارع (كوميشنر)؛ كان يُحبُّ اللَّحم المُقدَّد وكيكة الذُّرة ولم يحِدْ أبدًا عن روتينِه اليومي.

أحيانًا كان يتوجَّب على (بورشا) قضاء بعض المهام العاجلة وإحضار الأغراض للمكتب، هكذا تعلَّمت أسماء الشَّوارع مثل

(كوتز) و(لافداي) و(كيرك) و(بلين)؛ كان لديها خريطة للحيِّ داخل رأسها كونها الطَّريقة الوحيدة التي تستطيع من خلالها التَّحرُّك داخل شوارع (جوهانسبرج) دون أن تفقدَ طريقها، وحتَّى لو حدث ذلك –وهو ما حدث بالفعل عدَّة مرَّات- كانت تبحث عن شارعٍ مألوف ومن ثمَّ تتبع طريقها إلى المكتب مرة أخرى.

بمرور الوقت أصبحت (جوهانسبرج) أقلَّ وطأةً بالنِّسبةِ لها وباتت شوارعُها أكثر ترحابًا. لم تكن تعرف أبدًا كيف جاء اسم (جوهانسبرج)، لقد سُمِّيَت هذه المدينة نسبةً لاثنين من الرجال الذين ساهموا في تخطيط المدينة لأول مرة وهما (جوهانس جوبيرت) و(جوهانس ريسيك)، وبالجمع بين اسميهِمَا (جوهانس) وإضافة كلمة (برج) والتي تعني (بلدة) بلغة الأفريكانس أصبحت هذه المدينة تحملُ اسم (جوهانسبرج). (جوهانسبرج) ولا شكَّ واحدةٌ من أقوى اقتصاديَّات إفريقيا، ممَّا جعلها جاذبةً للكثير من الأشخاص من القارة، جميعهم يبحثون عن الذَّهب والثَّروة أو كليهما.

عثرت (بورشا) على ما تبحث عنه في أعشاب حديقة (جوبيرت) الخضراء، لقد نامت هي و(نيكوسي) على المقاعد الفارغة في المحطة أمامها وذلك خلال الأسابيع الأولى من حياتهم هنا، نامَا إلى جوار غيرهم من الرُّكَّاب النَّائمين في انتظار قطاراتهم. كانا يستحمَّان كلَّ صباح في الحمَّامات العُموميَّة بالمحطَّة، بعدها تنطلق (بورشا) في رحلة البحث عن عمل والتي عادةً ما تنتهي بغلق الأبواب في وجهِها. لاحقًا يعودان للاستراحة في حديقة (جوبيرت) حيث كوّن (نيكوسي) صداقات مع الأطفال العائدين

من مدارسهم، لطالما راقبَتْه (بورشا) من على مقعد الحديقة وهي تحاول ألا تشعر بالأسفِ على نفسها مُحافظةً على تفاؤُلها قدر الإمكان على الرَّغم من أنَّ نقودَها قد اقتربَت على النَّفاذ. لقد أنفقَت النُّقود بحرص على مدار شهرين يناما فيها بالحديقة، يبدو أنَّ زوجها كان مُحقًّا عندما أخبرها أن (جوهانسبرج) ليسَت مُلائمة للنِّساء.

في إحدى المرات ركل (نيكوسي) كُرة يلعب بها لتستقرَّ أسفل المقعد الذي تجلس عليه (بورشا)، انحنت لتفحص أسفل المقعد فوجدت حقيبة يد مُلقاة؛ قادها الفضول لفتح الحقيبة وتفتيش مُحتوياتها، كان من الواضح أنَّ الحقيبة قد تعرَّضت للسَّرقة وتفريغ مُحتوياتها عدا بطاقة هوية خضراء؛ أخذتها وخبَّأتها على الفور داخل حمَّالة صدرها ثمَّ ألقت بالحقيبة أسفل المقعد.

في اليوم التالي قرَّرت (بورشا) أن تستخدم هويَّتها الجديدة، هي الآن (فاكاما هلوفي)؛ ذهبت إلى شارع (هاريسون) وحصلت على صورة شخصية لنفسها واستبدلت صورة (فاكاما) على البطاقة. بعدها أخذت (نيكوسي) إلى أحد دور الحضانة، دفعت رسوم الرعاية اليوميَّة وانطلقت في رحلة البحث عن عمل، وبنهاية الأسبوع استطاعت الحصول على عمل كعاملة نظافة في مكتب (هوليساني وهيرش وهلوماني وشركائهم) للمُحاماة.

استمرت (بورشا) وابنُها في النوم بالحديقة وتناول بقايا الطَّعام التي يتركها العاملون بمكتبها، كانت تصحب (نيكوسي) إلى الحضانة في الصباح ثمَّ تنطلقُ مُسرعة إلى عملها. كانت دائمًا أول

الواصلين ولم يحدث أبدًا أن تكون آخر الرَّاحلين من المكتب؛ هذا لأنَّ المُحامين دائمًا ما يبقون حتَّى ساعات مُتأخِّرة. أحيانًا كانت تصل في الصباح الباكر لتجد السَّيِّد (هوليساني) في مكتبه وهو في حالة من الإرهاق الشديد، إنَّه الأكثرُ صرامةً والأسرع غضبًا وكثيرًا ما يقذف الأوراق والمُذكرات القانونيَّة في وجه المُتدرِّبين والمُساعدين بالمكتب الذين يخرجون مُهرولين من مكتبه، بعدها ينضمُّ إليه السَّيِّد (هيرش) داخلَ مكتبِه في محاولة لتهدئتِهِ؛ كانت (بورشا) تهابه وتتحرَّك بحذر في وجودِه تجنُّبًا لنوبات غضبه.

بحلول نهاية الشَّهر كانت (بورشا) مُتحمِّسة لراتبها الأوَّل، في هذه اللَّيلة لم تتناول هي و(نيكوسي) بقايا الطعام بل ذهبا إلى أحد مطاعم الأكل السريـع، بعدها ناما على المقعد في الحديقة وقد طمأنَت ابنها أنَّها ستكون المرة الأخيرة.

في اليوم التالي ذهبا في رحلة البحث عن مسكن، استطاعا الحصول على شقَّة بغرفة واحدة في شارع (إيديث كافيل)، لم تحتوِ الشقَّة على أيّ أثاث لهذا كان الإيجار ألف راند وحسب. ناما على مرتبةٍ إسفنجيَّةٍ اشترَتها بورشا بستمئة راند، أخبرت (نيكوسي):

"في الشَّهر القادم سأشتري لكَ سريرًا".

احتضنَها (نيكوسي) قائلًا:

"أعرف ذلك يا ماما".

حلمَت (بورشا) بكل الأشياء التي تستطيع شراءَها براتبها الثَّاني؛ موقد جديد وأريكة وتلفاز صغير. حلمَت أنَّها تنامُ على السَّرير

الجديد.

في إحدى الأيام بالعمل وهي تغسل الأكواب بالمطبخ، سمعت السَّيِّد (هوليساني) يصرخ بشأن بعض الملفَّات الهامَّة التي تحتاج للكتابة، هرعت (بورشا) نحو.

"أين الجميع؟ أين المتدرِّبون؟"

"في المحكمة".

"وأين كابانو؟"

"لا زالت في وقت الغذاء".

ركل (هوليساني) أحد النَّباتات في الاستقبال وصرخ:

"أحتاج لكتابة هذا الملفّ على الفور".

"سأتَّصل بها على الفور".

هرعت نحو الهاتف واتَّصلت بكابانو أكثر من مرَّة دون ردٍّ.

"إنَّها لا تردُّ.. لكنَّني أستطيع الكتابة".

نظر لها مُتشكِّكًا:

"هل أنتِ مُتأكدة؟"

لقد تدربت (بورشا) على استخدام الآلة الكاتبة في المدرسة، كانت تكتب بمعدَّل ثمانين كلمة في الدقيقة، لذا عندما لامست أصابعها لوحة مفاتيح الكمبيوتر لم يكن الأمر غريبًا تمامًا عليها. بدأت الكتابة بينما يقطع السَّيِّد (هوليساني) الغرفة ذهابًا وإيابًا وأحيانًا ما يقفُ خلفَها ليتأكَّد من كونِها تكتب بالفعل. عندما وصلت (كابانو) كانت (بورشا) تراجع الملف بحثًا عن الأخطاء.

كان السَّيِّد (هوليساني) مُنبهرًا بها وسرعان ما أخبر السَّيِّدين (هيرش) و(هلوماني)، قررا أن (بورشا) لديها المهارات الكافية لترقيتها للعمل في الاستقبال. هناكَ انضمَّت إلى (كابانو) وتولّت معها مسؤولية إدارة المكتب، كما زاد راتبها مع حصولها على هذه التَّرقية.

في الشهر التالي انتقلت هي و(نيكوسي) إلى شقَّة جديدة في شارع (كيرك) بقلب (جوهانسبرج)، كانت شقَّة أكثر نظافةً وأمانًا ممَّا ساعدها على النوم في راحة. أصبح الآن بإمكانِها التَّسوُّق في المتاجر الكبيرة مثل (إدجارز) و(سبيتز)، واشترت أثاث الشقَّة من (رسلز وموركلز)، شعرت للمرَّة الأولى أنَّها تعيش الحياة التي تستحقها؛ حياة تنوي أن تعيشها جيدًا. كانت تُراقب زميلاتِها في العمل كي تتحدَّث مثلهن تمامًا، وبالتَّدريج بدأت شخصية (بورشا) القديمة تتلاشى لتحلَّ محلَّها (فاكاما).

استمتَعت (بورشا) بالتَّمشية الليلية في شوارع (جوهانسبرج)، أمَّا في أيَّام الآحاد اعتادت الذهاب إلى الكنيسة في شارع (ديلفيرز)، هناك كانت تجد عشرات الزيمبابويين اللَّاجئين الذين اتَّخذوا من الكنيسة ملجأً. أدركت أنَّ (فاكاما) لا مكان لها هنا، لم تعد تشعر بالولاء لروح أقرانها من (زيمبابوي). الآن أصبح لديها حياة جديدة.. بداية جديدة.

20

بحلول اليوم الثَّلاثين من كلّ شهر يتذكَّر (دوميساني) كم مرَّ من الوقت وكم تبقَّى له على تحقيق أحلامه، كان أفضلُ ما في الأمر هو الرَّاتب الذي يتحصَّل عليه؛ هذا الشَّهر حصل على علاوة إضافية مُجزيَةٍ وربَتَ رئيسه على كتفيه مُخبرًا إياه أنَّه أفضل نادلٍ عمِل معه. ابتسم (دوميساني) وفكّر أن رئيسه لا يعرف كيف تفوق أحلامه مُجرد العمل في مطعم لبقيَّة حياتِه، على كل حال واصل عملَه اليومي كالمُعتاد بل خاض مع السَّيِّد (كاوفمان) في جدالٍ طويل بخصوص أزمة الرَّهن العقاري التي تسبَّبت في انهيار البُنوك الأوروبية وقادت للأزمة الاقتصادية العالميَّة؛ لقد حرص (دوميساني) على قراءَة الصُّحُف من أوَّلِها لآخرِها ممَّا جعل السَّيِّد (كاوفمان) يتفاجأ بمعلوماتِه.

"أخبرني يا دومي.. هل درست الاقتصاد؟ يبدو أنَّك تعرف الكثير عن الموضوع".

"لا يا سيِّدي، لقد درست الهندسة المدنيَّة.. حضرت إلى هنا على أمل الحُصول على عملٍ مميَّز إلَّا أنَّ الأمور لم تسر كما خطَّطتُ لها".

"لا بد أنَّ هذا أمر صعب".

ردَّ السَّيِّد (كاوفمان) وقد بدى عليه التَّفكير العميقُ ثمَّ أكمل:

"أنا أمتلكُ شركةً لإدارة الاستثمار، ونحن نبحث هذه الأيام عن أشخاص للعمل معنا.. يهمُّ أن يكونوا ماهرين بالحسابات. أعرف أنَّه مجالٌ بعيد عنكَ، لكن ربَّما تودُّ الانضمام لنا".

أومأ (دوميساني) بحماس:

"بالطبع.. سأكون صادقًا معك لم أفكّر بالأمر من قبل، لكن أعتقد أنه جديرٌ بالتَّجربة".

"سوف نُرتب لك جميع الأوراق اللازمة كما ستحصل على تدريب لمدَّة ستَّة أشهرٍ ومن ثمَّ نعرف إن كان لكَ مُستقبلٌ في هذا المجال أم لا".

لم يُصدق (دوميساني) ما يسمعه، أراد أن يُعانق الرَّجل الأبيض العجوزَ أمامَه إلَّا أنَّه تمالكَ نفسَه. أخرج السَّيِّد (كاوفمان) بطاقته وأعطاها لدوميساني.

"تعال إلى المكتب صباحَ الإثنين وسنرى ما يُمكنُنا فعله".

"حسنًا.. سأكون هناك!"

دفع السَّيِّد (كاوفمان) حساب الكابوتشينو المُعتاد وترك لدوميساني بقشيشًا، لم يُصدِّق (دوميساني) حظَّه الجيِّد ولم يطق الانتظار حتَّى يُشارك زوجتَه الأخبارَ الجيِّدةَ؛ أصبحت فكرة الاجتماع بها ليسَت بالحلم البعيد فجأةً.

في المساء شارك الخبر مع (شامونوروا) وهم في طريق عودتِهما إلى (هيلبرو)، شاركَه (شامونوروا) خبر ترقيته أيضًا؛ أصبح يعمل في تقشير البطاطس بالمطعم بدلًا من تنظيفِ الأرضيَّات. ضحكا معًا على حالِهما الذي تطوَّر فجأة والخُطوات التي يقطعانها في حياتهما الجديدة.

"أحتاج للانتقال للعيش وحدي هذا الأُسبوع".

قاله (شامونوروا) ثمَّ أكمل:

"لقد وجدتُ غرفةً مُناسبةً في بلدة أليكساندرا، الإيجار مئة وخمسين راند فقط.. لم أعد احتملُ العيش مع أمي وأختي".

"أنا أشعر بما تشعر به، أنا أيضًا في حاجة للعيش بعيدًا عن مالومي وزوجتِه".

بينما يدخل شقَّة خاله هذا المساء كان (مالومي جاكسون) يتشاجر مع زوجته، فكَّر (دوميساني) في عدم الصعود لمَّا سمع أصواتِهم من الشَّارع، إلَّا أنَّهما قد يستمرَّان في الشِّجار طُوال الليل وهو يشعر بالإرهاق الشَّديد وفي حاجة للنَّوم وإراحة ظهره. كان على وشك وضع بعض النُّقود في الوسادة الإسفنجيَّة عندَما دخل عليه (مالومي جاكسون) في الشُّرفَة.

"يا مسيح.. النساء تتحدث نصف الوقت من مؤخراتها!"

لم يردَّ (دوميساني).

"أحتاج إلى الشُّرب.. تعال معي!"

"لكن مالومي أنا لا أشربُ الخمر".

"تعال إذًا وشاهدني وأنا أشرب.. يا مسيح! من أيّ كوكبٍ أتَيتَ؟"

صحب (مالومي جاكسون) إلى ملهى (زا بيز) اللَّيلي حيث رحّبت بهم رائحة البول والأرضيات القذرة. لم يحب (دوميساني) أبدًا الملاهي اللَّيلة، كان ينبذُ فكرة الفتيات اللَّاتي تتجوَّلن داخلَها نصف عاريات؛ شعر بأنَّه قد وصل إلى مدينة الخطيئة التي لطالما حكى عنها الأبُ في الكنيسة.

"إذًا أنتَ لا تشرب حفاظًا على صحَّتك؟ عليكَ العيش قليلًا!"

"سأعيش عندما تحضُر عائلتي إلى هنا!"

"عليكَ أن تتوقَّف عن العيش في الماضي.. انسَ زيمبابوي وما فيها، انظُر إلى النِّساء الجميلات هنا!"

أشار (مالومي جاكسون) لفتاتَين نحيفتَين ترتديانِ ملابس مُتشابهةٍ، كان من الواضح أنَّهما على سابق معرفةٍ به.

"هل ترغب في أيٍّ من فتياتيَّ؟"

"لا يا مالومي".

أثارت أجسادهن العارية حرارةً ما بجسد (دوميساني) إلَّا أنَّه تمالَك نفسه ولم يستسلِم للإغراء، عليه ألا يُدنِّس نفسَه وأن يتجنَّب خيانة (كريستين) الحبلى في شهورِها الأخيرة.

"إذا غيَّرت رأيكَ فستجدُهنَّ هنا".

مدَّ يده لجذب زجاجة جعَّة بينما ينظر بتعجُّب إلى زجاجة الفانتا أمام (دوميساني).

"إذًا أنت لا تشرب ولا تُضاجع الفتيات.. ماذا تفعلُ في حياتِكَ؟"

"أنا فقط مُخلصٌ لزوجتي يا مالومي!"

"أحمق! هل تعتقد أنَّ زوجتَكَ مُخلصةٌ لكَ؟ النِّساء كائناتٌ مُحتالة".

قرَّر (دوميساني) إنهاء مشروبه والعودة إلى المنزل، بدأ ينفرُ من سلوك (مالومي جاكسون) الذي يُصبح أكثر سُكرًا مع الوقت.

"سأضطر للذَّهاب يا مالومي.. أنا لدي عملٌ في الصَّباح الباكر".

"ستُرهق نفسَكَ بالعمل حتَّى الموت في هذه الوظيفة الغبيَّة..

من الأفضل لك أن تأتي وتعمل معي؟ أنت تعرف أنِّي أمتلكُ جزءًا كبيرًا من حيٍّ جارث بينما أنتَ تعمل في مطعم!"

أراد (دوميساني) إخبارَه بأنَّه حصل على عمل أفضل إلَّا أنَّه قرر ألا يفعل، أكمل (مالومي جاكسون):

"ستعمل معي في مُقابل عمولة، ستحصلُ على نسبة مُتَّفق عليها ممَّا نحصل عليه".

"مالومي.. ما هو عملُك تحديدًا؟"

خفض (مالومي جاكسون) صوتَه واقترب من (دوميساني):

"تعال للعمل معي وستعرف!"

"أعتقد أنَّه من الأفضل لي البقاء في مجال المطاعم.. عليّ العوة للمنزل الآن".

"أُترك مئة راند حسابًا للمشروبات.. لا تكن بخيلًا".

أخرج (دوميساني) النُّقود من جيبه وتعهَّد أن يغادر منزلَ (مالومي جاكسون) في عطلة نهاية الأسبوع؛ كان مُتأكدًا أن (شامونوروا) بإمكانه مساعدته في هذا الصَّدد. غادر وهو يفكِّر في تلك النُّقود التي خسرها وكان من المُمكن إرسالُها إلى عائلته، أطلق اللَّعنات وهو في طريقه.

عندما وصل إلى منزل (مالومي جاكسون) كانت زوجتُه جالسةً أمام التِّلفاز، حيَّاها بتردُّد قبل التَّوجُّه إلى الشُّرفة. بدأ خلعَ ملابسِه عندما فَتحَت عليه الباب:

"أين تركتَ هذا الوغد؟"

"لا زال في الملهى يشرب".

"أعتقد أن هذا يمنحُنا بعض الوقت".

اقتربت منه وبدأَت في لمسِه بإثارة.

"ماذا تفعلين!"

"لا تخَف!"

مدَّت يدها لفكِّ سحَّاب بنطاله، ثمَّ أقحمَت فمَها على وجهه كجروٍ مُتحمِّسٍ، أو في حالة حجمها الضَّخم كفيلٍ صغير يمدُّ خرطومه. انهارَ (دوميساني) بفعل وزنِها الزَّائد وهو يصرخُ:

"سيِّدتي.. أرجوكِ! توقَّفي!"

واصلت محاولة تقبيله غصبًا عنه بينما تُداعب جسده بيديها، واصل (دوميساني) صُراخَه:

"يا إلهي!"

أصبحت فوقه تمامًا بجسدها الثَّقيل، باغتَهم صوت (مالومي جاكسون):

"ماذا يحدثُ بحقِّ الجحيم!"

نهضت زوجة (مالومي) من على (دوميساني) وهرعَت من الشُّرفة إلى داخل الشقَّة. توقَّع (دوميساني) أن ينهالَ عليه (مالومي) باللَّكمات إلَّا أنَّه قد أمسكَ به، حملَه ثمَّ قذَف به من الشُّرفة صائحًا:

"ترغبُ في مضاجعة زوجتي إذًا!"

كانت هذه هي الكلمات التي لحقَت به في سقوطِه.

الجزء الثالث
(البحثُ عن الذَّهب)

«لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَالِ أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُورِ،
الَّذِي إِذِ ابْتَغَاهُ قَوْمٌ ضَلُّوا عَنِ الإِيمَانِ،
وَطَعَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَوْجَاعٍ كَثِيرَةٍ».
إصحاح تيموثاوس ٦: ١٠

21

حلَّ الظَّلام على بلدة (أليكساندرا) والمئات من أهلها في طريق عودتِهم للمنازل، الشَّوارع مُضاءة بالمصابيح المُغبرَّة التي يلعب الأطفال تحتَها. كانت بلدة (أليكس) كما يدعونها مُمتدَّة على ضفاف نهر (جوكسكي)[1]، كانت بمثابة الجارة الفقيرة للحيِّ الأكثر رفاهيةً المجاور لها وهو حيٌّ (ساندتون).

تبدو من على بُعد في حالةٍ من الفَوضى إلَّا أنَّ طُرقها ضمَّت حالة اقتصاديَّةً نابضةً في قلب البلدة؛ كونها تعمُر بالبيوت والمتاجر والحانات وصالونات الشَّعر ومراكز رعاية الأطفال، ومغاسل السَّيَّارات، جميعها تهدف لخدمة المُجتمع المحليِّ الذي يقطن البلدة. فهم (شامونوروا) طبيعة البلدة المُختلطة، لم يكن يسكن في منزلٍ بجدران وبوَّابة أو بيتٍ مُتعدِّد الطَّوابق، بل كان مَسكنُه كوخًا صغيرًا من الأسبستوس والخُردة.

في إحدى اللَّيالي وعلى بُعد عدَّة شوارعَ من منزله شاهد امرأةً شابَّةً تتعرَّض للضَّرب على يدِ رجلَين، راقب المشهد في رعبٍ وهما يركلانِها.

---

1 أحد أكبر الأنهار في جوهانسبرج.

«دعوها وشأنها».

صاح (شامونوروا) فأجابَه الرجل:

"لا تتدخَّل فيما لا يعنيكَ!"

شعر بشيء ما في قرارة نفسه يدفعُه للتَّدخُّل، فكَّر فيها باعتبارها أخته التي تعرَّضت للإساءة على يد والدِها وكيف لم يتمكَّن من التَّدخل، وقتها لم يكن سوى صبيٍّ صغيرٍ قليلِ الحيلة إلَّا أنَّه لم يعد كذلك الآن.

"قُلتُ لكَ دعوها وشأنَها!"

"اللَّعنة.. وأنا قُلتُ لكَ لا تتدخَّل!"

سقطت المرأة على الأرض وهي تنوح من الألم بينما يواصل الرجلان ركلها بأحذيتِهما الجلديَّة اللَّامعة. تحدَّاهما (شامونوروا) واقفًا في مواجهتِهِمَا:

"هيَّا اِضرباني!"

رفع يديه أمام وجه في استسلام، كان مُستعدًا لتلقِّي الضَّربات بدلًا عنها، نظر إليه الرَّجلان بريبةٍ وقرَّرا الانسحاب من الموقف وعادا من حيثُ أتَيا. ساعد (شامونوروا) المرأة على الوقوف، كان الدَّم ينسالُ من فمِها.

"هل أنتِ بخير؟"

أومأت:

"أعتقدُ أنَّني بخير".

لم تكن قادرةً على الوُقوف فاستندَت على كتف (شامونوروا).

"أين منزلُكِ؟ دعيني أصحبُكِ إلى هناكَ".

بكتِ المرأة:

"منزلي عندهم.. هذا رفيقي".

شعر (شامونوروا) بالغضب يتجمَّع في حلقِه.

"لم يعد لديَّ مكانٌ أذهبُ إليه".

"لا بأس.. يُمكنك البقاء في منزلي اللّيلة وغدًا نفكِّر في خطَّة مُناسبة".

لم تردَّ بل استسلمَت للدُّموع التي قاومتها بالكاد فانفجرَت باكية، تَردَّد (شامونوروا) قبل وضع ذراعه على كتفها لتهدئتِها ثمَّ انطلقا نحو منزله. رحَّب بها في كوخه ذي الغرفة الواحدة والذي يفخر بأنَّه اتَّخذه كأوَّل منزلٍ لنفسه. في الكوخ سرير مُقابلَ أحد الجدران اشتراه بسعرٍ مُخفَّض، يُوجد مقعدٌ بذراعين ونقشة مُزهرة باهتة استطاع شراءَهُ أيضًا من سوق الأغراضِ المُستعملةِ ومعه مِنضدةٌ صغيرةٌ يضع عليها الآن موقدًا بشُعلتَين وفرنًا صغيرًا. في الخارج يُوجد مرحاض صغيرٌ وكابينةُ استحمامٍ يتشاركهما مع جيرانه. كانت المالكة سيِّدة في الخمسينات من عمرها تعيشُ في بيتٍ من غرفتَين مع أطفالِها التِّسعة، ولم تزعجه أبدًا طالما دفع لها إيجار الكوخ في المَوعِد.

"يُمكنك مناداتي باسم شامو.. ما اسمكِ؟"

"ليراتو".

"استريحي على الفراش كأنَّكِ في بيتكِ".

تردَّدت قبل تمديد جسدها على الفراش وهي تتفحَّص المكان بنظرةٍ قلقة.

"سأبدأ إعداد الطعام الآن".

أوضح لها ما يوشك على فعله وهو يضع المقلاة داخل الفرن. لم تكن (ليراتو) كثيرةَ الحديث إلَّا أنَّها أجابَت على أسئلتِه باقتضابٍ، وقرابة انتهائِه من تحضير العشاء كان قد عرِف عنها أنَّها من (ماسيرو) إلَّا أنَّها عاشَت مع عمَّتها في (سويتو) وقد جاءَت إلى (جوهانسبرج) للدِّراسة لكنَّها تخلَّفت عن الجامعة عندما قابلَت (كيجوسي) رفيقَها، عاشا معًا في شقَّته قرب طريق (لندن)؛ كان يعمل في الإنشاءات ويقودُ سيَّارة (جولف) وتسير حياته على ما يُرام.

"هل ترغبينَ في العودة إليه؟"

هزّت (ليراتو) رأسها بالنَّفي وأجابت:

"لقد أردت هجره لمدة طويلة إلَّا أنَّ عمَّتي ترفضُ عيشي معها مُجدَّدًا.. لقد غادرتُ منزلَها وعلاقتُنا مضطربةٌ، أمَّا الآن فأنا حامل!"

بدأت في البكاء مُجددًا.

"يُمكنك البقاء هنا إن أردتِ.. ليس لديَّ الكثير".

بدى الاعتذار واضحًا على نبرته، كان يأمل لو كان لديه المزيد. بادر بتقديم العشاء وأثنَت هي على مهارتِه في الطَّهو.

"لقد نشأنا بدون أم، لذا لم يكن أمامي سوى تعلُّم الطَّهوِ بنفسي".

"آسفةٌ لسماع هذا.. أنا أيضًا نشأت بدون أم؛ لقد ماتت عندما كنتُ في الثَّالثة".

تطوَّعت (ليراتو) لغسيل الأطباق التي تناولوا فيها العشاء بينما جلس (شامونوروا) في المقعد حتَّى غفل ناعسًا، أيقظته (ليراتو) فيما بعد.

"انهَضْ لتنام على الفراش، سأنامُ أنا على الأرض".

اعترض (شامونوروا):

"لا.. يُمكنك النوم على الفراش وسأنامُ أنا في المَقعد"

"أرجوكَ لا تفعلْ.. هذا منزلُكَ".

"وأنتِ ضيفتي، لذا يجب عليكِ النوم على الفراش. أنا مُصرٌّ".

في اليوم التَّالي صحبها إلى شقَّة (كيجوسي) لإحضار متعلقاتها الشخصية، كان بإمكانه سماع أصوات شجارهم القادمة من الداخل. فتح (كيجوسي) الباب وألقى بملابس (ليراتو) خارج عتبَتِه، اِنحنت هي لجمع الملابس فركلها (كيجوسي).

صاحَ (شامونوروا):

"اتركها!"

"أنت مُجدَّدًا! مَن هذا الرَّجل؟ هل أنتَ أبيض؟ إنَّك تتحدَّث الإنجليزيَّة وحسب!"

"دعهُ وشأنَه".

نهرَته (ليراتو) إلَّا أنَّ (كيجوسي) جذبَها من ذراعها بقوَّةٍ.

"إنَّه ليس من هنا إذًا.. أيَّها الأجنبيُّ القذر!"

"إيَّاك وأن تناديني هكذا!"

انفعلَ (شامونوروا).

"تأتون لبلادنا وتحصلون على أعمالِنا، والآن ترغبون في نسائِنا أيضًا.. هذه ليسَت بلدُك أيُّها الأجنبيُّ القذر!"

جذبه (شامونوروا) من ملابسه ودفع به نحو الحائط.

"حاول لمسي إذًا ولنرى ماذا ستفعل بكَ الشُّرطة!"

أرخى (شامونوروا) قبضتَه وابتعدَ عن (كيجوسي) الذي بصق في وجهِهِ. أراد (شامو) أن يضربَه إلَّا أنَّه تمالَك نفسَه، لقد كان (كيجوسي) مُحقًّا؛ آخر ما يرغب به أن تأتي الشرطة.

أمسكَ بيد (ليراتو) وغادرا نحو الشَّارع بينما وقف (كيجوسي) في شرفة الشقَّة يراقبُهما مُبتعدَين.

22

استيقظت على فراشها الوثير المصنوع من القطن المَصري، لم تعد تستيقظ على أصواتِ شوارعِ (هيلبرو) الصَّاخبة بل باتَت تنامُ في أحضان حياة الضَّاحية الهادئة، جاء هذا التَّحول في مقابل ثمن كبير. كانت على وشك النُّهوض من الفراش إلَّا أنَّ (كايين) جذبها من ذراعها وضمَّها إلى جسده.

"نحن لم ننتهِ بعد!"

أرادت (ليندانى) البكاء، لقد مارسا الجنسَ طيلة اللَّيلة إلى أن أصبحت غير قادرة، لكنَّها أغلقَت عينيها وقبَّلت (كايين) كما لو أنَّ حياتَها تعتمد على ذلك، الحقيقة أنَّها اعتمدت على ذلك فعلًا.

بعدما اغتصبها (جيڤمور) هربت منه إلى (كايين)، كان الشَّخص الآخر الوحيد الذي تعرفه في (جوهانسبرج)، أخرجت بطاقته من حقيبتِها واتَّصلت به؛ جاءَت مُساعدتهُ سريعًا وسمح لها بالبقاء في إحدى الشُّقق التي يمتلكها، إلَّا أنَّ المُساعدة كانت خاضعة لشروط.

هي الآن تشاركه منزله الفخم المُطل على ميدان (ساندتون) لكنَّها لا تشعر بأيّ سعادة، كانت تشعر بأنَّها محاصرة في منزله المطلي باللَّون الأبيض ووسط الأرائك المخملية. يشربان في الكؤوس الكريستالية ويأكلان الطعام الذي يعده له طبَّاخه الخاص. تستطيعُ رؤية انعكاسِها في الثُريا الكريستالية المعلَّقة بالغرفة بينما يتحرَّك جسد (كايين) ثائرًا أعلى جسدها، تظاهرت بأنَّها وصلَت إلى النَّشوة لتشاركه اللَّحظة بينما ينهار إلى جوارها

وهو يُعبر عن مدى سعادته. كثيرًا ما كانت لا تفهم كلامَه غير الواضح وكانت تكتفي بالإيماء.

"سنذهب إلى لندن الأسبوعَ القادم".

نظرت له (ليندانى) متعجِّبة، أصبحت على علم بأنَّ النُّقود لا تُمثِّل مشكلة له.

"لندن؟!"

"نعم عزيزتي، سآخذك إلى قصر باكينجهام، وسنذهب إلى الاحتفال في لندن. ستحبِّين الأجواء هناك يا زهرتي الزيمبابوية، سأعلِّمك الكثير عن العالَم".

صفعَ مؤخِّرتَها وأكملَ:

"هيا اذهبي وسنخرج اللَّيلة لتناول العشاء معًا".

قفزت (ليندانى) من الفراش سريعًا قبل أن يُغير رأيه. كان (كايين) هو من عرَّفها على الحياة اللَّيلية الماجنة في (جوهانسبرج)، تلك الحياة النَّابضة التي لا تنام فيها المدينة أبدًا. صحبها لتناول الطعام والخمور في أفخم المطاعم بالمدينة، عرَّف لسانها على الطَّعام الصِّينيّ واليونانيّ والفرنسيّ والبرتغاليّ والهنديّ والمُتوسِّطيّ، أخذَها إلى حفلات الفنَّانين العالميِّين عند حضورهم إلى جنوب إفريقيا.

كان (كايين) مهووسًا بالمقامرة، لذا كانا دائمَي الذهاب إلى كازينوهات القمار، يرقصان حتَّى الساعات الأولى من الصباح في الملاهي الليلية في (روزبانك) و(ساندتون). كانت بمثابة قطعة الإكسسوار المثالية بالنسبةِ له، كما أنَّه أحضر لها الحُليَّ

والمُجهورات الفاخرة التي يحرص على أن تتماشى مع اختياراته من الملابس، وربطة العُنق الذَّهبيَّة التي يُحبُّ ارتداءَها.

كانت رحلتهما إلى (لندن) أوَّل رحلة لهما خارج البلاد، لقد سبق لهما السفر إلى (كيب تاون) إلَّا أنَّهما لم يسافرا خارج (جنوب إفريقيا). شعرت (ليندانى) بقليل من التَّوتر؛ لأنَّها لم تغادر القارَّة من قبل، ركبَا الطائرة في العاشرة مساءً ووصلَا إلى مطار (هيثرو) في (لندن) الصَّباح التَّالي، بدأتِ الشمس تسطع وهما يغادران الطَّائرة نحو المطار. وقفَا في انتظار الحقائب، أخبرها (كايين) أنه سيذهب إلى الحمام بينما يُمكنها هي التَّقدم في صفِّ الوُصول، التقطَ حقيبتَه وقبَّلها في عجالة ثمَّ انطلق نحو الحمَّام.

واصلت (ليندانى) التَّقدُّم في الصَّفّ الذي تحرَّك أسرع ممَّا توقَّعت، ولمّا حان دورُها سألَها المُوظَّف المسؤول عن جواز سفرها، أخرجت الجواز الجنوب إفريقي؛ لقد اشترى لها (كايين) الجنسية الجنوب إفريقية وها هي تدفعُ الثَّمن بمشاركتِه جسدَها.

"هل هذه رحلتُكِ الأولى للمملكةِ المُتَّحدة؟"

أومأت (ليندانى) بالإيجاب.

"ما غرض زيارتكِ؟"

"قضاء العطلة".

ردَّت (ليندانى) بينما يُقلِّب المُوظَّف صفحات جاوز السفر، تركها للحظة وذهب إلى مكتبٍ خلفي وعندما عاد طلب منها الوقوف جانبًا، سألَتْه بقلق:

"هل كلُّ شيءٍ على ما يُرام؟"

"مجرَّد فحصٍ روتينيٍّ يا سيِّدتي.. اتبعِيني".

دخلَت (ليندانِي) غرفة استجوابٍ طويلة وكان عليها التَّجرد عاريةً من ملابسها؛ كي تتمكَّن سيِّدتان من تفتيشها ذاتيًا، اتَّسعت عيناها من الرُّعب إلَّا أنَّها استجابت لأوامرهم؛ كان على السَّيِّدتين تفتيشها من رأسها إلى أخمص قدمها.

انتهت عمليَّة التَّفتيش دون أن تسفر عن نتيجة، غادرت المكتب وسط اعتذارات المُوظَّفين وضُبَّاط الأمن بعدما سمحوا لها بارتداء ملابسها وعبور بوَّابة الجوازات. كان (كايين) في انتظارها على الجانب الآخر.

"لماذا التَّأخير؟"

"لقد قرَّروا تفتيشي ذاتيًا.. أعتقد أنَّهم شكُّوا في حملي للمُخدِّرات".

اشتعل وجهُهُ غضبًا:

"ماذا؟ لا يمكنهم فعل ذلك.. إنَّه انتهاكٌ للخصوصيَّة وحقوقِ الإنسان".

"كايين.. دعكَ منهم.. لقد انتهى الأمر".

لم ترغب في مواجهةٍ أخرى مع هؤلاء الأشخاص إلَّا أنَّه أصرَّ.

"هذا غير مقبول.. لمجرَّد أنَّكِ سوداءُ البشرة! هل ترينهم يفعلون ذلك مع أيِّ شخصٍ آخر؟"

جذبته (ليندانِي) من كوعه وحاولت تهدئَتَه، لقد تأثَّرت بتعاطُفِه واهتمامِه المُفاجئَين. خرجا من المطار وأوقفا سيَّارة أجرة

أخذَتهم إلى فندق (والدروف هيلتون) الواقع في وسط (لندن) حيث يُمكنكَ الوُصول بسهولة إلى المسارح وحديقة (كوفينت) وكلّ الأماكن المثيرة؛ أشار (كايين) لبعض هذه المناطق واعدًا باصطحابها لزيارتهم بعد انتهائه من اجتماعات العمل خاصته. وقفت (ليندانى) على الرَّصيف، تفحَّصت المُحيط المُنمَّق من حولها؛ كلُّ شيءٍ كان في محلّه.. الأغصان المُقلَّمة والسَّيَّارات الواقفة بنظام والحافلات الحمراء ذات الطابق العلويّ التي لا يخرج عنها عادم.

دلفا إلى الفُندق السَّاحر ورحَّب بهما مُوظَّف الاستقبال، صعدا إلى الجناح الخاص بهما في الطابق الرَّابع؛ جالت عينا (ليندانى) بالغرفة كي تضمن أنَّها ستتذكَّر كلَّ تفاصيلها. جلس (كايين) على الأريكة وأمسك بجهاز التَّحكم عن بُعد الخاصّ بالتِّلفاز وأخذ يُقلِّب القنوات، ألقت (ليندانى) نفسها على الفراش الناعم وهي تقول:

"يا له من فُندِق جميل!"

ردَّ (كايين):

"لا بأس به، لقد ذهبت إلى أماكنَ أفضل".

اقترح عليها (كايين) أن تستحمَّ، دخلت إلى الحمَّام لكنَّها نسَت حقيبة مُستلزماتِها بالغرفة، عادت لإحضارها لتجد (كايين) يتحدث عبر الهاتف هامسًا، قطع جملته عندما رآها ثمَّ غطَّى السَّمَّاعة بيده وسأل:

"هل كلُّ شيء على ما يُرام؟"

"نعم، لا تقلقْ!"

لوّحت أمامه بحقيبتها الصغيرة ثمَّ عادَت إلى الحمَّام، لم يُكمل (كايين) مكالمته إلا عندما سمعها تُغلِق باب الحمَّام ممَّا أثار شكوكَها؛ كان (كايين) شخصًا يتحلَّى بالخصوصيَّة والسِّرِّية؛ لذا ظنَّت أنَّه قد يكون على علاقة بنساءٍ أُخريات وهو الأمر الذي لم يزعجها على الإطلاق. فتح عليها باب الحمام، اعتقدَت أنَّه سينضمُّ لها لكنَّه أخبرَها أنَّ عليه الذهاب لاجتماعٍ عاجل.

"لست مُتأكدًا إلى متى سأغيب، يُمكنك طلب الطعام بالغرفة.. أي شيءٍ ترغبينَ به.. سأراكِ لاحقًا".

أرسل لها قُبلةً في الهواء ثمَّ غادر، قرَّرت (ليندا‌ني) أن تأخذ غفوة قصيرة إلَّا أنَّها استيقظت بعدما حلَّ الظَّلام بالخارج. تفحَّصت ساعتها التي وضعتها جانب الفراش لتجدَ أنَّها نامت تسع ساعات، طلبت الطَّعام إلى غرفتها ثمَّ شاهدت التلفاز، نامَت مرة أخرى حتَّى منتصف الليل.. لم يَعُد (كايين) بَعد.

استيقظت (ليندا‌ني) في الصَّباح التَّالي وقد راودها إحساسٌ غريبٌ داخلَها، مرَّت أربعة أيام ولم يعد (كايين) ولم يتَّصل للاطمئنان عليها. بدأ الفزع يتسلَّل داخلَها، استحضرَت صورة (كايين) وهو جثَّة هامدة في مشرحةٍ ما في انتظار من يتعرَّف عليه أو في فراش إحدى المستشفيات وقد تعلَّق بين الحياة والموت.

لم تجد داخلها طاقة للنزول وتناول الإفطار في مطعم الفندق، سيطر الفزع والقلق على جسدها. جلست بجوار النَّافذة تتفحَّص المارَّة في الشَّارع على أمل أن يظهرَ وسطَهم، ما زاد إزعاجَها أنَّها لم تمتلك أيّ نقود كما أن (كايين) يحمل معه تذاكر السَّفر، هي أيضًا لا تعرف أحدًا في (لندن).. كانت هنا وحيدة.

رنّ جرس الغرفة، قفزت سريعًا لفتح الباب وهي تفكّر في عودة (كايين) أخيرًا. فتحت الباب لتجد أمامها رجلَين ضخمَين، ظهر الإحباط على وجهها، لم ينتظرا أن تتحدّث بل دخلا الغرفة دافعِين إيَّاها جانبًا. كان أحدهما قوقازيًا بشعرٍ أشقر مربوط في صورة ذيل حصان، أما الثَّاني فكان إفريقيًّا برأس أصلعَ لامعٍ. بدأ القوقازي التَّحدُّث:

"لقد أرسلنا كايين.. اسمي جيمس وهذا مستر تي".

ضحكا الاثنان بينما حدَّقت (ليندانى) فيهما بنظرة خاوية، أوضح (مستر تي):

"إن كايين صاحبُكِ مدينٌ لنا بخدمة".

"لكنَّه ليس هنا.."

"نحن لا نريده هو، فقط نرغب بنقودِنا".

شعرت (ليندانى) بالحيرة؛ لماذا يحتاجون نقودًا؟ ماذا فعل (كايين) يا تُرى؟ ربَّما هناكَ خطأ ما وقد جاءوا إلى الغُرفة الخاطئة.

"أعتقدُ أنَّ هناك خطأً ما.."

"لا خطأ"..

ردَّ (مستر تي) وهو يُلقي بجواز سفرها على الفراش، أدركت (ليندانى) أنَّهما تواصلَا معه بالفعل.

"سنُسهل عليكِ الأمر.. كل ما عليكِ هو حمل طردٍ بسيطٍ معكِ إلى جوهانسبرج".

نظرت نحو (جيمس) الذي مدَّ لها بطوق النَّجاة هذا، بدتِ

المهمَّة بسيطةً وسهلةَ التّنفيذ.

"أي طرد؟"

أخرج (جيمس) كيسًا من الكوكايين من جيب سترتِه وألقى به على الفراش؛ أوضح (مستر تي) بلامبالاة:

"فقط مئة جرام من الكوكايين".

شهقَت (ليندايي):

"كوكايين!"

"ستأخذين الكوكايين معكِ وسندفعُ نحن فاتورة الفُندق، وسينتهي الأمر بكلّ بساطة".

هزّت (ليندايي) رأسَها بالرَّفض ثمَّ رفعت يدها وبدأَت في الصُّراخ:

"أين كايين؟ ماذا فعلتُما به؟"

ضحك (مستر تي) على سلوكِها الهيستيري بينما أخرج (جميس) مسدَّسًا من سترتِه ووجَّهه نحوها؛ أحسّت (ليندايي) أنَّها بلَّلت نفسَها.

"ستبتلعين هذه الأقراص.. لا تجعلي الأمر صعبًا على نفسكِ!"

"أبتلع! ألم تقلْ أحملُها معي.."

"تحملينها في معدتك؛ كيف تظنّين أنَّكِ ستُسافرين بالكوكايين!"

جذبها (مستر تي) من شعرها نحو قدميه وهي تصرخ من الألم، ثمَّ حشر قُرصًا داخل فمها وهو يصيح:

"إيَّاكِ والتَّخلص من قرص واحد.. هل تسمعين أيَّتها العاهرة؟"

انزلقَ القرص داخل جوفها بصعوبة، تساقطَت دموعُها وهي تفكّر كيف أنَّها تواجه صعوبةً دائمة في ابتلاعِ الأقراص.

23

استيقظت (شيناي) على صوت والدتها وهي تسحب الملاءَة أسفلَ منها، كانت على وشك السقوط من على الفراش و(سيبونجيل) تُغمغِم:

"كُل ما تفعلينه هو النَّوم!"

نهضت (شيناي) وحدَّقت في والدتها، حاولت جاهدةً مُقاومة موجة الضِّيق التي أصابتها فجأة لكن (سيبونجيل) واصلَت الحديث:

"بعضُنا يحتاج إلى العمل".

"تعرفينَ أنَّني أبحثُ عن عمل".

"أتمنَّى أن تجدي واحدًا في القريب العاجل طالما تظنِّين أنَّكِ أفضل في تنظيف المنازل".

لم تُخبر (شيناي) والدتَها بحقيقة ما حدث لها في منزل عائلة (فان توندر)، لم تجد الكلمات التي تساعدها على الشَّرح، في المُقابل جعلَتها تُصدِّق أنَّ الأسباب هي عدم مهارة (شيناي) في التَّنظيف.

خرجت (شيناي) كل يوم في رحلة البحث عن عمل، وبعودتها إلى المنزل خالية الوُفاض تجد (سيبونجيل) التي تخبرُها:

"ألم أقل لكِ!"

كانت شبه مُستمتعةٍ بفشل ابنتِها.

في هذا الصَّباح قرَّرت (شيناي) التَّمشية في شوارع (ساندتون)

عندما قابلَتها السَّيِّدة (هيرش) التي تعمل والدتُها بمنزلها، توقَّفت السَّيِّدة بسيارتها وعرضَت على (شيناي) توصيلَها؛ أرادَت (شيناي) الرَّفض لكن سرعان ما ركبت السَّيَّارة المرسيدس.

"أنا في طريقي لجلسة المانيكير والباديكير.. أتمنَّى ألَّا يكون الطَّريق مُزدحمًا".

ابتسمت (شيناي) بتوتُّر، لم تكن تعلم ماهية المانيكير والباديكير إلَّا أنَّها لم ترغب في كشف جهلِها بالأمر.

"كيف يجري بحثُك عن عمل؟"

لم تنتظر أن تجيب عليها (شيناي) وتابعَت كلامَها:

"إذا سمعت عن وظيفة متاحة سأخبرُكِ بالطبع.. أصبح الأمر صعبًا هذه الأيام مع كثرة الزيمبابويين؛ إنَّهم يأتون بالآلاف إلى بلادنا.. لا أعرف كيف يُفترض لنا التَّأقلم مع وجودهم".

توقَّفت السَّيَّارة في الزُّحام واقتربت امرأة كفيفةٌ مع طفلها من شباك السَّيَّارة وهي مُمسكة بطبقٍ فارغ استجداءً للمال.

"أرأيتِ؟ هذا ما أقصده.. في كل شارع.. إذا لم يحاولوا الحصول على عمل في التَّنظيف، فستجدينَهم يبيعون لكِ شيئًا ما".

ارتعشت (شيناي) من الحرج، أرادت أن تخبر السَّيِّدة أن هؤلاء الزيمبابويين قادمون من مكانٍ بائس.

"حتَّى أهل بلدنا لا يستطيعون الحصول على عمل.. إن مُستقبل هذه البلد محتومٌ.. نحن نفكر في الهجرة من أجل مُستقبلٍ أفضل للأطفال.."

اكتفَت (شيناي) بالصَّمت خاصةً أنَّها لا تحمل ردًا مناسبًا للسَّيِّدة (هيرش) التي أمرت بإيقاف السَّيَّارة في شارع (موود) كي تغادر (شيناي).

"توخَّي حذرَك.. إنَّهم يغتصبون النِّساء في هذه المنطقة".

لفَّت (شيناي) على متجر في المنطقة في رحلتها للبحث عن عمل، وعلى الرَّغم من أنَّ والدتَها قد ساعدَتها هي و(شامو) في الحصول على أوراقٍ قانونيَّةٍ إلَّا أنَّ الأمر لم يكن سهلًا؛ كانت تصادفُها نفس الإجابات دائمًا.. نحن لا نُوظِّف.. لقد وظَّفنا شخصًا بالفعل.. جنوب إفريقيُّون فقط.. أضِف إلى ذلك المُضايقات التي كانت تتعرَّض لها والنَّظرات المُتفحِّصة من مالِكات الصَّالونات ومتاجر المَلابس، جرَّبت أيضًا حظَّها مع الفنادق إلَّا أنَّ رجال الأمن عند البوَّابات عادةً ما أجبرُوها على الرَّحيل.

بدأت (شيناي) تتعرق، أدركَت أنَّها لم تعد بنفس الانتعاش الذي خرجت به من المنزل بعدما استحمَّت في الصباح، كادت أن تتجاوز مُلصقًا مُعلقًا بجادة (جوين).. مطلوب للعمل: نادلة في حانةٍ وملهى ليلي.. قرَّرت (شيناي) تجربة حظِّها إلَّا أنَّ ثقتَها انهارَت تدريجيًّا وهي تدلف إلى المكان المُحدَّد، وصلت أخيرًا إلى الصَّالة الرَّئيسية لحانة تُدعى (سباركلز) ثمَّ قدَّمت نفسَها؛ كانت المُقابلة في منتهى البساطة إذ تفحَّصها المُدير الأبيض المسؤول وأخبرها أنَّها مُناسبةٌ للعمل. أعطاها مريلة ووجَّهَها نحو المطبخ لبدء العمل، كانت مسؤولةً عن غسلِ الصُّحون المُتَّسخة والتي حرصت على تنظيفها بدقَّة وحذرٍ تجنُّبًا لكسر أيٍّ منها.

عملت (شيناي) جاهدة دون راحة، أحيانًا ما كانت تعمل

نوبتَين مُتتاليتَين كما أنَّها لم تحصل على أيّ إجازات. انبهرَ مديرُها باجتهادِها؛ لذا قرَّر ترقيتَها من مُجرَّد عاملة مؤقَّتة إلى مُوظَّفة أساسيَّة، ولاحقًا أصبحَت نادلةً تحتَ التَّدريب. ارتدَت الجيبة السَّوداء القصيرةَ والقميصَ الأبيضَ وبدأَتْ في تقديم الطَّعام بالصَّالة، كانت تحصل على راتبٍ زهيدٍ إلَّا أنَّ البقشيش مثّل الجزء الأساسي من النُّقود، لطالما كان البقشيش سخيًا في حالة الرِّجال أمَّا عندما يأتون بصحبة زوجاتهنَّ يكون البقشيش أقلَّ من المُعتاد. كثيرًا ما يتعدَّى بعض الرجال حدودَهم مع النَّادلات وفي أكثر من مناسبة تعرَّضت (شيناي) للَّمس؛ أخبرتها (تريفينا):

"تعاملي مع الأمر باحترافية".

كانت (تريفينا) نادلة ولطالما شجَّعت الرِّجال على لمسِها بمغازلتِهم من أجل البقشيش، إلَّا أنَّ (شيناي) كانت تخشى الرِّجال خاصةً في تلك المرَّة التي أصرَّ أحدُهم على الحُصول على رقمِها؛ كان يُدعى (أنطونيو) وله شعرٌ أسودُ طويلٌ جعلَه أشبَه بالمسيح في الصُّور القديمة.. فكَّرت (شيناي) لماذا لم يكن المسيحُ أسودًا؟ رُبَّما لهذا لا تُجاب صلواتهم أو ربَّما، لأنَّه لا يفهم لغتَهم وكفاحاتِهم، كانَت ترى أنّ البيض أكثر حظوةً فهم يملكون المال ويعيشون في البيوت الواسعة ولا يشعرون أبدًا بالجوع.

"أريدك أن تحضري إلى الأستوديو الخاص بي؛ لألتقطَ صورَك لإحدى المجلات.."

وضّح (أنطونيو) غايتَه إلَّا أنَّ ما سمعَته (شيناي) أنَّه يرغبُ في أن تحضرَ إلى الأستوديو كي يغتصبَها.

"لا!"

أجابته (شيناي).

"هذا عملي.. أعتقد أنكِ مُناسبة كعارِضة".

"أنا نادلة ولست عارضة".

كان (أنطونيو) مثابرًا يحضر يوميًا إلى الحانة ويترك البقشيش السَّخيَّ لشيناي إلَّا أنَّها لم تتأثَّر، في نهاية المطاف كان عليه الاستعانة بزميلتها (تريفينا) لتُقنع (شيناي) أنَّه مُصوِّرٌ مُحترِف بل أحضر معه نماذجًا من أعماله ليعرضها عليهما. نجحت (تريفينا) في إقناع (شيناي) أخيرًا عندما قالَت لَها:

"سأحضرُ معكِ في يوم إجازتِك، ما رأيُك بهذا؟"

"حسنًا.. سأوافق!"

ذهبت هي و(تريفينا) إلى منطقة (روزبانك) بعدما استقلَّا سيَّارة أجرة من (ساندتون) إلى (إيلوفو) ثمَّ سيارة أخرى إلى (روزبانك)؛ كانت ممتنَّة لوجود (تريفينا) بصحبتها خاصةً أنَّها لم تألَف بعد طُرق المدينة. وصلا إلى ستوديو (أنطونيو) وقادتهُما امرأة طويلةٌ عبرَ المَكاتب المُزيَّنة بصور العَارضات ومُلصقات الحملات الدِّعائيَّة لعلامات تجاريَّةٍ شهيرةٍ مثل (مرسيدس) و(هيلتون) وغيرِها. كانَت غرفة الاستقبال مُكتظَّة بالفتيات الأنيقات اللاتي يحملْنَ صورَهُنَّ من أعمالٍ وجلساتِ تصويرٍ سابقةٍ، كُلُّهنّ جميلاتٌ ومهتمَّاتٌ بمظهرِهنَّ وكأنَّهُنَّ دُمًى لعرض الملابس.

حضر (أنطونيو) ورحَّب بهما وشكرَهما على الحضور ثمَّ طلب من مساعدته أن تصحب (شيناي) إلى غرفة المكياج؛ تبعتها (تريفينا) وهي تُخبر المُساعدة أنَّها مُديرة أعمالِها.

بدأت مسؤولة المكياج في تجهيز (شيناي) وهي تُخبرُها كم تراها جميلة الملامح، استطاعَت تحويلَ (شيناي) من مُجرَّد فتاةٍ عاديَّةٍ إلى أيقونة جمال. كانت كثيرة الكلام وتسأل (شيناي) باستمرارٍ عن حياتِها بينما ترنُّ الأساور التي ترتديها حولَ مِعصمِها وهي تحرِّك يدَيها بسرعة. تفحَّصت (شيناي) وجهَهَا في المرآة:

"يا إلهي.. هل هذه أنا فعلًا؟!"

"أنا غير مُصدِّقة.."

انضمَّت (تريفينا) إلى دهشتها. قابلها (أنطونيو) بعد ساعة وهو يعتذر لهما عن التَّأخير، سألَها:

"إذًا لم يسبق لكِ العمل كعارضة من قبل؟"

تفحَّصها مُجدَّدًا ثمَّ أكمل:

"لديكِ هذه النَّظرة البريئة التي نبحث عنها، أحد العملاء يُطلق عطرًا جديدًا ونرغب في عمل حملة دعائيَّةٍ مناسبة.. سيكون علينا أولًا التقاط بعض الصُّور التَّجريبيَّة لكِ وعرضها عليه بالطبع".

شعرت (شيناي) بالحماس والقلق في نفس الوقت، تمنَّت لو تكون مناسبة بالفعل.. سألَت نفسَها ما الصُّعوبة في النظر إلى الكاميرا والابتسام! بعد قليلٍ اكتشفت أنَّ الأمر مُرهقٌ للغاية ففي خلال ساعتَين فقط بدَّلت ملابسها عشر مرات، لكنَّها لم تُظهر تعبَها بل حافظَت على ابتسامتها في كُلِّ مرَّة وكأنَّ حياتها متوقِّفة على ما تفعلُه الآن. شعرَت بأنَّها جميلةٌ وسعيدةٌ في كُلِّ لحظةٍ ومضَ فيها فلاش الكاميرا أمام عينَيها البُنِّيَّتين الواسعتَين.

بعدَما انتهَوا من التَّصوير أعطاها (أنطونيو) ثلاثمئة راند

لاستقلال سيَّارة أجرة خاصَّة، اقتسمَت (شيناي) المبلغ مع (تريفينا) وقرَّرا أن يتجوَّلا قليلًا في المركز التِّجاريِّ القريب من الأستوديو إلَّا أنَّ أسعارَ الفساتين والملابس جعلت قلب (شيناي) يسقطُ أرضًا.

"إذا حصلتِ على عقد التَّصوير هذا فستتمكَّنين من شراء هذه الملابس".

قالتها (تريفينا) وهي مُمسكةٌ بأحد الفساتين الشِّيفون.

"تعتقدين أنَّني سأنجح؟ هناك الكثير من الفتيات الجميلات!"

وكزَتْها (تريفينا) في ضلوعها:

"أنا لا أفهمك في بعض الأحيان.. أنتِ لديكِ كل المقومات لكنكِ لا ترينَها أمامك! ستحصلين على هذا العَقد، أنا مُتأكِّدة".

عانقَتها ثمَّ أكملَت:

"مُتشوِّقةٌ لرؤيتكِ في المجلَّات!"

بعدما انتهيا من التَّسوق استقلَّا سيَّارة أجرة وهما يُفكِّران في الأشياء التي سيستطيعون شراءَها إذا ما أصبحوا أثرياء، ألقَت (شيناي) نظرةً على اللَّوحات الإعلانيَّة العملاقة التي تحمل صورًا لنساء جميلات؛ فكَّرت هل من المُمكن أن تجدَ صورتَها على إحداها يومًا ما؟ هل باتَت تفكِّر في المُستحيل؟

24

الأخبار السَّعيدة هي أنَّ ابنةَ (دوميساني) قد حضرَت إلى هذا العالَم، أمَّا هو فلازَم فراشه في مشفى (جون جرين) الذي أصبح منزله للشهرين الماضيين. حلّ الكريسماس وغادر دون أيّ أجواء احتفاليَّةٍ، وبدأ العامُ الجديد دون أن تتغيَّر ظروفه؛ شعر بأنَّه حبيسُ عام ٢٠٠٧.

إن السُّقوط من شرفة الطَّابق الرَّابع قد آل به إلى كسورٍ في عظام الذِّراعين والفخذَين، أصبحت جميع أطرافه في لفائفِ الجبسِ الأبيضِ، وباتَت حركتُه محدودةً للغاية؛ لم يعُدْ أمامَه سوى التَّحديق في الجُدران واستنشاق رائحة مُعقِّم الأرضيات النَّفاذة التي تخترقُ هواءَ المشفى.

لقد شكَّت المُمرِّضات أنَّه حاول الانتحار؛ نظرًا لأنَّه لم يتمكَّن من شرح ما حدث وأدَّى به للسُّقوط من الشُرفة، لم يرغب في توجيه أصابع الاتِّهام إلى (مالومي جاكسون) على الرَّغم من كراهيَّته الشَّديدة له ولزوجتِه. لم يتردَّد (مالومي) في الاتِّصال بوالدة (دوميساني) وإخبارها بأنَّ ابنَها قد حاول إغواء زوجتِه، اتَّصلت والدة (دوميساني) بالمشفى والقلق واضح على صوتِها.

"يا ولدي الحبيب، ليسَت هذه تربيتُكَ!"

"ما أخبرَكِ به يا أمي ليس حقيقيًا!"

"أنا لا أعرف ماذا أخبر والدَكَ ناهيك عمّا أُخبر به زوجتَكَ، لقد ارتفع ضغطها للغاية عندما علمت أنَّك في المشفى".

"لا تُخبريها بأيّ تفاصيل يا ماما".

احتفظت أمه بالسّرّ لنفسِها وأخبرصضش ت العائلة وزوجة (دوميساني) أن الشُرفة كانت متهالكة وسقطت به؛ بكَت (كريستين) بحرقة فكلٌّ ما كانت تريدُه أن تكون معه الآن إلّا أنَّها كانَت قعيدةَ الفراش بأمر الطَّبيب استعدادًا لولادتها.

"أنا أفضل كثيرًا الآن".

أخبرها (دوميساني) عبر الهاتف وهو يسمع صوت الرّضيعة في الخلفيّة، لقد ولدت (كريستين) في مشفى (إمبيلو).

"صدِّقيني أنا أفضل بكثير.. أتحسّن يومًا بعد يوم، كان من المُفترض أن أكون معكِ ومع الأطفال".

ردَّت (كريستين):

"أعرفُ.. لكن ما باليد حيلة!"

شعر بنبرَتِها الجافَّة فسألها:

"هل كلٌّ شيء على ما يُرام يا كريستين؟"

"لا شيء على ما يُرام.. أنا مضطرَّة للذهاب، عليّ إعداد العشاء من أجل سيفو".

"أحبُّكِ يا كريستين".

لم تُبادله إعلان الحبِّ بل أنهت المُكالمة؛ لطالما أبهجته محادثتُهُما أمّا الآن فهي تتركُ داخله فجوةً لا يحتملُها. كان لأوَّل مرة طيلة زواجِهِما يشعر أنَّهما مُتباعدان بالفعل، تمنَّى لو أنَّه لم يُغادر (بولاوايو) فربَّما وجد عملًا مناسبًا هناك حتَّى ولو لم يكن مجزيًا، على الأقل سيكون إلى جانب أسرته؛ ما الجدوى من

استلقائه هنا بالمشفى في بلدٍ غريب؟ فكّر في احتماليَّة العودة إلى أرض الوطن وإخبار الجميع بأنَّه قد فشل في رحلته بمدينة الذَّهب؛ أحسَّ بالإهانة.. كانت هذه الأفكار المُتكالبة برأسه والتي تُوقظُهُ من نومه كلَّ صباح.

كان (دوميساني) أغلب الوقت تحت تأثير مُسكِّنات الألم التي أحبَّها إلى حدٍ ما، يقضي معظم وقته نائمًا وفي يقظته يشعر بالذَّنب. عندما استيقظ بعد بضع ساعات وجد (شامونوروا) بجانب فراشه، أسعده وجوده للغاية فقد كان هو الوحيد الذي يزوره باستمرار منذ دخوله المشفى.

"كيف حالكَ اليوم؟"

"مثل كل يوم، مثلما شعرتُ بالأمس وقبل الأمس".

"كنت أتحدَّث مع المُمرِّضة كارابو وأخبرَتنِي أن رجلَكَ تتعافى جيدًا".

ابتسَم (دوميساني) بوهن:

"تُعاملني المُمرِّضات بلطف.. هذا جيِّدٌ وإلا كنت قد قتلتُ نفسي".

"لا تقل مثل هذه الأشياء.. أنتَ لديكَ الكثيرُ لتعيشَ من أجلِهِ".

"هل أخبروكِ متى يُمكنني الخروج؟"

"ولِمَ الاستعجالُ؟ تذكَّر أنَّكَ ستبقى في الجبيرة حتَّى ثلاثة أشهر أُخرى على الأقل".

امتعضَ (دوميساني):

"من الأفضل إذًا أن تُرسلني إلى زيمبابوي".

"سأعتنِي بكَ لدى خروجِكَ.. يُمكنكَ البقاء بمنزلي.. ليس لدي الكثير لكنَّنا سنَتأقلَّم!"

"وماذا عن عائلتي؟ ماذا يحدثُ لهم؟ كيف سيعيشُون يا شامو؟ أنا لديَّ طفلان الآن وكريستين وحدَها.."

بدأ صوتَه في الاختناق وتساقطت دموعُه، تركه (شامونوروا) يُعبِّر عمَّا يدورُ بداخلِه.

"أنا آسفٌ".

اعتذرَ له (دوميساني)؛ ربَّت (شامو) على كتفه قائلًا:

"لا تتأسَّف.. أعرف أنَّكَ لا ترغب في سماع مثل هذا الكلام الآن، لكن أعدُكَ بأنَّ كلَّ شيء سيتحسَّن".

أومأ (دوميساني) واهنًا، لم يكن أمامه سوى التَّصديق.

"ماذا عن عملِكَ؟ كيف تجري الأمور؟"

"بخيرٍ.. أصبحتُ أنا المسؤول عن تقطيع البطاطس؛ وتعتقد أنَّ حياتَكَ سيِّئة!"

ابتسمَ (دوميساني) ثمَّ ضحكَ الاثنان. رنَّت صافرة الإعلان عن موعد انتهاء ساعات الزيارة بالمشفى، أحسَّ (دوميساني) بالحزن مع مغادرة صديقه، وقبل أن يستغرقَ في النَّوم حضرت المُمرِّضة (نوموندي)، كان بإمكانه شمُّ رائحتها من على بعدٍ فهي تضع هذا العطر القوي الذي تعبق رائحته بالهواء لساعات طويلة بعد مغادرتها.

كانت (نوموندي) مُمرِّضة جذَّابة لها وجه قلبيُّ الشَّكل وعينَين بُنِّيَّتين واسعتَين، أمَّا شعرُها الأسود النَّاعم فكانَت تربطُه في ذيل حصان بعيدًا عن وجهِهَا، لم تستخدم المكياج أبدًا فهي لا تحتاج

إليه كونها بجمالٍ طبيعي فاتن.

"مرحبًا دوميساني".

"أخت نوموندي.. كيف حالكِ؟!"

"أنا بخير.. كيف حال مريضي المُفضَّل؟"

ردَّت عليه وهي تُغلق السّتارة حولَ فراشه.

"أنا بخير.."

تمنى لو أن عيناه ليستا حمراوتَين من البكاء، لم يكن راغبًا في إظهار ضعفِه أمامها.

"ستصبح أفضل كثيرًا بعد حمَّامكَ.."

ردَّت عليه بابتسامة إغراء. لم يكن مسموحًا له الذَّهاب للاستحمام مع حالتِهِ تلك، وإلا عرَّض عظامه للخطر وتأخَّر تعافيه، كان يحصل على حمامٍ في فراشه حيث تمسح المُمرِّضات جسدَه بمنشفة مبلَّلة. مالت (نوموندي) عليه وقبَّلته بحرارة، شعر بثورة جسده.

"هذا غيرُ مقبول.."

أحسَّ بالخزي إلَّا أنَّ شعورَ النَّشوة تغلَّب على خزيه، فاستسلم لها.

"سأراكَ لاحقًا اللَّيلة".

لم يستطع (دوميساني) النوم، كانت ينتظر بحرارة عودة (نوموندي)، ومع انطفاء أضواء المشفى عادت وتسلَّقت فراشه، ألصقَت جسدها بجسده.

كانت راحة زهيدة الثَّمن لا أكثر، فهو في النهاية يُحبُّ زوجتَه وأسرتَه.

25

قبل حدوث المُكالمة المُنتظرة، كانت (شيناي) توقفت عن الحلم بالآفاق اللامعة التي تنتظرها إذا ما حصلت على عقد التَّصوير هذا، غمسَت نفسَها في ملل عملها وبينما تُبدِّل ملابسَها في حمَّام الملهى بعد نوبة عملٍ طويلة، رنّ هاتفُها. تفاجأت لمّا لمحت اسم (أنطونيو) على الشَّاشة؛ كان صوتُه متحمِّسًا:

"لديَّ أخبارٌ سعيدة".

تجمَّدت (شيناي) من القلق.

"لقد حصلتِ على العقد، لقد أحبُّوكِ للغاية!"

رقصت (شيناي) من الفرح بعدما أغلقت الهاتف، ذهبت لمشاركة الخبر مع (تريفينا) التي سألتها:

"هل أخبروكِ كم سيدفعون لكِ؟"

ردَّت (شيناي):

"لم أسأل!"

"ومتى تبدئين؟"

عضَّت (شيناي) على شفتها، لقد نسَت وسط حماستها أن تسأل عن التَّفاصيل. قرَّرت (تريفينا) أن تأخذ على عاتقها مسؤوليَّة الاتِّصال بأنطونيو ومعرفة تفاصيل العمل. عندما عادَت (شيناي) للمنزل وشاركت الأخبار السَّعيدة مع أمِّها، لم تكن ردَّة فعلها على نفس قدر الحماسة مثل (تريفينا) بل كانت مُحبطة بدرجةٍ ما.

"هل أنتِ مُتأكِّدة أنَّها ليسَت واحدة من المجلَّات التي تنشر صور النِّساء عاريات؟"

"لا يا ماما، إنَّه إعلان لعطر جديد، وسيُنشر في جميع المجلَّات بجنوب إفريقيا".

ردَّت (سيبونجيل) بنبرة شكٍّ:

"من بين جميع الفتيات في جنوب إفريقيا ويختارونك أنتِ! لماذا؟"

تجاهلت (شيناي) سخرية والدتها، كانت عاقدة العزم على ألا تسمح لسلبيَّتها أن تؤثِّر على سعادتها.

"سيكون التَّصوير في كيب تاون، سنُسافر بالطائرة يوم الجمعة مساءً ونعود يوم الأحد صباحًا.. سأسافر معهم بالطائرة!"

"وماذا عن عملكِ؟"

"لقد حصلتُ على إجازة خلال هذه الأيام، أنا لم أحصل على أيّ إجازات منذ بدأت؛ لذا تفهم مديري الأمر".

"أنا أخاف عليكِ من المُحتالين، لقد رأيتُ الكثير منهم هنا في جوهانسبرج.. رجالٌ بيضٌ يحتالون على الفتياتِ السُّود، يعاملنَهُنَّ مُعاملة العاهرات".

انزوت (شيناي) في فراشها وغطَّت نفسَها بالبطانيَّة، كانت هذه طريقتها المُهذبة لإنهاء الحوار مع أمِّها، بل حتَّى أصدرَت صوت شخيرٍ سريــعٍ، تظاهرًا بأنَّها تغطُّ في النوم، إلَّا أنَّ (شيناي) كانت مُستيقظة تتخيَّل الرِّحلة الجديدة التي على وشك أن تخوضَها، لن تسمح لأي شيء أن يُعكر صفو أحلامِها وخصوصًا تشاؤم والدتِها.

بدا يوم الجمعة بعيدًا للغاية، لو كان بيدها لبدّلت يوم الثُّلاثاء في النَّتيجة بيوم الجمعة فورًا. بحلول الأربعاء ثمَّ الخميس أصبحت أقرب إلى مصيرها، كان (أنطونيو) قد رتَّب لها سيَّارة لتأخذَها إلى المَطار. هناكَ أخذَت وقتًا للعُثور على الصَّالة التي ستُغادر منها، انضمَّت لأنطونيو وفريقِه الذين رحَّبوا بها ونادوها بنجمة التَّصوير.

شعرت (شيناي) بالخِفَّة في بنطالها الجينز الجديد وبلوزتها البيضاء الجديدة، لقد صحبَتها (تريفينا) للتَّسوُّق قبل السفر؛ حرصت على أن تكون كلُّ مُتعلّقاتها جديدة تمامًا حتَّى فرشاة أسنانها. راقبت (شيناي) الحركة في المطار باهتمام، تعجَّبت لو أنَّ كل هؤلاء مُسافرون إلى (كيب تاون) مثلُها، لكن بصعودها الطائرة أدركت أنَّها صغيرة للغاية لاستيعاب كل من كان في صالة المطار.

كانت الرحلة التي استمرت ساعتين غير حافلة بالأحداث بالنِّسبة للرُّكاب المُعتادين على الطَّيران، أمَّا بالنسبة لشيناي فكانت رحلة مُوتِّرة للأعصاب؛ شعرَت بالاضطراب في معدتِها عندما أقلعَت الطَّائرة وأرادت بشدَّة أن تذهب إلى الحمَّام لكن المُضيفة الحازمة أجبرَتها منذ قليل على ربط حزام الأمان.

بعد ثلاثين دقيقةٍ مرَّت مُضيفة أخرى بابتسامة لتعرض على (شيناي) المشروبات والمأكولات الخفيفة، خافت أن تطلبَ أيًا منها وإلا اضطرَّت لدفع ثمنه. شعرَت بالرَّاحة أخيرًا لدى وُصولِهم إلى (كيب تاون)، كانت المدينة بعيدةً كلَّ البُعد عمَّا تخيَّلَته (شيناي)، الجبال خلَّابة والطَّبيعة ساحرة، حتَّى الهواء

له رائحة مُنعشة على عكس الهواء المُلوَّث في (جوهانسبرج)، لا يمنع ذلك أنَّهم مرُّوا بسيَّارتِهم جانب بعض الأحياء الفقيرة التي تتعارض تمامًا مع المشهد الجماليّ السَّاحر للفُندق المُخصَّص لإقامتهم.

قرَّر (أنطونيو) وفريقه تناول العشاء الباكر استعدادًا ليوم عمل طويل في الغد، تقابلوا جميعًا في المطعم الخارجيّ للفُندق حيث النسيم المُنعش للمُحيط الأطلنطي، رحّب بهم النَّادل وأعطاهم قوائم الطعام الكبيرة؛ قدَّم نفسَه باسم (لاڤمور).. عرِفت (شيناي) على الفور أنَّه من بلادها وبدأت تتحدَّث معه بعد قليل بلغة (الشونا).

"أرجوكِ ساعدني، لا أعرف ماذا أطلُب".

اقترح عليها تناول الكلاماري مع رقائقِ البطاطس، لكنَّ (أنطونيو) حذَّرها:

"لا داعي للرَّقائق، تذكري أنَّ الكاميرا تزيد من وزنكِ عدَّة كيلوجرامات".

اعترَضت (برينيدت):

"لا تستمعي له.. إنَّ جسدَك رائع".

"ثقي بي يا شيناي، في عملنا من الأفضل دائمًا الاكتفاءُ بقليل من الطَّعام".

طلب الفريق زُجاجات النَّبيذ إلَّا أنَّ (شيناي) اكتفَت بزجاجة الكوكاكولا خاصَّتها، لم يسبق لها أن تذوَّقت النَّبيذ طيلة حياتها، الكُحول الوحيد الذي كانت تعرفه هو الذي شمَّت رائحته النفاذة

على جلد أبيها. باغتها (أنطونيو):

"لا بدَّ أن تُجرِّبي كأسًا من النَّبيذ، إن كيب تاون بها أفضل الأنواع".

صدّق (داريل) و(كورين) على كلام (أنطونيو)، لم تعرف (شيناي) أدوارهم بالتحديد لكنَّها تقبَّلت وجودَهم كحاشية أنطونيو)، كانوا جميعًا مُميَّزي المَظهر؛ (داريل) بشعره الأخضر المرفوع لأعلى و(كورين) بشعرها المجعَّد الأحمر المُتدلِّي حتَّى كتفَيها و(برينيدت) بشعرها الأصفر الطَّويل كوحيد القرن وعينَيهَا الزَّرقاوتَين السَّاحرتَين.

عاد الجميع إلى الفندق بعد العشاء، أوصلها (أنطونيو) إلى غرفتها وذكّرها:

"أراكِ في السادسة صباحًا".

"حسنًا أنطونيو.. وشكرًا لكِ على هذه الفُرصة".

ابتسم وطبع قبلةً على وجنتها:

"يُمكنك مناداتي باسم طوني".

مسحت (شيناي) وجهَها بعدما أغلقت باب الغرفة، كان (أنطونيو) محبًا للتَّقبيل وهو ما أزعج (شيناي)، إلَّا أنَّها لم ترغب في إخباره بالأمر منعًا لمضايقته. ألقَت بنفسها في الفراش الواسع، كانت الغرفة مُطلَّة على المحيط، شغّلت التلفاز إلى أن راحت في النوم. استيقظت في الصباح على صوت طرقات (برينيدت) المُتتابعة على باب غرفتها.

كان شاطئ (كامبس باي) هو المكان المُخصَّص لجلسة التَّصوير، لم يوجد غيرُهُم هم وبعض الأشخاص ممَّن يُمارسون الرَّكض. كانت (كورين) المسؤولة عن الأزياء وقد اختارَت لشيناي ملابس سباحةٍ ذهبيَّة، أمَّا (برينيدت) فكانت المسؤولة عن المكياج و(داريل) مسؤولٌ عن مُساعدة (أنطونيو) مع عدّة التَّصوير. انضمَّ لهم وجهان غير مألوفَين، أدركت (شيناي) أنَّهما من شركة العُطور بما أنَّهما أحضرا معهما زجاجات عطر ضخمة لوضعها على الرمال كجزء من واجهة التصوير، بعدها انضمَّت فتاة سمراء البشرة تعمل كمُتدرِّبة، كانت مسؤولة عن إحضار القهوة لفريق العمل وهي أيضًا مَن ذهبت لإحضار شفرة حلاقة عندما تفاجأت (كورين) بشعر العانة الكثيف لدى (شيناي).

"أووه عزيزتي.. لماذا لم تحلقي هذا؟"

غمغمت (كورين) بعدها بكلمات ما ثمَّ ضحكت هي و(برينيدت)؛ أرادت (شيناي) لو تنشقُّ الأرض وتبتلعها فورًا.

بدأت جلسة التصوير و(شيناي) في حالة من التوتر لكن نظرة (أنطونيو) الدَّافئة أثلجت صدرها وجعلتها تنسى الشُّعور بالقلق. توقَّفوا بعد عدَّة صور لتعديل المكياج ووضع المزيد من الحُليّ على جسد (شيناي)، أمَّا في الجلسة الثَّانية كان عليها ارتداء البيكيني الذَّهبي اللَّامع الذي أبرز جمال بشرتِها؛ غيَّر الرَّجلان القادمان من الشَّركة وضعيَّة زجاجات العطور.

استغرقَت الصُّورتان حتَّى مُنتصِف الظهيرة، وعلى الرَّغم من إجهادِها الشَّديد حافظَت (شيناي) على ابتسامتِها أثناء التَّصوير. كان عليها ارتداءُ فستان ذهبيٍّ لامع في جلسة التَّصوير الأخيرة،

لكن (أنطونيو) أراد الانتظار حتَّى وقت الغروب، لذا ذهبوا جميعًا لتناول غذاء مطوَّل في أحد المطاعم المُطلَّة على الشاطئ. أحبَّت (شيناي) الأجواء الهادئة للغاية، وأعرب الفريق عن سعادتِهم بالعمل المبذول حتَّى الآن مُثنين على (شيناي) ومظهرِها الجميل. أخبرها (أنطونيو):

"جمالك طبيعي يا شيناي.. أنا سعيدٌ لأنَّني اكتشفتُكِ!"

"شُكرًا لهذه الفرصة يا طوني".

داعب وجهَها بخفَّة وأكمل:

"أنتِ جميلة، وأجمل ما فيكِ هو أنَّكِ لا تشعرين بقيمة جمالِك".

نظرَت (شيناي) لأصابع قدميها، كانت مُحرجة من النظر إلى عينيه مُباشرةً كما أنَّه يجعلُها تشعر بعدم الارتياح. بدأوا أخيرًا التَّوجُّه لموقع الصورة الأخيرة حيث الشاطئُ أكثر عُزلة من الأوَّل، وبحلول التَّاسعة مساءً أعلن (أنطونيو) عن انتهاء عملِهم وقد شعر بالرِّضا أخيرًا عن الصُّور التي التقطَها.

صمَّم (داريل) على قضاء السَّهرة في أحد الملاهي اللَّيلية، وهناك أصرُّوا على أن تتناولَ (شيناي) كوكتيلًا مُلوَّنًا يحمل شمسيَّة صغيرة على الكأس.. شربَت (شيناي) وواصلت الشُّرب حتَّى نسَت عدد الكؤوس التي تناولتها.

لم يكن لديها فكرة كيف عادوا إلى الفندق، كل ما تعرفه أنَّها استيقظت في الصباح التَّالي وهي عاريةٌ في فراشها وتُعاني من صداعٍ نصفيٍّ مُؤلم، طرقت (برينيدت) البابَ بعُنف:

"أيَّتها الجميلة النَّائمة.. لدينا طائرة لنلحق بها!"

كافحت (شيناي) للوصول إلى الحمَّام وقد أقسمَت أنَّها لن تشرب الخمر أبدًا، عندما نظرت إلى نفسها في المرآة استطاعت أن ترى وجه أبيها يُحدِّق ويضحك؛ تسمَّر جسدها من الصَّدمة وأفاقَت في تلك اللَّحظة.

غطَّت وجهَهَا لثواني وكأنَّها ترغب في إخفاء وجهِهِ للأبد، وعندما فتحت عينيها كان قد ذهب.

26

أصبحَت الأوضاع في (زيمبابوي) أكثر اضطرابًا بحلول انتخابات مارس ٢٠٠٨، امتلأَت الصُّحف بالعناوين الصَّاخبة التي تتبادل الشعارات بين الحزب المُعارض والحزب الحاكم؛ لأوَّل مرَّة في تاريخ (زيمبابوي) يتحدَّى (مورجان تسفانجيراي) سُلطة الرئيس الحاكم (روبرت موجابي)، كانت أوَّل مرَّة في تاريخ البلاد التي يُوجد فيه حزبٌ مُعارضٌ قويٌّ.

لم يسبق أن تابعَت (كريستين) الأوضاع السِّياسيَّة، لطالما كانَت أمرًا لا يليق بالنساء، الرِّجال وحدُهم هم من يتجادلون بشأنِ السِّياسة بينما تشغلُ النِّساء أنفسهن بما يجعلُهنَّ نساءً أفضل، زوجاتٍ أفضل.. أمهاتٍ أفضل. لم تهتمَّ (كريستين) بالسياسة قبل الآن، لقد أدركَت كيف تلعب السِّياسة دورًا أساسيًا في أوضاع المَعيشة، لقد لاحظَت كيف تدهور مُستواهم المَعيشيُّ بتدهور الاقتصاد في السَّنوات الفائتة. حملَت ابنتَها (سيليندِيل) مُقابل صدرها وفكَّرت كيف لن يكون هناك مُستقبلٌ لأبنائها ما لم تتغيَّر الأوضاع السياسية الحالية. حاولت أن تشرح الأمر إلَّا أنَّ (دوميساني) لم يستوعب ما تقصده، أخبرته أنَّ الوضع الاقتصادي قد تدهور بدرجةٍ كبيرة منذ غادر، أزعج عدم فهمه (كريستين) التي أصبحت تواجهُ صعوبةً كبيرةً في العيش دون وُجوده.

"سنذهب إلى جنوب إفريقيا لإحضار والدكم.."

أخبرت ابنها (سيفو) الذي يلعب أمامَها، ردَّت جدَّته بنبرة تهكُّميَّة:

"وهل لديكِ ما يكفي من الوقود؟"

كانت الجدَّة جالسةً على المقعد بجوار النَّافذة تحيكُ سُترة لحفيدتِها، ضحكَت وأكملَت:

"أنا متفاجئةٌ أنَّ سيفو يتذكَّر والده!"

ردت (كريستين):

"لم يمر وقتٌ طويلٌ يا ماما.."

"مرَّت سنة يا كريستين.. ولا تعرفين عنه شيئًا، لقد ابتلعَتهُ مدينةُ الذَّهَب!"

"لقد كان قعيد الفراش طيلة الأشهر الماضية".

"نعم.. لكن هل رآهُ أحدٌ بالفعل؟"

تنهَّدت (كريستين) بعمق، لم ترغب في فقدان إيمانها على الرغم من محاولاتِ أمِّها المُستمرَّة لزرعِ الشَّكِّ داخلَها يومًا بعد يوم.

"لو كنتُ مكانَكِ لذهبت إلى بريطانيا، يُمكنك تجربة حظِّكِ هناكَ!"

قبل عدَّة أشهر أرسلَت لها ابنة عمّشها (بوسيسيوي) تذكرة ذهاب وعودة على خطوط (آير زيمبابوي) الجَوِّيَّة، هذه هي التَّذكرة التي استطاعت بها الحصول على تأشيرةِ الدخول للمملكة المُتَّحدة، لقد ملأت جميع الاستمارات وقدَّمت جميع الأوراق المطلوبة دون أمل الحُصول على التَّأشيرة خاصةً أن الكثيرين يحاولون السَّفر إلى هناك بحثًا عن عملٍ مناسب.

تفاجأت (كريستين) لمّا وصلَها جواز السفر وهو يحمل التَّأشيرة المطبوعة عليه والتي تسمح لها بدخول (المملكة المُتَّحدة) لمرّةٍ واحدةٍ فقط على مدار العام بشرطِ عدم الحُصول على عملٍ هناك. أوضحَت لها ابنة عمّها أنَّ الوصول إلى هناك هو ما يهمُّ، بعدَها يُمكن التَّحايل على القوانين وإيجاد حلٍّ مُناسب يسمح لها بالعمل في البلاد.

لقد نجحَت (بوسيسيوي) في السفر إلى (المملكة المتحدة) في نهاية التسعينات عندما كانت إجراءات السَّفر أسهل، عاشَت هناك لمدة عشر سنوات وحصلت على المُواطَنة البريطانيَّة، هي الآن تتحدَّث باللَّكنة الإنجليزيَّة هي وأطفالُها الثلاثة بعدما انمحت كل ملامح شخصيَّتها الزيمبابوية عدا اسمها الذي يُذكرها بأصلها. كانت ترسل إلى والدتها ظرفًا شهريًا مكتظًا بالنقود التي جعلتها ثرية ومكَّنتها من بناء منزل خاصٍّ بها في (ماهتشولا).

نظرت (كريستين) إلى ابنتها الرَّضيعة النَّائمة بين ذراعَيها، كان عمرها الآن ستة أشهر ومُجرد فكرة الرحيل وتركها مزَّقت أحشاءَها، باغتتها أمُّها وكأنَّها تقرأ أفكارها:

”سأعتني أنا بالأطفال، وبعدما يستقرُّ وضعُكِ يُمكنهم الحضور إليكِ هم وزوجكِ“.

تنهَّدت (كريستين) بعمق، كانت والدتها مُحقَّة خاصَّةً مع وضعهم الماديِّ الصَّعب والذي لا يستطيع (دوميساني) التَّدخُّل لتحسينه، تراكمت الفواتير على طاولة القهوة وبجانبها إشعاراتُ الإخلاء من المنزل، ما لم يتمكَّنوا من دفع الإيجار المُتأخر. لقد حاولت بيع سيَّارتهما الثانية إلَّا أنَّها لم تجد من يشتريها،

تضخَّمت أعباء الحياة كورمٍ سرطاني. كانت تعرف أن والدتها سترعى الأطفال إلَّا أنَّ هذا لم يمنع الألم داخلها.

في هذا المساء قرَّرت الاتصال بدوميساني، استخدمَت النُّقود التي كانت تنوي بها شراء كيس من اللَّحم؛ أصبح (سيفو) يتذمَّر باستمرار من عدم تناول اللَّحم لذا كانت هذه فرصتُهم، كرهت أن تحرَم وَلدَها من طعم الحياة وهو في هذه السِّنّ.

"مرحبًا دومي، كيفَ حالكَ؟"

كان صوتها خاليًا من الحماسة.

"أنا بخير، سأخرج من المشفى هذا الأسبوع".

كان (دوميساني) متحمِّسًا لتغيير وضعه الكئيب أخيرًا.

"هذه أخبارٌ سعيدة، أنا أيضًا لديَّ أخبارٌ سعيدةٌ.. لقد ساعدَتني ابنةُ عمِّي على الحصول على تأشيرة السَّفر إلى المملكة المُتَّحدة، وأنا أنوي الذَّهاب للبحث عن عمل كمُمرِّضة".

قاطعها (دوميساني) سريعًا:

"هل تطلبين إذني؟ أم تخبرينَني بقراركِ؟"

أصبح صوتُه قاسيًا بينما ردَّت (كريستين) بوهن:

"أنا أُخبركَ.. لم تجرِ الأمور كما خطَّطنا لها.."

"إذًا فشلتُ من وجهة نظركِ".

"لا يا دومي.. ما أُحاول قولَه هو أنَّ هذه فرصةٌ مُلائمةٌ وسأكون حمقاءَ لو أضعتُها".

"إذًا لقد أخذتِ قراركِ دون استشارتي.. لقد ظننتُ أنَّنا فريقٌ

واحدًا! اعتقدتُ أنَّنا نفكّر في كُلِّ الأمور معًا يا كريستين، لكنَّكِ الآن تُقرِّرين مصيرَكِ وحدَكِ".

حافظت (كريستين) على صمتها والدُّموع تتساقطُ على وجنتَيها.

"ماذا عن الأطفال؟ ماذا سيحدُث لهم؟ من سيعتَني بأطفالي بينما تتجوَّلين أنتِ في أوروبا؟"

"ستعتني أمي بالأطفال حتَّى يستقرَّ وضعي هناك".

"لن يحدث هذا.. اسمعيني يا كريستين، لو نفَّذتِ خُطَّتك هذه فستنتهي علاقتُنا.. هل تسمعينَنِي؟"

"دومي.. أنتَ لا تُفكّر بشكلٍ صائبٍ".

"أنا لا أُفكّر بشكلٍ صائبِ! ماذا عنكِ؟ ترغبين في هجر أطفالكِ والسَّفر إلى المملكة المُتَّحدة.. استمعي إلى نفسك يا كريستين.. لو سافرتِ فسينتهي زواجُنا".

أغلق (دوميساني) الخطَّ وقاوم رغبتَه في ضرب هاتفه عرضَ الحائط، تمالكَ نفسَه وضرب الهواء بقبضتِه.

بحلول وقت خروجه من المشفى كان (شامونوروا) ومعه (ليراتو) إلى جانبه، كانا مُتشابهَين للغاية بزي العمل المُتماثِل إذ استطاع (شامو) توظيفَ (ليراتو) معه في المطعم، لقد شكَّك (دوميساني) في إمكانيَّة حُصولها على عمل من الأساس كونها فتاةٌ هادئةٌ وخجولةٌ، كلُّ ما عرفه عنها كان من كلام (شامو) أمَّا هي فكانَت قليلةَ الحديث والابتسام. كانَت فتاةً جميلةً ضئيلةً وفقًا لوصف (شامونوروا) لكنَّ علاماتِ الحمل بدأت في الظُّهور على

بطنها الذي يكبُر يومًا بعد يوم، مزح (دوميساني) بخصوص الأمر:

"لم تُضع وقتك يا شامو، أليس كذلكَ؟"

استغلَّ فُرصة ذهابها إلى الحمَّام ليقول ذلك، ضحك (شامونوروا) ولم يخبرْه بأنَّ الطِّفل الذي تحملُه ليس طفلَه، تمامًا كما أخبر والدتَه عندما عرَّفها على (ليراتو) ممَّا جعل والدته أكثر تقبُّلًا لاستعجاله على الزَّواج منها.

"أنا أُحبُّها للغاية".

تنهَّد (شامونوروا) وقد وضع يده على قلبه. شعر (دوميساني) بقليلٍ من الغِيرة، لقد نضبَت مشاعر الحُبِّ بالنِّسبةِ له وتمنَّى لو يُصبح سعيدًا مثل صديقه، تنازل عن تفكيره السَّوداويِّ وقال:

"إنَّها حقًّا فتاةٌ رائعة!"

عادت (ليراتو) لتقطع محادثتهما القصيرة، عرضت على (دوميساني) مُساعدتَه في حزم أغراضه إلَّا أنَّه أخبرَها أنَّ المُمرِّضة (نوموندي) ستفعلُ ذلكَ.

"لقد عرضَت عليَّ البقاء في منزلها لحين تحسُّنِ حالتي".

نظر له (شامونوروا) مُشكِّكًا:

"وهل ستُوافقُ زوجتُك على ذلكَ؟"

لم يعد (دوميساني) مُهتمًّا بما تظنُّه (كريستين)، ليس بعدما قرَّرت تنفيذ خطَّة سفرها إلى المملكة المُتَّحدة، لقد أشعره ذلك بتقليل هيمنته الزَّوجيَّة، أحسَّ لو أنَّها اقتلعَت ذُكورتَه من مكانها، وألقَت بها من النَّافذة. كان من المُفترض أن تكون هي الشَّخصُ

الواقف إلى جوارِه لا الشَّخص الذي قرَّر هجرَه.

"سأكون بخير مع نوموندي، كما أنَّكَ تحتاج لبعض الخصوصية أنتَ وليراتو".

"على كلِّ حال، لو احتجتَ مكانًا للعيشِ في أيِّ وقتٍ، فنحنُ إلى جانبكَ".

"لا تقلق.. سأكونُ بخير".

كان عازمًا على أن يُثبتَ لكريستين فداحة قرارِها، أرادَ أن يجعلها تندمُ على اليوم الذي صعدَت فيه على متن الطَّائرة بعدما أدارَت ظهرَها لعائلتِها.

27

كان الوقت مُنتصَف الظَّهيرة عندما دخلَت (بورشا) إلى المكتب بحذائِها الجوتشي ذي الكعب العالي، ارتدَت جيبةً قصيرة للغاية وبلوزةً بلونِ القهوةِ. انتبهَت (كابانو) إلى حذائِها قبلَ أن تلحظَ بقيَّة ملابسها، كانَت تبدو كأنَّها خرجت من آخر إصدارٍ لمجلَّة (كوزمبوليتان)، كانت (كابانو) لتُثني على ملابس (بورشا) ما لم تكن غاضبةً منها؛ تظاهرَت بعمل اتِّصالٍ هاتفي ثمَّ قالَت:

"أعتقدتُ أنَّكِ لن تحضري للعمل اليومَ".

"لقد أبلغتُهم أنَّني سأتأخَّر.."

ردَّت (بورشا) وهي تجلس في مقعدِها، فتحَت عُلبة طعامٍ وبدأت في تناول قطعةٍ من الدَّجاج المَقلي.

"تذكَّرِي أنَّه لا يُمكنُنا تناول الطَّعام في الاستقبال!"

مسحت (بورشا) فمَها وفي عينيها نظرةُ صدمةٍ زائفةٍ:

"أووبس.. لقد نسيتُ.. انتبهي أنتِ للاتِّصالات حتَّى أعود".

ألقَت بشعرها للخلف ثمَّ ذهبت إلى غرفة الإدارة تاركة (كابانو) في سحابة من عطرِها، هزَّت (كابانو) رأسَها بحنق ثمَّ نهضَت من مقعدها واندفعَت نحو مكتب السَّيِّد (هيرش)، طرقَت الباب ثمَّ دخلَت لتجدَه يقرأ أحد الملفَّات، سألَها:

"ماذا هناك؟"

"سيدي.. أنا لدي مشكلة مع فاكاما وعدمِ تركيزِها في العمل، كما أنَّها تحضرُ متأخِّرة.. أنا آتي للعمل في السابعة صباحًا، أمَّا هي فتأتي في مُنتصَف الظَّهيرة".

بدا على (هيرش) الانزعاجُ لكنَّه ردَّ:

"لقد سهرَت مُتأخِّرة للعمل على كتابة أقوال أحد وُكلاء السَّيِّد هوليساني، أعتقدُ أنَّها اتَّفقت معه على الحُضور مُتأخِّرة طالما تسهرُ بعد مواعيد العمل.. هل لديكِ أسئلة أخرى؟"

شعرت (كابانو) بالانزعاج واضطرّضت لمغادرة مكتبه ليعاود التَّركيز في قراءة الملفّ. عادت إلى مكتبها وهي تُفكّر، كان الجميع على دراية بأنَّ (فاكاما) تسهرُ مُتأخِّرة في المكتب؛ لأنَّها تُضاجع السَّيِّد (هوليساني). عندما عادت (بورشا) من استراحة الغذاء، حذَّرتها (كابانو):

"أنا لو مكانك، سأُنهي هذه العلاقة مع السَّيِّد هوليساني.."

سألتها (بورشا) متعجبة:

"أيّ علاقة؟"

"جميعُنا نعرفُ أنكِ تُضاجعينَه.."

تنهَّدت (بورشا) ثمَّ قالَت:

"وحتَّى لو أفعلُ ذلك، فهذا ليس من شأنكِ.."

"أنا أقدم منكِ هنا، جميع النِّساء اللاتي فعلن أمرًا مُشابهًا غادرْن العمل.. هذه العلاقات لا تستمرُّ".

انفتح باب المكتب ودخل السَّيِّد (هوليساني) بملابس المُرافعة وخلفه اثنَين من المُساعدين وهما في حالةٍ من التَّوتُّر الشَّديد؛ صاح في (بورشا):

"أحضِري لي القهوة."

أطاعته (بورشا) واتَّجهت إلى المطبخ، كان يُصرُّ على أن تُعدَّها له بنفسِها. بمُجرَّد دُخولِها مكتبه أمر المُساعدين بالانصراف، رفعَ رجليه على المكتب وشبكَ يدَيه خلف رأسه.

"تعرفين! يُمكنُني مُراقبتُك طُول اليوم يا فاكاما.."

ابتسمَت ووضعَت القهوة أمامَه، ثمَّ جلَسَت على المقعد المُقابل له.

"اقترِبي.. أنتِ تجلسين بعيدًا عني.."

اقتربَت (بورشا) من مكتبه وقد رفعَت رجلَها على الأخرى، التقط (هوليساني) القهوة بيدٍ وباليد الأخرى بدأ يُداعب رِجلَ (بورشا)؛ ضحكَت ودفعَت يدَه بعيدًا:

"سيِّدي.. قد يدخُل أحدٌ المكتب!"

"الجميع يعرف أنَّ عليهم طرقَ الباب أوَّلًا!"

حدَّق في وجهِها أكمل:

"كان يومًا سيِّئًا في المحكمة، لقد طرد القاضي واحدًا من الشُّهود.. سنضطرُّ لمُواصلة المُحاكمة غدًا".

"أنا آسفةٌ لهذا الصَّباح الشَّاقِّ في المَحكمة".

لقد أصبحَت (بورشا) على دراية بالكثير من المُصطلحات والتَّفاصيل القانونيَّة من عملِها في المكتب، نهضَت وبدأَت في تدليكِ كتفَيه، كانَت تفعلُ ذلكَ؛ لأنَّه أخبرَها بحُبِّه للأمر، في كُلِّ مرَّة كانت تسمع تأوُّهاتِه التي تنمُّ عن استرخائِه وسعادتِه بما تفعل.

”غدًا ستذهبُ إلى المحكمة وتفوزُ بالقضيَّة.. أنتَ أفضل مُحاميٍّ في جوهانسبرج!“

”اللَّعنة يا فاكاما.. كلامُك يُثيرني!“

جاء ردُّها بجلوسها في حِجرِه وتقبيلِه.

”أنتِ تقودينَني للجُنون“.

اشتعل جِسدُه الثَّائر بالرَّغبة أمَّا هي فابتسمَت له وهي تُغادر المكتب بعدما تسبَّبت في تشتيتِ عقلِه عن يومه الشَّاقّ، نادى عليها:

”فاكاما.. سأحضرُ إلى منزلكِ اللَّيلة!“

كان يحضر إلى منزلها كُلّ ليلةٍ تقريبًا، أصبح ابنُها يناديه باسمِه الأوَّل، أمَّا (بورشا) كانت تقضي الوقت في طبخ وجباته المُفضَّلة.. أرسلَت له قبلةً عابرة ثمَّ غادرَت المكتب إلى الاستقبال حيث (كابانو) الغاضبة التي سألَتها على الفور:

”هل يُمكنُني الذهاب لتناول الغذاء الآن؟“

”بالطبع.. أرجوكِ أحضري بعض الطعَّام للسَّيِّد هوليساني.. لكن لا شيء مقليًا، عليه أن يُحافظ على مُستوى الكوليسترول“.

ناولَتها ورقةً بمئتَي راند وقالَت:

”احتفظي بالباقي“.

رفعت النُّقود من معنويات (كابانو) وغادرت. جلسَت (بورشا) تتفحَّص بريدها الإلكتروني إلى أن أعلمها السَّيِّد (هيرش) بأنه سُيغادر المكتب ولن يعود إلا غدًا حيث أن عليه الاحتفالَ

الليلة بعيد ميلاد زوجتِه، من المقرَّر لهما الذهاب إلى المُنتجع الصِّحيِّ في (فورِوايز)، لقد ذهبت هي هناك من قبل مع السَّيِّد (هوليساني). كان (هوليساني) يُلبِّي طلباتِها وأحيانًا يفعل المزيد دون أن تطلب منه، يدفع إيجار شقَّتها والرُّسوم الدِّراسيَّة لابنها، ويُعطيها نقودًا لشراء البقالة والملابس بل وحتَّى وعدها بشراء سيارة جديدة لها عندما تتعلم القيادة.

رنّ الهاتف ليرد صوت السَّيِّد (هلوماني) يُخبرُها بأنَّه لا زال عالقًا في قاعدة المحكمة وأن عليها تأجيلُ مواعيدِه لهذه الظهيرة، وضعت سماعة الهاتف ثمَّ أجابت صوت جرس الباب:

"من هناك؟"

"الضَّابط لويل والشُرطية موريول.."

أجابها الصَّوت الذُّكوريُّ الغليظ، فتحت (بورشا) الباب ليدخل الظابط الطويل النحيف وشريكته القصيرةُ المُمتلئة. رحَّبت بهما بابتسامة مُشرقة:

"كيف يُمكنني مُساعدتكما؟"

"نحن نبحث عن السَّيِّدة فاكاما هالوفي".

ردَّت (بورشا) بثقة:

"أنا فاكاما هالوفي.."

"أنتِ مقبوضٌ عليك بتُهمة سرقة الهوية.."

طرحتها الشُرطية، أصبح وجه (بورشا) ملامسًا للأرض بينما بدأت الشرطية في تذكيرِها بحقوقِها.

28

لطالما سمعت (ليندانى) الكثير من الكذبات في حياتها، إحدى هذه الكذبات هي أنَّ جميع الأطفال الرُّضع يتحلّون بالجمال؛ كان الرضيع النائم أمامَها في الفراش ومُغطى ببطانية وردية لا يحمل أيّ علامات جمال.. عينان مغلقتان وبشرة شمعيَّة باهتة وشفتان غليظتان تخلوان من الابتسامة.

"من أين أحضرَت هذا الطِّفل القبيح؟"

سألت (كايين) الذي ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة.

"لا تقولي ذلك على طفلتي.. إنَّها فقط مُصابة بالصفراء".

"وماذا تُريدُني أن أفعلَ بطفلة مُصابة بالصفراء؟"

"لقد ولدتها رفيقتي الأسبوع الماضي وهي لا ترغبُ بها، ولا أنا أيضًا".

اتَّسعت عينا (ليندانى) غير مُصدِّقة:

"وتريدُني أن أربَيها أنا؟"

"بالطَّبع لا.. هناك عميل في ماليزيا يرغبُ في طفل رضيع، ستأخُذينَها إليه".

"لا يا كايين.. لا.. تجعلني أُهرِّب المخدرات والآن الأطفال!"

"ستكون هذه مهمَّتُك الأخيرة، وبعدها يمكنك الحصول على حريتك".

لمعَت فكرة الحرية في عينيها.

"لا تنسي أنكِ مدينة لي بخمسين ألف راند".

نظرت له (ليندانى) نظرة كراهية، كان ديْنها بمثابة الهوَّة السحيقة، تمنَّت لو أنَّها لم تُقابله أبدًا أو على الأقل استمعَت لمُصفِّفة الشَّعر في الصَّالون عندما حذَّرتها منه.

لقد اكتشفَت الكثير عنه منذ وصلت إلى المطار ومعدتها مكتظَّة بالمخدرات، وجدته في صالة الانتظار لاستقبالها، فهمت أنَّ اختفاءَه المفاجئ في (لندن) كان خطَّة مُدبرة بعناية. أجبرها لاحقًا على تهريب المخدرات حتَّى تسديد ديْنِها المقرر، كان يفعل ذلك مع الكثير من النساء؛ يستدرجهن لحياة الرَّفاهية بالملابس والهدايا الثَّمينة ويُخبرهن فيما بعد أنهنَّ مدينات له. لم تجرؤ إحداهن على عدم إطاعته وإلا سينتهي بها الأمر جثَّة في إحدى بنايات (هيلبرو) المهجورة.

لطالما فكرت (ليندانى) في التَّخطيط لهروبها، فكَّرت مرة أن تتّصل بميلوزي وتطلب منه أخذها إلى (زيمبابوي) مُجددًا، إلَّا أنَّها كانت واثقة أنَّه لن يأخذَ صفها أبدًا على حساب (جيڤمور)، على الأرجح أنَّه سيقتلها. تنهَّدت بعمق وفكَّرت في حرِّيَّتها، كان خيارها الوحيد هو إطاعة (كايين) وبدء حياتها من جديد في (بولاوايو) حيث لا يستطيع العثور عليها.

"كُل شيء هنا".

أخبرها (كايين) وهو يمدُّ لها بجوازات السفر، واحد لها والآخر لابنتها، جوازات مسروقةٌ بالطبع.

"اسمُك هو ليسيدي وابنتُك هي زيفو.. كُل شيء تحتاجين إليه في الحقيبة حتَّى الحليب.. إنَّها طفلة هادئة ولا تبكي، لا تنسي فقط أن تتصرَّفي بقليل من الأُمومة. سيُقابلكِ والدَاها في المطار،

سيحملان لافتةً باسمكِ".

بدت المهمَّة بسيطة، على الأقل لن تضطرَّ لنقل المخدرات.

"عليكِ الرحيل الآن، ستُغادر الطائرة في مُنتصَف الليل".

كرهت (ليندانى) رحلات مُنتصَف الليل، كرهت الانتظار الطَّويل في صالات الانتظار، كانت تقضي وقتها في تخيُّل الحكايات عن حياة الأشخاص الموجودين حولها. قرَّرت هذه الليلة أن تتفادى زحام صالة الطعام في المطار، جلست على طاولة بأحد الأركان وتناولت شطيرة اللَّحم مع الرقائق، شربت كأسين من الجاك دانيالز ولم تهتم بتناول الحلوى. عادةً لم تكن لتأكل قبل الطَّيران لأنَّها تحمل المخدرات في معدتها. نظرت سريعًا إلى الرَّضيعة التي لم يصدر عنها أيُّ صوت منذ غادرت منزل (كايين)، حتَّى النادل أخبرها كم أنَّ طفلتَها هادئة. قرَّرت التحرك أخيرًا نحو طائرتِها عندما ناداها النادل، تعجّضبت من السَّبب فقد تركت له بقشيشًا سخيًا.

"سيّدتي.. لقد نسيتِ طفلتَكِ".

لم تكن معتادة على دفع عربة الأطفال بصحبتها، لطالما سافرت بدون حقائب.

"يا إلهي!"

شعرت بالحرج الشديد بينما تفحَّصها الجالسون من حولها، عادت لأخذِ الرَّضيعة وتابعت طريقها نحو صالة المُغادرة وهي تمشي وسط مئات من الرُّكَّاب، كان المطار مكتظًا بالعرب والآسيويين والأفارقة والأمريكيين والأوروبيين واللاتين والشرقيين،

جميع المقاعد في الصالة كانت مشغولة إلا أنَّ أحدَ الرجال نهض من أجلها، فهمت على الفور أن السَّبب هو كونها تحمل رضيعًا. قرَّرت إيقاظ الطفلة ثمَّ فكَّرت أنَّه من الأفضل ألا تفعل، لم يكن لديها سابق خبرة مع الأطفال، تذكَّرت (جوجوليثو) وكيف جعلَتها تعتقد أنَّها ستصبح أمًا جيدة، أما (ميلوزي) فكان يمزح دائمًا أنها ستكون أمًا لأطفاله.

أعلنت إحدى المضيفات بداية الصُّعود على متن الرحلة المُتجهة إلى (ماليزيا)، هذه المرة حرصت (لينداني) على دفع عربة الأطفال بينما تعبرُ البوَّابة في طريقها إلى الطائرة. قادتها مُضيفة أخرى إلى مقعدها، انتبهت لوجود أكثر من طفل رضيع على متنِ الرِّحلة إلَّا أنَّهم كانوا أكثر ضجيجًا من (زيفو). قرَّرت (ليندانى) بعدما استقرَّت في مقعدها أن تحمل الطفلة بين ذراعيها وتُهدهِدهَا؛ هكذا ستبدو أمًا حقيقية. لم يصدر عن الطفلة أي حراك، تعجبت لو أنَّ (كايين) قام بتخديرِها وهو أمر لا تستبعدُ قيامَه به. كانت الشاشة أمام مقعدها تعرض إعلانًا تحذيريًا عن تهريب المخدرات إلى ماليزيا والذي يُعاقب عليه القانون بعقوبة الإعدام.

نامت (ليندانى) عدة ساعات إلى أن أيقظتها المُضيفة وهي تسألها:

"سيِّدتي، هل كل شيء على ما يُرام؟ هل طفلتُك بخير؟"

انتبهت (ليندانى) للرَّضيعة بين ذراعَيها وقد بدَت وكأن الحياة فارقتها.

"نعم بخير، إنَّها تنام كثيرًا فقط".

لم تتحرَّك الطفلة وبعد قليل غفلت (ليندانى) مُجددًا، غطّت في نومٍ عميق للدرجة التي أسقطت بسببها الطفلة من بين ذراعيها، التقطها الراكب المُجاور لها من على الأرض وأيقظ (ليندانى):

"سيدتي، طفلتُكِ!"

"أيّ طفلة؟"

استيقظت (ليندانى) مُتعجِّبة، وسرعان ما أدركت صدمة الرَّاكب الذي يحمل الرضيعة ويضعُها في حجر (ليندانى). أدركت حينها أن خطبًا ما بهذه الطفلة، قرَّرت أخذها إلى الحمَّام لتغيير حفَّاضتها وسط أعين الرُكاب التي تراقبها. وضعت الطفلة على الحوض وفكّت ملابسها لتكشف عن الغُرز الجراحية المُشوَّهة التي تمتد من رقبتها وحتَّى حوضها، كانت بطنُها منتفخة كالأطفال الذين يعانون من سوء التغذية. فلتت صرخة من حنجرة (ليندانى) وسبّت:

"يا ابن العاهرة!"

استمرَّت في سبّ (كايين)، أدركت أنَّه لا أحد في انتظار الطِّفلة في (ماليزيا) وأن هذه الرَّضيعة الميتة تحمل المُخدَّرات داخل جسدها؛ ارتعشَت (ليندانى) خوفًا.. ماذا تفعل الآن؟ ليس بإمكانِها التَّخلُّص من الطفلة عبر النافذة مثلًا.

باغتها صوت الطرق على باب الحمام لتدرك أن عليها الخروج قبل لفت مزيد من الأنظار إليها، خرجت ومعها (زيفو) بين ذراعيها وهي على يقين أن الرُكاب الآخرين يشكُّون بها، ستتمكَّن أيّ أم من الموجدات على متن الطائرة إدراك المسألة سريعًا،

فهنَّ يُحاولن تهدئة أطفالهن طوال الرحلة التي استمرَّت ثماني ساعات.

جلست (ليندا‌ني) وقد فارقها النوم وتلاشى تأثير الكحول الذي شربته في المطار، بدأت في الصلاة بكلمات غير مفهومة وهي تستجدي الرَّحمة، إلى هذه اللحظة لم يكن الرب جزءاً من حياتها، كانت تسمع عنه وعن رحمته وها هي الآن في حاجةٍ إليه. فكرت أن الرب سيكون معها للأبد عندما تقضي ما تبقَّى من حياتها في السُّجون الماليزية قبل أن تُعدم شنقًا.

29

أُقيم حفل إطلاق العطر الجديد في (هايد بارك)، كانَت صور (شيناي) المُستلقية على الرِّمال وتحتضنُ زجاجة العطر هي بطلة الحدث، جمالها كان أخَّاذًا ولا شك. امتلأ الحفل بالضُّيوف من السَّيِّدات اللاتي تتعدَّى أعمارهن الخمسين عامًا، جميعُهنَّ تألَّقن بتسريحات الشعر المثالية والابتسامات التي تدَّخل البوتوكس لصنعها، تطايرت القبلات بين الجميع لتجوب أرجاء المكان. كانت (هايد بارك) تستقطب العديد من الأغنياء الجدد الذين يحاولون الانضمام للمُجتمعات الرَّاقية، في هذه اللَّيلة اجتمع نجوم المُجتمع والمُوضة من أجل هدفٍ واحد فقط وهو الاحتفال بهذا العطر الجديد.

على الرَّغم من كون (شيناي) هي وجه الحدث إلَّا أنَّها شعرت بالغربة وسط الجمع اللامع، لقد أحضر لها (أنطونيو) فستانًا احتفاليًا جميلًا مكشوف الظهر، وقضت أغلبيَّة الظهيرة في صالون تصفيف الشعر، ارتدت أحمر الشفاه الفاقع الذي جعل وجهَها ينبض بالحيوية؛ أحمر شفاه العاهرات كما وصفَتهُ أمها. رفضت (سيبونجيل) حُضور لحفل على الإطلاق حتَّى لا تشعر بعدم الانتماء، رفضت حتَّى عندما أخبرَتها (شيناي) أنَّها ستشتري لها فستانًا بمُناسبة الحدث. جالت أمُّها متفاخرة بالمجلة التي تحملُ صورها لتعرضها على جميع الخادمات في الحي، كان هذا كُلُّ ما تحتاج إليه (شيناي) من طرف أمِّها.

أخبرها الجميع أنَّها تبدو جميلة لكنَّها ذهبت إلى الحمَّام لتأخذ نظرة أخيرة أمام المرآة، تبعها (أنطونيو) ليراها وهي تتفقَّد نفسَها

في المرآة، تتفقَّد هذه المرأة الجميلة التي تقف مكانها.

"استرخي واستمتعي باللحظة".

طمأنها (أنطونيو) واضعًا يده على كتفها العاري.

"ماذا لو بدأ الناس في طرح الأسئلة؟"

تنهَّد (أنطونيو) بعمق:

"لقد تدرَّبنا على ذلك.. أنتِ فتاة ذكية، ستعرفين الرَّدَّ المناسب".

لم تكن (شيناي) مُقتنعة بذلك، خافت لو هجرَتها الكلمات أمام أسئلة وكاميرات الصَّحفيِّين.

"لدي شيء سيساعدك على الاسترخاء".

قادها إلى كابينة الحمام وأغلق الباب، أخرج كيسًا من مسحوق أبيض من بنطاله الضَّيِّق، وضع قليلًا منه على إصبعه واستنشَقه سريعًا. كرر الأمر ثانيةً لتفعل (شيناي) مثله تمامًا. استنشقَت المسحوق وشعرت بالخدر يتخلل جسدها بالكامل، كان شعورًا بالانتشاء المُفاجئ.

"سيجعلُكِ في حالة أفضل.. سيمنحُكَ الثقة التي تبحثينَ عنها".

مسح على ظهرها المكشوف لتشعر بالتوتر يتلاشى من داخلها، أغلقَت عينَيها واستسلمَت لهذا التَّيَّار الكهربائي الذي يسري داخلها، كان شعورًا رائعًا لم يسبق لها تجربتُه. اقترب منها (أنطونيو)، استطاعت تمييز رائحة عطره المُميَّزة، تشابكَت الشفاه بشغف وداعب لسانُه شفتَيها. لم يكن الأمر عنيفًا بل مُشبعًا بالرِّقَّة، تراقصت ألسنتُهما كاللَّهيب المُحترق. باغتَتهم

طرقات باب الحمَّام فجأة، كان صوت (برينيدت) الآمر:

"شينااااي! هل أنتِ هنا؟ الجميع في انتظارِكِ!"

خرجا مُتشابكَي الأيدي، شد (أنطونيو) على يدها مُطمئنًا. بعد قليل كان عليه تركُها للتَّحدُّث مع الصَّحفيِّين والضيوف، أما هي فقد أجابت على جميع الأسئلة ببراعة لم تتوقَّعها، حدَّقت في أعين الجميع دون خوف. لمحت عيني (شامونوروا) الواقف بأحد الأركان في مؤخرة الغرفة، كان بصحبته (ليراتو) و(دوميساني) و(نوموندي).

"لا أصدِّق أنَّ هذا أنتِ!"

تعجب (شامونوروا) وهو يعانق أختَه، ضحكت (شيناي) وردَّت:

"أنا أيضًا لا أُصدِّق!"

قاطعهما (دوميساني):

"لا أحد يصدق أن هذه هي الفتاة التي كانت تقفز من على الأسوار منذ سنة!"

ضحك ثلاثتُهم وسط عدم إدراك (ليراتو) و(نوموندي) لمزحتِه.

"لقد حضرنا لدعمكِ في هذه اللَّيلة الحافلة، لكن علينا الذَّهاب استعدادًا للعمل غدًا".

أخبرها (شامو) وهو يعانقها مجددًا، أشارت (شيناي) لأحد المُصوِّرين ليلتقط لها صورة مع أخيها، لم يكن ليصدِّق أحد أنَّهما قد جاءا إلى الدُّنيا من نفس الرحم.

بحلول المساء ومُغادرة جميع الضيوف، التقطت (شيناي) كأسًا من الكؤوس المُتبقية وتجرَّعت الكوكتيل داخله لتروي

ظمأها. حضر (أنطونيو) واقترح عليها الذهاب لتناول العشاء، كان الوقت متأخرًا لذا قرَّرا قيادة السَّيَّارة بحثًا عن مطعم مفتوح دون جدوى، دعاها (أنطونيو) إلى شقَّته فوافقَت.

يسكن (أنطونيو) في شقَّة ذات طابقين ومطبخ كبير مفتوح على قاعة الطعام، جميع الجدران تحمل صورًا من أعمال (أنطونيو) المُميَّزة. تفحَّصت (شيناي) المكان كي تتذكَّره جيدًا، صبَّ لها كأسًا من النبيذ الأحمر اللَّاذع، ثمَّ عرض عليها إعداد السلطة للعشاء. لم تكن (شيناي) مُحبَّة للسلطة إلَّا أنَّها وافقته، كانت مُمتنَّة له بدرجة كبيرة وترغب في إرضائِه.

"أنطونيو.. شكرًا لك على كُلِّ شيء!"

"لا تشكريني عزيزتي.. إنَّه عملُك الجادُّ!"

اقترب منها وأمسكَ يدَها ثمَّ قبّلها، نظرت (شيناي) بعيدًا وهي تشعرُ بالخجل.

"انظري لي".

أطاعته على الفور، دقَّقت في عينيه الخضراء الثَّاقبة، شهقت من المفاجأة عندما تعانَقت شفتاهما.. قبَّلها قبلةً بطعم النَّبيذ.

"أُريد أن أمارس الحُبَّ معكِ.. هل تمنحينَني الفرصة؟"

"تُمارس الحُبَّ معي!"

ردَّت (شيناي) وتركته يفكُّ سحَّاب فُستانها بحركة واحدة ليقع الفستان أرضًا، أزاحَته (شيناي) جانبًا.

قبّلها سريعًا على كل جزءٍ من جسدها ليجعلَها تتأوَّه من السَّعادة. خلع ملابسه ليصبحا عاريَين في عناقٍ حميميٍّ، تحسَّست ظهرَه بأظافرها.. غرقا معًا في النَّشوة.

30

أحكم (شامونوروا) غلق سُترته ليحمي نفسه من البرد بينما يسير في طريق عودته إلى المنزل، لقد استسلم النَّهار للمساءِ أخيرًا، لم يعد الأطفال يلعبون في الشارع كما يفعلون في فصلِ الصَّيف، أما الأشجار فقد أسقطَت أوراقَها الصَّفراء استعدادًا لفصل الشتاء.

أصبح (شامونوروا) يذهب إلى العمل بمفرده بينما تعتني (ليراتو) بطفلتهم الوليدة والتي أسمَوها (رودو). وصل إلى المنزل واستقبلَته (ليراتو) بابتسامة مُشرقة وكوب من القهوة السَّاخنة وقطعتَين من الخبز الغارق في مُربَّى الفواكه، شاركَها تفاصيل يومه وهو يتناول الخبز بنهم:

"لقد حصلتُ على ترقيةٍ اليوم يا حبيبتي! أنا الآن الكاشير".

عانقَته (ليراتو) أمَّا هو فكان فخورًا بنفسه، شاركها خطاب الترقية بالوظيفة الجديدة والرَّاتب الشَّهري الذي يُساوي ستَّة آلاف وخمسمائة راند.

"لقد عثرتُ على غُرفة مُناسبة للإيجار في أورانج جروف.. هُنا ليس مكانًا مُناسبًا لتربية طفل".

كانت (رودو) نائمةً على فراش وضعوه لها على الأرض غير آبهةٍ بالعالَمِ من حولِها.

"شامو.. لا أعرف ماذا أقول، أنتَ تعتني بي جيدًا!"

"وسأستمرُّ في ذلك، نحن عائلة الآن يا ليراتو.. أنا وأنتِ وطفلتُنا.. سأواصل العمل بجهد حتَّى تتحسَّن الظروف".

عانقَته مُجدَّدًا وأغدقَت عليه بالقُبلات، ابتسمَ (شامونوروا) غير مُصدِّق للسعادة التي يشعر بها الآن، سعادة تسبَّبت فيها فتاة قابلَها في شوارع (أليكسندرا) المُغبرَّة. استلقيا على الفراش بعد الانتهاء من تناول العشاء، تصفح (شامو) إرشادات الوظيفة الجديدة أما (ليراتو) فهمّت بإرضاع (رودو).

استسلم (شامو) للنعاس، في أحلامه قابل والده الذي ينتظرُه، كان الحلم مُختلفًا هذه المرة.. لم يكن والده غارقًا في الدماء والكدمات، بل كان ضخمًا بدرجةٍ لا تُعقل كما يتذكَّره (شامو) في طفولتِه تلك الأيام السعيدة قبل أن تُغادر والدتُهما المنزل. مدّ الوالد يده إلى (شامونوروا) قائلًا والدُّموع تتساقط على وجهه:

"تعال إليّ يا ولدي.. تعال إليّ! أنا أُسامحُك على كل ما فعلتَ.. تعال إليّ".

"لن آتي.. ابتعد!"

"تعال إليّ يا ولدي.. لن أتركَكَ".

بدأ في الاقتراب من فراشه لكن (شامونوروا) صرخ:

"ابتعد! ابتعد!"

استيقظ فزعًا، خاف لو أيقظ صراخَه (رودو) النائمة. حاولت (ليراتو) تهدئَته:

"هذه الأحلام مُجدَّدًا؟"

أومأ في صمت، لم يحلم بوالده منذ أسابيع وربَّما شهور، مسحت على ظهره بحنان لتُشجِّعه على العودة إلى النَّوم إلَّا أنَّه تقلَّب على جانبه وحدّق في الأسبستوس على حائط المنزل.

استغرَق في النَّوم مُجددًا حتَّى أيقظَته أصوات الضوضاء القادمة من الخارج، تملَّص من ذراع (ليراتو)، بدَت مُستسلمَة في نومها وشعرها الأسود يُغطي الوسادة. جلس على حافَّة الفراش يستمع للضوضاء الخارجيَّة إلى أن قرَّر إيقاظ (ليراتو):

"هل تسمعين ذلك؟"

"أسمع ماذا؟"

فركت عينيها وهي تسألُه، اعتقدَ (شامو) للوهلةِ الأولى أن شجارًا عنيفًا يدور بالخارج إلَّا أنَّه سرعان ما سمع أصوات الهتاف المُنظم التي تُنادي في صوتٍ واحد.. الموتُ للدُّخلاء.. المجد للتَّحرير.. الموتُ للدُّخلاء.. المجدُ للتَّحرير.. علَت الأصوات واقتربَت، قفز (شامو) من الفراش وارتدى سروالَه القصير المُلقى على الأرض؛ سألته (ليراتو) في فزع:

"إلى أين تذهب؟"

"أُريد معرفة ماذا يحدث بالخارج!"

"شامو.. انتظر!"

التفت إليها في نفس اللَّحظة التي انهار فيها باب المنزل ليكشف عن سطوٍ من الرِّجال الذين يحملون المُديات والمناجل والعُصيِّ والفؤوس، رجالٌ مدفوعون بالغضب والتُّستوستيرون، حاوطوا (شامونوروا) إلى أن دفعوه نحو رُكن الغرفة.. صاحوا بصوتٍ عالٍ.. أجنبيٌّ قذر.. أجنبيٌّ قذر.. ثمَّ أصبحَت الصَّيحات مصحوبة بضربات غاضبة، انهار (شامو) إثر اعتدائهم ليقع أرضًا، باتوا يركلونه كالكرة. استيقظَت الرَّضيعة وهي تصرُخ أمَّا توسُّلات

(ليراتو) للرَّحمة فلم تتسبَّب إلا بإثارة غضبهم وعُنفهم أكثر وأكثر، جذبت (ليراتو) الطِّفلة وهرعت خارج الغرفة.

جذبوا (شامو) الغارق في دمائه نحو الشارع، أحضر أحدهم إطار سيَّارة غارقًا في البنزين، وضعوه حول عُنق (شامونوروا) غصبًا عنه.. ثمَّ أشعلوا فيه النَّار.

اشتعلت الألهبة الغاضبة لتحتضن (شامونوروا) في عناقٍ مُلتهب، حرقت شعره كالورق، تراقصت النار على جسده ليسمع من حولِه صوت اللَّحم وهو يحترق. كانت النار مُدجَّجَة بغضبهم وكراهيَتِهم للأجانب الذين عبروا حدودَ بلادهم وسرقوا أشغالَهم وباتوا في منازلهم وتزوَّجوا نساءَهم، هؤلاء الدُّخلاء الذين لا يحترمونَهم ولا حتَّى يهتمُّون بتعلُّم لغتهم.. إنَّهم يستحقُّون الموت، يستحقُّون الاحتراق في الجحيم المُستعِر.

استمرَّت الهُتافات الثائرة حتَّى بعدما حضرت الشُّرطة لتكتشف جسد (شامونوروا) المُتفحِّم، كانَت يداه مرفوعة في استسلام.. لم يكن هو الوحيد الذي مات إثر هذه الثَّورة الغاضبة.

انتشرت النار كالهشيم إلى شمال (جوهانسبرج)، تعرَّض الأجانب للضرب وسرقة مُتعلَّقاتِهم، تعرَّضت النساء للاغتصاب، اضطُرَّ الكثيرون للهرب إلى المُعسكرات الآمنة. اندلَعت الأحداث ذاتها في الشَّرق والجنوب.. لم يسلَم الإثيوبيُّون والمالاويون والموزمبيقيون والنيجيريون والصُّوماليون والزميبابويون من موجة العُنف تلك، أما في (سويتو) فقد اندلعَ العُنف بين السود.. أسود البشرة في مُقابل أخيه الأسود.. كان طوفانًا على استعدادٍ لإغراق كُلّ أجنبيٍّ يقفُ في طريقه.

الجزء الرابع
(العودة للوطن)

«وَهَا أَنَا مَعَكَ،

وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ،

وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ،

لأَنِّي لاَ أَتْرُكُكَ حتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ».

سِفر التكوين ٢٨: ١٥

31

في كلِ مرةٍ يسأل أحدهم عن (كريستين) تُجيب والدتها:

"في لندن!"

دائمًا ما تردُّ بفخر لأنَّ ابنتَها تعيش وتعمل بالخارج، لا يهمُّ أنَّها تعمل خارج (لندن) بحوالي ستين كيلومترًا وأنَّها لم تذهب إلى هناك إلا عدَّة مرَّات خلال خمس سنوات من إقامتها في (المملكة المُتَّحدة)، ما يُهمُّ حقًا أنَّها تبذل مجهودًا يستحقُّ الثناء للإنفاق على عائلتها. لم تكن والدتها لتعرف كيف تعاني (كريستين) وكيف أنَّها لا ترغب في الخروج من الفراش بشكلٍ شبه يومي.

جاء صباح السبت ولم يتغير شيءٌ في حياة (كريستين) عدا صوت المنبه الذي رنّ لإيقاظها في المَوعد المُعتاد، استيقظَت وهي تُطلق اللّعنات، كان اليوم إجازتها لكنّها لم تتذكّر غلق المنبه. اليوم ليست مُضطرّة للعمل نوبَتين مُتتاليتَين في مشفى (ستوك مانديفيل) الذي تعمل فيه كمُمرِّضة مُقيمة، قبل ذلك كانت تستغل أيّام إجازاتها في العمل بنوبات إضافية بمشفى (رويال باكينجهامشاير) كي تتمكّن من دعم عائلتها بالمزيد من النُّقود. لقد تغير الوضع عن سنواتها الأولى هُنا، سابقًا كانت

تُرسل النُّقود لوالدتها التي تستبدلُها في السوق السوداء بأضعاف قيمتها، أمَّا الآن لم يعد مُمكنًا الحصول على قيمة مُضاعفة لما تُرسله. على كُل حال لا يُهمُّ ذلك فقد تعهّد (دوميساني) بتغطية نفقاتِ الأطفال، أوضح لها أنَّه لا يرغب في أيِّ نقودٍ من طرفِها.

فكَّرت إن كان من الأفضل تناول قرص المُنوِّم والاستسلام مُجددًا للفراش، كادت أن تذهب إلى خزانة الأدوية عندما باغتها رنين الهاتف، نظرَت إلى الشَّاشة لترى اسم ابنة عمِّها (بوسيسيوي)، شعرت بقليل من الذنب فقد كانت هي من يسَّر لها إجراءات السفر إلى (المملكة المُتحدة) إلَّا أنَّ (كريستين) لم تكن على تواصل دائم معها. ردَّت على الهاتف لتسمع صوت (بوسيسيوي):

"مرحبًا حبيبتي".

كان صوتها مُبتهجًا على الدوام لدرجة تُزعج (كريستين).

"مرحبًا يا ابنة عمي".

ردَّت بحماسٍ زائف.

"ما رأيك أن تحضري لزيارتنا اليوم؟ الأطفال يفتقدونك كما أن دوج سيقوم بالشِّواء في باحة المنزل، إنَّه يومٌ جميل!"

فكَّرت (كريستين) مُسرعةً في حُجَّة مُناسبة للتَّملُّص من الدَّعوة إلَّا أنَّ (بوسيسيوي) لم تمنحها الفرصة:

"اتَّصلي بي عند وصولكِ إلى المحطّة".

أغلقت المُكالمة قبل أن تحاول (كريستين) إبداء أي اعتراض.

كانت الرحلة بالحافلة إلى (ميلتون كييز) مُملّة للدَّرجة التي أغرتها بالنوم، وصلت إلى المحطة لتجد (بوسيسيوي) في انتظارها بالسَّيَّارة الرينج روفر، كانت تعيش مع زوجها على بُعد عشر دقائق من المحطّة؛ يعيشون في منزل كبير بأربعة غُرف ومدخل وحديقة كبيرةٍ يلعبُ فيها الأطفالُ في الأيَّام المُشمسة.

يعمل (دوج) زوجُها كجرَّاح قلب ممَّا جعله ثريًا، لقد تقابلا في المشفى حيث قضَت (بوسيسيوي) تدريبَها على التَّمريض، لم تحتج بالطبع لاستكمال التَّدريب بل سُرعان ما تقلَّدت وظيفتَها كزوجته، لديهم أربعة أطفال وثلاثة قطط وكلبان يعيشون معهم في منزلهم بقلب الضَّاحية، صورةٌ مثاليَّةٌ للحياة الزَّوجيَّة.

"كارل سيكون موجودًا.. إنَّه مُهتمٌ لأمركِ!"

(كارل) كان أخصائيًا في صحَّة القدمين انتقل للعيش من (ألمانيا) إلى (إنجلترا)، خرجَت معه (كريستين) في عدَّة مواعيدَ غراميَّة.

"لو أعرف ذلك لما حضرت!"

"لماذا يا عزيزتي! تذكَّري أنَّ جسدك الرَّائع هذا هو حُلم كُلّ رجلٍ أبيض".

كانت تقصد بأن (كريستين) نحيفة وممشُوقة القوام، نظرت (كريستين) لنفسِها في المرآة وتفحَّصت هيكلها العظميَّ الضَّعيف، لم تكن تأكل كما سبق ولم تعد تُحبُّ الطبخ، اعتادَت مُؤخَّرًا تناول الطعام المُجمَّد والسريع حتَّى أصابَها الملل وفقدَت شهيَّتها.

"أتمنى لو لديَّ جسدٌ مثل جسدك.. سأُضاجع كل الرِّجال في

لندن".

ضحكت (كريستين) على ابنة عمها، لم تمانع استبدال الأجساد معها فقد كانت (بوسيسيوي) مُمتلئة ذات أثداءٍ ضخمةٍ إلَّا أنَّها عادةً ما تتبَع حِميةً غذائيَّة ما، أو تُمارس رياضة عصريَّة جديدةً كما تفعل الآن مع (الزومبا)، كانت تُطلق على الأمر مشاكل الأثرياء.

"يُمكنك أخذ جسدي في أيِّ وقت".

ردّت (كريستين).

"أعتقد المشكلة أنَّكِ في حاجة لمُمارسة الجنس.. متى كانت آخر مرَّة لكِ؟"

أجفلت (كريستين) وهي تتذكَّر حدوث ذلك منذ عام تقريبًا، كان الجنس سيئًا للغاية مع (كارل) وكأنَّها تُمارس الجنس مع جزَّارة أعشابٍ تُشغِل المُحرِّك ثمَّ تُغلقه دون تشذيبٍ لأعشابِك.

"هل رأيتِ؟! أنتِ حتَّى لا تتذكَّرين.. عليكِ المُضيُّ بحياتك يا عزيزتي، لقد فعل دوميساني ذلك منذ زمن".

لقد تزوَّج (دوميساني) من امرأة تُدعى (نوموندي)، هي أيضًا تعمل كمُمرِّضة، شكَّت (كريستين) في ولعه بالنساء بالزِّيِ الرَّسمي. ما زال بينهما بعض الأصدقاء المُشتركين الذين حضروا حفل زفافِه بل وتجرَّؤوا على الاتِّصال بها ومُشاركتها كلَّ التَّفاصيل، حاولت (كريستين) أن تبدو غير مبالية وهم يتحدَّثون عن جمال (نوموندي) وكيف أنَّها من رعت (دوميساني) وهو في المشفى في (جوهانسبرج).

بحثت (كريستين) عبر الإنترنت عن صور لحفل الزِّفاف، وجدت موقعًا مُخصَّصًا له يحمل عنوان "دومي ونومونـدي.. احتفالٌ بحُبِّنـا".. كانت زوجته جميلة بالفعل، ربَّما أكثر جمالًا ممَّا وصفَها به أصدقاؤهم.

"لقد حاولتُ المُضي بحياتي فعلًا!"

اعترضَت (بوسيسوي):

"عليكِ المُحاولة أفضلُ من ذلك".

وصلوا أخيرًا إلى منزل (بوسيسوي) ليُرحِّب بهما أطفالُها الأربعة (أنيوسي) و(كونلي) و(فولاسادي) و(أبيولا) الذين تتراوحُ أعمارُهم بين الرابعة والثانية عشر عامًا، أغدقوا على (كريستين) بالأحضان والقُبلات ثمَّ تبعهم (دوج) الذي يرتدي سُترة نيجيرية تقليديّة، كان يُحبُّ ارتداء ملابسه الوطنيَّة في نهايات الأسبوع.

"مرحبًا عزيزتي.. لم نعد نراكِ كثيرًا!"

عند استماعكَ إلى (دوج) لن تُصدِّق أبدًا أنَّه من (نيجيريا)، كانَت لَكنتُه الإنجليزية قويَّةً؛ كونه تعلَّم في (كامبريدج) و(أكسفورد)؛ لقد كان والدُه دبلوماسيًا فيما مضى أمَّا الآن فقد تقاعَد ويعيش مع والدته في (لاجوس). كان (دوج) مثالًا حيًا على أن ليس كلُّ النيجيريين تُجَّار مُخدرات بأعضاءٍ ذكريَّة ضخمة، لا يمنع هذا أن (بوسيسوي) قد أكَّدت لكريستين مسألة الضَّخامة تلك؛ قالت أنَّها أحدُ أسباب زواجها منه.

"أنا فقط مُنشغلة بالعمل".

بررت (كريستين) وهي تعانقُه. قاداها إلى داخل المنزل حيث

يتجمَّع أصدقاؤُهم، كانوا مزيجًا من الأوروبيين والسنغاليين والزيمبابويين بفصائلهم المُختلفة، كانَت هي و(كارل) الوحيدَين غير مُتزوِّجَين، أمَّا الآخرون فجميعُهم لديهم وظائفُهم المُستقرَّة، ولا يحتاجون للعمل في نوباتٍ إضافيَّة ولا يعيشون في أحياء نائية عن المدينة.

اعتنى الرِّجال بالشواء وهم يتحدَّثون في السِّياسة، أما النِّساء فاحتسَين النبيذ وناقشن عدة مواضيع مثل قضية (أوسكار بيستوريوس)[1] والمُسلسلات الواقعيَّة التَّافهة؛ استمتَعت (كريستين) بسيلِ النبيذ الذي لم يتوقَّف. وضعت الكأس الأخير جانبًا خوفًا من أن تستسلمَ للخمر، ثمَّ ذهبت لتلعب مع الأطفال وتطاردَهم في الحديقة.

فكرت في (سيفو) ذي الثامنة و(سيلنديل) ذات الخمسة أعوام، لم تراهُم مُنذ سنوات إلا في الصُّور وتتحدث معهم عبر الهاتف كلَّ أسبوع في مُكالمات تبدو في غاية البعد. لقد حصل (دوميساني) على الحضانة الكاملة للأطفال بعد أسابيع قليلةٍ من حُصولها على الإقامة الدَّائمة في (المملكة المُتَّحدة)، حكمت المحكمة بسهولة في قضيَّته خاصَّةً مع غياب الأمِّ عن حضور الجلسة، لهذا السبب كانت تكرَه زيارة (بوسيسيوي).. كانت دائمًا ما تتذكَّر أطفالَها الذين فقدَتهم.

أحسَّت بالسعادة مع انتهاء هذا اليوم الاحتفالي، عرَض عليها (كارل) إيصالَها للمنزل فوافقت. ضحكَت طُوال الطريق على مزحاتِه إلى حدِّ الهِيستيريا، وعلى غير ما توقَّعت دعَته للصُّعود

---

1 عدّاء باراليمبي جنوب إفريقي حُكم عليه بالسجن في جريمة قتل.

إلى شقَّتها.

أعدَّت له كأسًا وتركَته يُداعب جسدَها بيديه، عرض عليها أن يبيت اللَّيلة في صحبتها إلَّا أنَّها تحجَّجت بضرورة استيقاظها باكرًا للعمل.

بعدما غادر (كارل) جلست (كريستين) على الأرض شاعرة بالغضب، قررت الاتِّصال بدوميساني وصرخَت عبر الهاتف:

"أنا أُريد أطفالي.. لماذا لا تدعُني أرى الأطفال؟ إنَّهم أطفالي!"

"كريستين! لقد خسرتِ هذا الحقَّ عندما قرَّرتِ هجرَهم والسَّفر إلى لندن".

"كيف أصبحتَ هذا الشَّخص؟ ماذا حدثَ لدوميساني الذي تزوَّجتُه؟ لم يكن بهذه القسوة!"

"كريستين! هل عُدتِ للشُّرب مجددًا؟"

انهمرَت الدُّموع على وجنتي (كريستين) حتَّى بللت سمَّاعة الهاتف، أنهى (دوميساني) المُكالمة مغلقًا الخط. انهارَت (كريستين) وهي تُفكِّر في إخفاقِها بتلك الحياة.

32

حدّق (دوميساني) في الهاتف لوقتٍ طويل، شغل تفكيرَه بكلمات (كريستين) له.. كيف أصبحتَ هذا الشخص؟ أحسّ بأن كلماتها اخترقَته. انفتحَ باب مكتبه ودخلَت (نوموندي) بجسدها الضخم، كانت ترتدي منامة قصيرةً تكشف عن رجلَيها العاريتَين؛ تعجَّب لو أنَّها وقفَت أمام الباب واسترقَت السَّمع لمكالمته.

"مع من كنتَ تتحدَّث؟ مع من كُنتَ تتحدَّث على الهاتف؟"

سألته (نوموندي) بنبرةٍ خالطَتها الغيرة.

"كنت أتحدَّث مع كريستين".

"كريستين! ليست واحدةً من عاهراتك إذًا؟"

ضرب (دوميساني) بقبضته على المكتب في محاولة للتَّنفيس عن غضبه، اهتز الإطار الذي يحمل صورةَ زفافه هو و(نوموندي).

"أنا في مزاجٍ سيء يا نوموندي!"

"أنتَ دائمًا في مزاجٍ سيء! متى كانت آخرَ مرَّة لمستَ فيها جسدي؟ متى؟"

"قلت لكِ أنا في مزاجٍ سيء الآن!"

تنهَّدت بعمق، لم تكن تتذكَّر آخر مرَّة ناداها فيها بكلمة حبيبتي أو حُلوتي كما اعتادَ أن يفعل، أصبح يُناديها باسمِها.

"هل تعتقد أنَّكَ أفضلُ منِّي؟"

تذكَّر (دوميساني) كم اعتاد أن يُثار بفعل غضبها، كان ليجذبَها ويُضاجعَها فورًا في أي مكان، أمَّا الآن فهو يرغب في حملها

وإلقائها عبر النافذة كما فعل خالُه به؛ شكٌّ أنه سيقدر على فعل ذلك كونها اكتسبَت وزنًا زائدًا بتناوُلها الكرواسون والشيكولاتة والكعك في الصَّباح، وتناول الرَّقائق على مدار اليوم.

"ليس لدي وقتٌ لهذا!"

بحث عن مفاتيح سيَّارته على المكتب، بينما سمعَا صوت الرضيع (شانتي) يبكي من غرفتها، كان مولده محاولةً بائسة لإنقاذ زواجِهما.

"عليّ الذهاب!"

وقف (دوميساني) في مواجهته عند الباب، صفعَتهُ (نوموندي) على وجهِهِ بقوَّة. جذبَها (دوميساني) بقوة وألصَق رأسَها بالحائط.

"اضربني إذًا يا دوميساني! سأتَّصل بالشرطة لترحيلِك على الفور!"

أرخى (دوميساني) قبضتَه ثمَّ غادر المنزل وفي إذنه يرنُّ تهديد (نوموندي) وبكاء (شانتي). كان مُمتنًا أنَّ الأطفال الآخرين في المدرسة الدَّاخلية بعيدًا عن تلك الشجارات بينَه وبينَ زوجتِه. ركب سيَّارته البورش وانطلق عبر شوارع (ساندتون) نحو ملهى (مايسترو) مكانه المفضل للتَّدخين ومقابلةِ الفتيات، العديد من النَّادلات تحاوِلنَ إغواءَه من الحين للآخر إلَّا أنَّه صعبُ الإغواء. أصبح مألوفًا بالنِّسبةِ لهنَّ، كانَت أغلبُهنّ من الزيمبابويات الباحثات عن حياةٍ جديدة، جميعُهنَّ ينظُرن له بشغف ويرونَه قصَّة نجاح رائعةً، كما أحبَبن تقديم المشروبات له كونه يمنح البقشيش بسخاء.

بخلاف كُلِّ ذلك كان (دوميساني) حريصًا على مُساعدة العاملين بالملهى، لقد ساعد اثنين من الشباب في تحمُّل تكاليف الدِّراسة هنا، وتمنَّى لو يستطيع تقديمَ المزيد من المُساعدة، كان يُؤمن أن هذا استثمارٌ في مُستقبل هؤلاء الشباب الواعد، فهو يعرف جيدًا أنَّ حياتَه الحاليَّة لم تكن لتكون لولا مُساعدة (سولومان كاوفمان) واستثماره في مهاراته.

لقد حصل منذ عدة سنوات على راتب بسيط في شركة الاستثمار الخاصة بكاوفمان، وسرعان ما اكتشفَ مهارتَه التِّلقائيَّة في إتمام الصَّفقات والمُضاربة، كان العمل يمنحه نشوةً أشبَه بالجنس. في غُضون أشهر أصبح من أشهر المُضاربين في مجال الاستثمار، وظهر اسمه في الصُّحفِ الماليَّة الشَّهيرة مثل (فايننشال ميل) و(فايننشال تايمز)؛ لم يذكر أحدٌ أصولَه الزيمبابوية؛ هذا لأنَّه على مدار رحلته تلك استطاع شراء هوية جنوب إفريقية.

هو الآن المدير التَّنفيذي لشركة (فوكاني) للتَّأمين كما أنَّه واحدٌ من أصحاب الأسهم، كما يعمل مع العديد من الشركات الأخرى. كان العمل بمثابة المُخدِّر الضّروري لتهدئَته بعيدًا عن علاقته بزوجته، كلَّما ابتعد عنها كلَّما شعر براحة البال. لقد اقترح عليها مؤخرًا إتمامَ الطلاق بينهما إلَّا أنَّها هدَّدته بفضح حقيقته. تنهَّد (دوميساني) وطلب مشروبًا ثانيًا، فكَّر كيف أصبح زواجُه أكبرَ أسباب تعاستِه.

لفت انتباهَهُ صوت صياح قادمٌ من الطَّاولة المُجاورة، كان النادل يَصيح بفتاة شابَّة كي تدفَع حسابها، بدت غير واعية وهي تُوضِّح له أنَّها لا تمتلكُ النُّقود للدَّفع. قرَّر (دوميساني) دفع

حسابها الذي يساوي أربعمئة راند، لذا قرَّرت هي الانضمام له على طاولته، كانت تستطيع المَشي بالكاد وهي تترنَّح من أثر الخمر. تعرّف عليها سريعًا.

"شيناي!"

لم تتعرَّف هي عليه لكنَّها ابتسمَت وغمغمَت:

"شُكرًا لكَ أنَّكَ دفعتَ حسابي!"

"لا مشكلة.. اجلسي يا شيناي!"

ألقَت بنفسها على المقعد المُجاور له، كشف فُستانها القصير عن ملابسِها التَّحتية ولم تبالي هي لشدِّ الفستان لإخفائها.

"أنا دوميساني.. صديقٌ قديمٌ لأخيكِ! لا أعرف إن كنتِ تتذكَّرينَنِي!"

"أنتَ صديقٌ لشاموو؟"

"نعم، لقد كان صديقًا مُخلصًا لي.. لترقُدْ روحُه بسلام".

"إنّه يأتي لزيارتي أحيانًا هو وأبي.."

ردَّت عليه بنظرةٍ خاويةٍ، أدركَ (دوميساني) أنَّها تحتَ تأثير الكُحول.

"كيف حالُ عرض الأزياء؟"

"لا أحدَ يستعينُ بالعارضات السَّوداوَات الآن"

"وماذا عن حبيبِكِ؟ هذا الرَّجلُ الذي جاء معكِ إلى جنازة شامو؟"

"تقصدُ خطيبي! لقد عقدنَا خِطبتَنا!"

لم يكن (دوميساني) مُصدِّقًا لأيّ كلمة تَنطقُ بها.

"هل ترغبين أن أصطحبَكِ إلى المنزل؟ من الأفضل أن أُعطيكِ أجرة السَّيَّارة".

"شُكرًا لكَ.. شُكرًا لكَ".

أخرج (دوميساني) ورقةً بمئة راند ثمَّ طلبَ رقم هاتفها الذي أعطَته له دون تردُّد. تعثَّرت (شيناي) أثناء خروجِها من المَلهى، بينما وقف النَّادل مُحدِّقًا في المشهد ثمَّ قال لدوميساني:

"دائمًا ما تأتي إلى هنا لتسكرَ وتُقابل الرجال".

عقد (دوميساني) عزمَه على الاتِّصال بها في اليوم التَّالي للاطمئنان عليها، كان (شامونوروا) ليرغبَ بذلك.

33

عادَت (شيناي) إلى المنزل مع شُروق الشمس، بحثَت في حقيبتِها عن مفاتيح الشقَّة قبل أن يفتح لها (أنطونيو) الباب، اصطدمَت بطاولة القهوة في مدخل الشقَّة لتتعثَّر وتقع أرضًا. تفحَّصها (أنطونيو) بنظرة حزن:

"أنتِ تتعاطَين مُجدَّدًا، أليس كذلك؟"

غمغمَت بكلماتٍ غير مفهومة، هزّ (أنطونيو) رأسه وعاد إلى غرفة النوم، وبحلول مُنتصَف الظهيرة أحسَّ بها وهي تحاول احتضانه في الفراش.

"أنطونيو!"

"إمممم.."

"هل أنتَ مُستيقظ؟"

"نعم!"

"أنا آسفة".

التفتَ ليواجِهَها ثمَّ احتضنَ وجهَها بكلتا يديه.

"أنتِ تتعاطَين مُجدّدًا، أليس كذلك؟"

لم تتمكَّن من النّظر بعيدًا عن عينَيه لذا نظرت لأسفلَ في خزيٍ، تساقطَت دُموعُها لتُعانق روحَها التَّعيسة.

"أنا حزينةٌ دائمًا، أُفكِّر في أخي!"

"لقد مرَّت خمس سنوات يا شيناي!"

كان يعرف أنَّ هذه هي بطاقتُها الرَّابحة لتبرير تصرُّفاتِها، لكنَّه آمنَ بأنَّها استنزفَتها تمامًا.

"أرجوكَ سامحني يا طوني".

"أنا أُسامحُك يا عزيزتي.. دائمًا ما أُسامحُك.. لكن لا أستطيع المُواصلة في علاقتِنا".

أبعد يديه عن وجهِها ثمَّ نهض جالسًا على حافة الفراش، تبعَته (شيناي).

"لقد حصَلتُ على عملٍ في إيطاليا، وحصَلتُ أيضًا على التَّصاريح اللَّازمة للسَّفر.. أعتقدُ أنَّني سأُجرّب حظّي هُناك".

"ستترُكِني إذًا؟ بهذه البساطة ستحزمُ حقائبَكَ وتُغادر؟!"

أومَأ (أنطونيو) قائلًا:

"لا أستطيع المُواصلة في علاقتنا أكثر من ذلك، لقد حاولتُ! وأنتِ يا شيناي دخلتِ المَصحَّة أكثر من مرَّةٍ دُون فائدة".

بكَت بُكاءً تعيسًا قادمًا من أعماقِها، عرِف (أنطونيو) أنَّه لو اقترب منها في مُحاولةٍ لتهدئتَها فقد يضعُف أمامَ حالتها، لذا اختار الوقوف بعيدًا.

"لقد دفعتُ إيجار الشقَّة حتَّى نهاية العامِ، كي تتمكَّني من العيش هنا، بعدها عليكِ تولّي زمام حياتِكِ".

"أرجوكَ يا أنطونيو.. أعدُكَ أنَّني سأتوقَّف عن التَّعاطي! أرجوكَ لا تترُكِني".

"سأنتقلُ للعيش في فندق حتَّى أُسافر.. عليكِ التَّحكُّم بحياتك من الآن".

نهض (أنطونيو) ودخل الحمَّام هربًا من بكائها الذي استمرّ إلى أن نامَت من الإرهاق. عندما استيقظت (شيناي) كانت عيناها مُتورِّمتَين وقلبُها مُثقلٌ وروحُها تعيسةٌ، نظرت إلى الجانب الآخر من الفراش حيث ينام (أنطونيو) لتجدَه فارغًا. نهضَت وتفحَّصَت خزانات الملابس لتجدَها فارغة، لقد غادر هذه المرّة دون رجعة. بدأت تبكِي مُجدَّدًا حتَّى قرَّرت أن تذهب لزيارة والدتِها، لقد مرَّت عدة أشهر لم تقابل فيها (سيبونجيل).

عندما وصلت إلى المنزل كانت (سيبونجيل) تُعلّق بعض الملابس لتجفَّ، بدَت أكثرَ نحافة وتقدمًا في العمر.

"لماذا لا تتناولين العشاء مع رجلكِ الأبيض هذا؟"

"لقد غادرَ أنطونيو، وجد عملًا في إيطاليا!"

"ماذا عن حفل الزّفاف؟ متى ستتزوَّجان؟"

"ربما سنتزوَّج في إيطاليا!"

توقفت (سيبونجيل) عن تعليق الملابس ونظرت لابنتها بحماس، لم تقدر (شيناي) على إخبار أمِّها بعلاقتِها الفاشلة بل وحياتِها التي فشلت في إنقاذها.

"انتظري حتَّى أُخبر الجميع بأنّ ابنتي ستتزوَّج في إيطاليا! ستكونينَ حديث الحيّ!".

صفَّقَت يديها بحماس.

"بالطبع سأحضر إلى إيطاليا، أليس كذلك؟"

"اهدئي يا أمِّي.. لن نتزوَّج غدًا!"

واصلت (سيبونجيل) تعليق الملابس وهي تقول:

"منذ أن مات شامو ولا شيء يجعلُني مُتحمِّسة.. أعتقد أنَّ الرب يعاقبُني لأنّني تركتُكما في الماضي".

ارتعشت (سيبونجيل) وبكت حتَّى جثَت على رُكبتَيها، احتضنَتهَا (شيناي) من الخلف في محاولة لمُواساتها وهي تُقاوم دُموعَها. نهضَت (سيبونجيل) وعلّقت الفستان الأخير دون أن تنطقَ بكلمة، ثمَّ دعت (شيناي) لتناول العشاء معها.

"تحتاجين لتناول الطَّعام جيدًا!"

"أنا لستُ جائعة".

"إنَّها وظيفتُك تلك التي تُجبرُك على عدم الأكل".

"ليس لي شهيَّةٌ الآن يا أمي".

"تبدين مُتعبة، هل تنامينَ جيِّدًا؟"

"وكيف أنام وشامو يزورُني كلَّ ليلة في أحلامي، كلَّ ليلة يزورني وهو في صُورتِه المُحترقة يا ماما".

صمتَت (سيبونجيل) للحظات ثمَّ ردَّت:

"لقد ماتَ مِيتةً مُريعة، لا أعرف إن كانت روحُه سترقد في سلام أم لا! عليكِ بالصَّلاة يا شيناي، لقد بدأتُ أنا بالصّلاة للرَّب على أمل أن يغفرَ لي خطيئَتي".

منذ وفاة (شامونوروا) واظبَت (سيبونجيل) على الذَّهاب إلى الكنيسة في (راندبرج) والتي يقودُها واعظ نيجيريٌّ مع زوجتِه.

"دماء المسيح ستُحرّرُك، عليكِ تطهيرُ رُوحكِ من الخطايا".

أجابَتها (شيناي) باقتضاب:

"ليس لديَّ أيّ خطايا!"

قرَّرت أن تُغادر منزل والدتها قبل أن تُواصل إلقاء الموعظة، سلَّمت عليها في عُجالة، وبينما هي في سيَّارة الأجرة وصلتها رسالة على هاتفها من البنك تُفيد بأنَّها قد استقبلَت عشرة آلاف راند على حسابها، ابتسمت ابتسامةً عريضةً وفكَّرت كم ترغب في قضاء ما تبقّى من اليوم وهي تتجرَّع الخمر، قرَّرت الاتِّصال بصديقاتها، لكنّ رنين الهاتف سبقَها.

"مرحبًا! شيناي؟ أنا دوميساني.. دوميساني خومالو، صديقُ شامونوروا".

"نعم نعم، أتذكَّرُكَ! لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ!"

بدا عليه الانزعاج إلَّا أنَّه قال:

"لقد أرسلت لكِ بعض النقود، أردت فقط التَّأكُّد من وصولها".

"نعم، شكرًا جزيلًا لك.. لقد أردتُ الاتصال بكَ لشكرك لكن اكتشفت أنَّني لا أملكُ رقمَك".

"اعتني بنفسِكِ يا شيناي!"

أنهى (دوميساني) المُكالمة ثمَّ سجّلت (شيناي) رقمَه على هاتفها، قرَّرت أنَّه سيكون سندًا لها في وقتٍ ما. قرَّرت الذهاب إلى الحانة في (ساندتون)، جلست على البار وحيدةً حتَّى انضمّ لها رجلٌ يرتدي سُترةً رسميَّةً، حيَّاها بلُغة الشونا لتُدرك (شيناي) على الفور من أينَ جاء.

"لقد تتبَّعتُكِ لفترة طويلة، راقبتُ كلَّ تحرُّكاتِكِ".

همَّت (شيناي) بالمُغادرة إلَّا أنَّه ضرب الطَّاولة بقبضتِه.

"من الأفضل لكِ الجُلوس والاستماع لما سأقول".

تنهَّدت (شيناي) بحنقٍ:

"أنا مُنصتة".

كشف لها عن شارته المكتوب عليها.. قسمُ التّحقيق الجنائي، الشُرطي جومو.. ثمَّ أكمل:

"بعض الجرائم لا تندثرُ أبدًا.. لقد مات والدُكِ في ظروف غامضة، أليس كذلك؟"

أومأت (شيناي) في صمت.

"الحقيقة أنَّه قد مات بفعلِ فاعلٍ يا سيِّدتي.. أعتقد أنَّكِ تعرفين ذلك جيِّدًا".

حافظت (شيناي) على صمتها، لم يعد الكُحول مُؤثِّرًا؛ كانت في حاجة لمُخُدِّرٍ أقوى بكثير.

"يُمكنُني أن أجعلَ هذه الجريمة تختفي، كُلُّ ما علينا فعلُه هو عقدُ صَفقة".

"وكيف يُمكنني الوُثوق بكَ؟"

ضحكَ قائلًا:

"هل تعتقدين أنَّني مررتُ بكلِّ هذه الصِّعاب للوصول إليكِ لمُجرَّد القبض عليكِ؟ أعتقدُ أنَّكِ لن تواصلي عرض الأزياء وأنتِ في السّجن.. ما رأيكِ إذًا في عشرة آلاف راند مُقابل حُرِّيَّتكِ؟"

ارتعشَت (شيناي):

"ليس لدي هذا القدر من المال".

"اعثُري عليه إذًا!"

ردَّ الشُرطيُّ بابتسامة قذرةٍ على وجهِه ثمَّ أكمل:

"لن تصمُدي شهرًا واحدًا في السِّجن المُشدد".

دوّن رقم هاتفه على ظهر بطاقته الشَّخصيَّة وتركَها أمامَ (شيناي).

"اتَّصلي بي عندما تُحضرِين النُّقود، لديكِ مُهلة حتَّى يوم الجمعة من الأُسبوع القادم".

عادَت (شيناي) إلى المنزل وهي تُعاني من صُداعٍ نابضٍ، أمسكَت بهاتفها واتَّصلت بواحدٍ من تُجّار المُخدرات الذين تتعامَلُ معهم، كان نيجيريًا يُدعى (كايين) ودائمًا ما اعتمَدت على الكوكايين الخاص به، لقد تعرَّفت عليه في حفلٍ ما في (ساندتون) منذ عامٍ تقريبًا.

"كايين! هذا أنتَ؟ أرغبُ في بعض الكوكايين".

"هل لديكِ الثّمن؟"

"بالطبع لدي الثَّمن! لماذا سأتصل بكَ لو لم يكن معي ثمنُه؟"

جاء ردُّها غاضبًا لكنَّها بعدما أغلقت الهاتف أحسّت بالسعادة في انتظار وصول مُخدِّرها، كانت تعرف أنَّه سينقلُها إلى عالمٍ آخر تشعُر فيه بالخِفَّة ويتحسَّن مزاجُها. قطعت الشقَّة ذهابًا وإيابًا حتَّى وصل (كايين)، جذبت الكيس الصَّغير من يده بينما تفحَّص

هو الشقَّة الخاوية، لقد باعت (شيناي) كل مُحتوياتِها كي تتمكَّن من تعاطي المُخدِّرات.

هزّ (كايين) رأسه باشمئزاز، كان يكره المُدمنين وهيئتَهم، لم يكن خطأهُ أنَّها في تلكَ الحالة فهو ليس أكثر من وسيط، إن لم تحصل على المُخدِّرات من خلاله فستحصلُ عليها من شخصٍ غيره.

"أحتاج لاستعارة بعض النقود، إنّ أمِّي مريضة وتحتاج لعمليَّة جراحيَّة عاجلة!"

اتَّسعت عيناه وسألَها:

"هل ترغبين حقًّا في استعارة النُّقود منِّي؟ وكيف تنوينَ ردّها؟"

خلعت (شيناي) ملابسَها لتكشف عن جسدها العاري النحيف، كادَت ضُلوعها تظهر بوضوح من أسفل بشرتِها الجافّة، أحسَّ (كايين) كأنَّه في مُقابل جثَّة، نظر بعيدًا وقد علاه الاستياء.

"انظري، أستطيعُ مُساعدتَكِ لو أردتِ الحصول على بعض النُّقود".

فهمَت (شيناي) رفضَه لها فارتدت ملابسها سريعًا وهي تشعرُ بالحرج الشَّديد لتصرُّفها.

"ما رأيك أن تبيعِي كِليتَكِ؟ ستحصلين على أموالٍ طائلة في المُقابل!"

ردَّت مُتشكِّكة:

"هل أنتَ جادٌّ؟"

"نعم، العملية بسيطة وستخرُجين في نفس اليوم".

أوضح لها أنَّ هناك الآلاف من الأشخاص في (جنوب إفريقيا) على قائمة الانتظار لزراعة الكلى، استطاع بسهولة أن يُقنعها خاصَّةً أنَّها ستحصل في المُقابل على نصف مليون راند.

غادر (كايين) وعادت (شيناي) إلى فراشها.. بدأت بالفعل في عدِّ النُّقود داخلَ رأسِها.

34

كُلَّ أحد تقطع (نوموندي) الطَّريق نحو الجنوب بعيدًا عن الضَّواحي الشَّمالية المُرفَّهة، تسلكُ طريق (سويتو) السريـع بسيَّارتها المرسيدس بنز ثمَّ تتّجهُ إلى بلدة (أورلاندو) حيث نشأَت.

(أورلاندو) هي أقدم بلدة في (سويتو)، تم بناؤُها في الثلاثينات مع زيادة التِّعداد المَحلِّيّ للسُّكان السُّود. هُناك عمِل جدُّها في غسيل ملابس الأوروبيِّين العاملين في المَناجم، عاش في منزلٍ متواضع يتألف من غُرفتَين عند تقاطُع شارعَي (مووكي) و(ماجوي)، انتقلَت مُلكيّة المنزل إلى والدها فيما بعد والذي أجرى عليه بعض التَّعديلات نظرًا لخبرتِه في العمل بالمناجم مُضيفًا إليه غُرفتَين جديدَتَين.

وُلدِت (نوموندي) عام ١٩٨٠ في مشفى (كريس هاني باراجوانث)، كان قد مرَّ أربع سنوات على أحداث ثورة (سويتو) وفيما بعد خُلِّدت ذكرياتها في مُتحف (هيكتور بييترسن)؛ لم يسبق وزارت (نوموندي) المُتحف على الرَّغم من قُربه من منزلها، كانت أول مرة عندما حضر والدَي (دوميساني) للزِّيارة وذهبوا كجمعٍ من السّائحين لزيارته. بعدها ذهبوا لزيارة شارع (فيلاكازي) والذي خرج منه اثنان من الحاصلِين على جائزة (نوبل) وهما الأسقف (ديزموند توتو) والرَّاحل (نيلسون مانديلا). كان المَعلَم الأكثر جذبًا هو منزل عائلة (مانديلا) حيث عاش فيه الرَّئيس وزوجتُه الأولى (إيفيلن ميز) وفيما بعد زوجته الثانية (ويني مانديلا)؛ تحوَّل المنزل إلى مُتحف مفتوح للتجول فيه ومُحاولة مُعايشة

الأجواء كما عاشها آل (مانديلا).

انطلقت (نوموندي) نحو منزل والدتِها كما اعتادَت أن تفعل كلَّ يوم أحد، كانت أمُّها واقفة بالفعل في انتظارها.

"هيا يا نوموندي وإلا تأخَّرنا!"

كانت والدتها في غاية أناقتها كالعادة، لقد تقاعدت أخيرًا من عملها في تنظيف المنازل في الضواحي الشماليَّة، وقرَّرت أن تُعامل نفسَها كملكة جمال. والدتها هي (يونديلا) أو كما يُطلقون عليها في الحيّ (الأخت يوندي)، ارتدَت سُترةً ورديّة أنيقةً أعطَتها لها (نوموندي) مع ملابس أخرى كثيرة لم تعد تُناسبُها.

"يا ماما، أعتقد أنَّني سأستطيع ارتداء هذه السُّترة مُجدَّدًا لو خسرتُ بعض الوزن".

"اِخسريه أوَّلًا ثمَّ نُفكِّر بالأمر.. أنتِ لا تعتنين بنفسكِ!"

"أنا أُحاول خسارة الوزن يا ماما!"

ركبت (يوندي) السَّيَّارة البينز ووضعت رجلًا فوق الأخرى، انطلقا في طريقهما نحو الكنيسة والتي أصبح ذهابُها كلَّ أحد بمثابة العادة التي أرادَت (نوموندي) الحفاظَ عليها.

"لماذا لم تنضمّ لنا سنووي؟"

"سنووي نائمةٌ، لقد عادت مع طلوع الفجر!"

"يا ماما! كيف تدعينها تسهر حتَّى هذا الوقت؟"

حرّكت (يوندي) يديها باستسلام:

"لقد فقدتُ التَّحكُّم في ابنتكِ هذه!"

(سنووي) هي ابنة (نوموندي) الأولى والتي أنجبَتها عندما كانت في الخامسة عشر، لم تكن تُفصح عن وجودها بل حتَّى (دوميساني) لا يعرف عنها.

"سأتحدّث معها عندما نعودُ من الكنيسة".

"إنّه خطأك عمومًا، أنتِ من تعطينَها النُّقود الكثيرة".

هزّت (نوموندي) كتفَيها، كانت تفعل ذلك لإراحة ضميرِها وعدم الشعور بالذنب تجاه ابنتها التي لا تعيش معها. أوقفَت السَّيَّارة في مُنتصَف الطريق؛ لشراء حلوى الأماجوينيا المقلية، علّقت والدتُها:

"لهذا السَّبب لا تخسرين الوزن!"

تجاهلتها (نوموندي) ثمَّ تابعَتَا طريقَهما إلى كنيسة (ريجينا موندي الكاثوليكية) في (روكفيل)، غفَت (نوموندي) أكثر من مرَّة خلال العظة التي استمرَّت قرابة الساعتين، حتَّى أيقظها صوتُ والدتها وهي تُغنِّي مع الجمع في الكنيسة. انتهت العِظةُ وقضيَا ساعة تقريبًا يتحدَّثنَ مع صديقات والدتها اللَّاتي سألنها عن (دوميساني).

"لا بدَّ وأن تحضريه معكِ إلى الكنيسة الأسبوع القادم!"

"إنَّه فقط عنيدٌ يا أمي".

"لا أعرف ماذا فعلتِ لهذا الرجل، لقد اعتاد تناول الطعام من يدكِ فقط".

"ماما.. أليس من المُمكن أن يكون هو من تغيّر؟"

هزّت (يوندي) رأسها مُعترضةً وأكملَت:

"هذا الرجل يُعاملُكِ جيدًا، عليكِ أنتِ أيضًا مُعاملتَه بالحسنى".

"يكفي هذا يا ماما!"

لقد ضجرت (نوموندي) من هذا الافتراض السَّخيف، فاض بها من سوء مُعاملة (دوميساني) لها.

"ماذا ستفعلين إذًا؟ ستترُكينَه؟ لا طلاق بالنِّسبة لنا، نحن كاثوليك!"

عبست (نوموندي)، كان لديها خطَّة بالفعل لإنهاء معاناتها. عادَت هي ووالدتُها للسَّيارة وانطلقَا في طريقهما، سرعان ما عاودت (يوندي) لأسئلتِها:

"هل تُفكِّرين بالعيش هنا مُجددًا؟"

"مُستحيل! مهما حدث سأحتفظُ أنا بالمنزل".

"اسمعي يا نوموندي.. بعضُ هذه الطلاقات تنتهي ولا تحصل الزَّوجة على قرشٍ واحد من الرجل!"

"لا تقلقي يا أمي.. هذا لن يحدُثَ".

كان (دوميساني) قد ظفر برضاء ومحبَّة والدتها بعدما غطَّى تكاليف إصلاح وتجديد منزلها في شارع (موكي(.

بوصولهم إلى المنزل كانت (سنووي) تعدُّ مائدة غداء يوم الأحد التي تزينها أفخر الأطباق وأدوات المائدة من خزانة جدَّتها، كان غداء الأحدِ تقليدًا مُقدَّسًا في منزل عائلة (زوندي) حيث تنضمُّ لهم أخت (نوموندي) الكُبرى وأبناؤها الثلاثة، أختُها هي

(نانديفا) التي لم يسبق لها العمل يومًا في حياتها، كانت مُعتمدة على المعونة الاجتماعية المُخصَّصة لكلّ واحدٍ من أطفالِها الثلاثة بالإضافة إلى النُّقود التي تحصلُ عليها أحيانًا من والد كُلٍّ منهم. أخوهم الأكبر يُدعى (مونتي) وهو يعيش في الغُرفة الخلفيَّة بالمنزل، لقد خرج من السجن وهو في الأربعين من عمره بعدما قضى حُكمًا لمدة عشرة أعوامٍ، بسبب خنقِه لرجلٍ أثناء مشاجرةٍ بالحانة، كانت (يوندي) مسؤولة عن تربية طفلَيه الذين هجرَتهُم أمَّهاتُهم بعد الحُكم عليه. تنضمُّ لهم على المائدة (شوليزا) ابنةُ أخ (يوندي) والتي تخرَّجت من الجامعة وتبحث الآن عن عمل في (جوهانسبرج).

"هل ترغبين في شخص يُساعدك في تربية الأطفال يا نوموندي؟ يُمكن لشوليزا المُساعدة؟"

ردَّت (نوموندي):

"إن شوليزا خرّيجة جامعة يا ماما، سأسأل دوميساني إن كان لديه فرصة عمل مُتاحة في الشركة".

تدخَّل (مونتي) قائلًا:

"أنا واثق أن دوميساني سيخلُق لها عملًا ما، وهو ما لم يستطع فعله من أجلي!"

"ومن سيرغب في توظيفكَ بعدما قضيت عشر سنوات في السجن؟"

ابتسم (مونتي) ابتسامةً ساخرةً، بينما اقترحت (يوندي):

"يُمكنها بدء العمل في الاستقبال مثلًا.."

تنهدَّت (نوموندي) وقد نفذَ صبرُها:

"أرسلي لي سيرتك الذاتية يا شوليزا وسأرى ما يُمكنني فعله".

قاطعتهم (سنووي):

"لا تنسي أن تترُكي لي النُّقود لدفع إيجار الإقامة في حرمِ الجامعة!"

"أنا لا أفهم لماذا لا تقيمين هنا بالمنزل وتذهبين للجامعة كل يوم؟"

"سيعُطّلني ذلكَ عن دراستي!"

"تقصدين سيعطّلكِ عن الاحتفال طوال اللّيل! لقد أخبرَتني ماما بأنَّكِ تعودين وقت الفجر!"

"وماذا في ذلك! سأدرُس الحقوق، أعتقد أنني أستحقُّ الاحتفال من الحين للآخر!"

أخذت (سنووي) طبقها وخرجت غاضبة نحو المطبخ، بينما حرَّكت (نوموندي) طبقَها جانبًا.

"عليّ الذهاب.."

كان عبء المسئوليات يحرمها من مُتعة التجمُّع العائلي، دائمًا ما يطلبون منها النُّقود.

"هل يمكنني التَّحدث معكِ أولًا؟"

سألها (مونتي) بينما يهمُّ بمغادرة المائدة.

"وماذا تريدُ أنتَ أيضًا؟ مئة راند!"

تبعت أخيها إلى غرفته حيث أشعل سيجارة على الفور ثمَّ واحدة أخرى لأخته.

"لقد عثرتُ على شخص مُناسب لك ويُعتمد عليه".

ناولها بطاقة مكتوب عليها.. مالومي جاكسون.. ثمَّ أكمل:

"إنه في هيلبرو، لقد تحدَّثت معه.. سيحتاج إلى خمسين ألف راند؛ النِّصف مُقدمًا".

وضعت (نوموندي) البطاقة في حقيبة يدها، غادرت المنزل واتَّجهت نحو سيَّارتها وهي تُفكِّر إن كانت على صواب بمشاركة (مونتي) بما تنوي فعله.

35

اجتمعت السَّيِّدات الأنيقات لحي (ساندتون) في منزل عائلة (هيرش)، كان دور السَّيِّدة (هيرش) لاستقبال ناديهم الشهري للكُتَّاب في منزلها. تتألَّف مجموعتهم من عشر سيدات، اعتذرت اثنتان منهن ولم تحضر اثنتان دون عُذر، جميعهن متزوجات لكن السَّيِّدة (هيرش) هي الوحيدة التي تُعتبر زوجةً أولى.

اهتممنَ بمُناقشة الكتب وتبادل الحكايات عن الأبناء بينما يتناولنَ الطعام الخفيف ويحتسينَ الشامبانيا الورديَّة، عادةً ما يَقرأن كتابًا من الكُتب التي ترشِّحها (أوبرا وينفري) في برنامجها، لكن مُؤخَّرًا أقنعتهم السَّيِّدة (موليفي) بقراءة الكتب التي تُرشحها جريدة (صانداي تايمز). كانوا يجتمعون في السبت الثالث من كل شهر دون استثناءات، وهذه الظهيرة سيقُمن بمناقشة كتاب (العُقدة البيضاء) للكاتب (إيكوو دوكير).

"ما رأيكِ يا بوش في مشهد السجن؟ هل أثّر فيكِ بشكلٍ ما؟"

سألت السَّيِّدة (هيرش) موجِّهة سؤالها إلى (بورشا)، كانت تعرف أنَّها قارئة شغوفةٌ مثلُها.

"مشهد السجن.. لقد تعاطفت مع كاش للغاية، المرة الوحيدة التي شعرت فيها بضعفه وقلة حيلته".

ردَّت (بورشا) مُتحدِّثة عن مشهد في الكتاب يتعرض فيه البطل (كاش) للسجن، لقد سبق لها ودخلت الحبس ذات مرة لكن بقاءَها هناك لم يستمر إلا يومٍ واحد حيث حضر السَّيِّد (هوليساني) وأخرجَها بعدما دفع الكفالة المطلوبة.

كان عليها حضور جلسة المحكمة بعد شهر، إلَّا أنَّها لم تفعل بما أنَّه دفع أيضًا الغرامة المطلوبة وانتهت قضيتها سريعًا ومعها (فاكاما)، عادت هي لتكون (بورشا) مُجددًا ثمَّ أصبحت فيما بعد (بورشا مولودزي).

تزوجت من (هوليساني) في حفل زفاف حميميٍّ، أهداها خاتمًا لامعًا كبيرًا، بعدها تبنَّى ابنَها (نيكوسي) مُغيرًا اسمه الأخير إلى (مولودزي).

لم تعد (بورشا) أبدًا إلى مكتب (هوليساني وهيرش وهلوماني وشركائهم)، بل أصبحت الآن زوجة السَّيِّد (هوليساني) ومُديرة منزله. انتقلوا للعيش في منزل ضخم في (هوفتون)، وساعدتها السَّيِّدة (هيرش) في اختيار الديكورات والأثاث، ومع مرور الوقت عرَّفتها على صديقاتِها وأسلوب حياتهنّ، يعرفها الجميع الآن باسم السَّيِّدة (مولودزي) ولا يعرفن شيئًا عن ماضيها المرير.

"لكنَّه يستحق.. إن ارتكبتَ جريمةً عليكَ دفع الثَّمن!"

تدخلت السَّيِّدة (موليفي) ردًا على (بورشا) التي أجابتها:

"أحيانًا يتسبَّب الفقر في دفع الناس لأفعال لا يتصوَّرها أحد.. نحن لا نستوعب ذلكَ؛ لأنَّ لدينا كل ما نحتاج".

عمَّ الصَّمت لحظات بينما تهضم السَّيِّدتان كلمات (بورشا)، علّقت السَّيِّدة (هيرش):

"تعليقٌ في محلّه يا بوش".

"بالطَّبع.. هذا شيءٌ لا يستوعبه الكثير من البيض".

كانت هذه السَّيِّدة (خومالو)؛ تابعَت (نوموندي) شرح مقصد ها :

"لقد نشأتُ في حيٍّ فقير في سويتو، كُنَّا عشرة أشخاص ننامُ على الأرض بالمطبخ.. لذا أفهم جيدًا مُعاناة الشَّخصيَّة!"

"لكن أعتقدُ أنَّ المسألة لا تختلف كثيرًا بين البيض والسُّود".

تدخَّلَت السَّيِّدة (فان توندر)، كان زوجُها (داني) يلعب الجولف مع السَّيِّد (هيرش)، وهكذا أصبحت صديقة للسَّيِّدة (هيرش) وعضوة في نادي الكُتَّاب هذا. لم تهتمَّ (نوموندي) لما تظنُّه (فان توندر)، كانت تحضر هذه اللقاءاتِ لا من أجل القراءة بل من أجل الجانبِ الاجتماعي والنِّقاشات البنّاءة. نادت (نوموندي) على (سيبونجيل) لتُحضِّر المزيد من النّبيذ أما (بورشا) فقررت المغادرة، تفحَّصت السَّيِّدة (موليفي) ساعتها ثمَّ نظرَت إلى (بورشا):

"لماذا العجلة؟"

"عليّ إعداد العشاء من أجل السَّيِّد المُحامي.. إنَّه يرفض تناول الطعام ما لم أُعدَّه بنفسي".

ردَّت (موليفي):

"جرّبي عدم الطبخ وسيتضوَّر جوعًا".

ضحكت (بورشا) وودَّعت الجميع. بوصولها إلى بوابة منزلها كان موعد تبديل الوردية لرجال الحراسة، عادةً لم تكن تُعير انتباهًا لهم، إلَّا أنَّها لاحظت حارسًا جديدًا، كان زوجَها الأسبق ووالد (نيكوسي).

اختلست نظرة لاسمه المُعلق على زيه الرسمي.. (فوساني سيبدانا).. خفق قلبها سريعًا وخافَت أن يتعرَّف عليها. لن يتخيَّل

(فوساني) أبدًا أنَّها هي التي تقود تلك السَّيَّارة أو تعيش في ذلك المنزل، لكن ماذا لو قرَّر ابنُهما قيادة الدَّرَّاجة أمام البوابة؟ ماذا لو استطاع (فوساني) التَّعرُّف عليه؟ نادَت على (نيكوسي) فور دخولها المنزل لتُخبرها الخادمة بأنَّه يلعب عند حمام السباحة، هرعَت إلى هناك لتتأكَّد، وجدته يلعب مع إخوته الأكبر (فوغاني) و(ماخدو) أما (هوليساني) فكان نائمًا وقد غطى وجهه بالجريدة.

عندما تزوجت من السَّيِّد (هوليساني) أصبحت أمًّا لولدَيه، أصبحوا عائلة واحدة كبيرة والآن هي لا ترغب في أن يتسبَّب (فوساني) في إفساد حياتِها تلك. أمسكت هاتفَها واتَّصلت بشركة الحراسة.

"أهلًا.. لديَّ طلب ضروري.. واحد من رجال الحراسة اسمه فوساني، إنَّه وقح بعض الشيء لذا يجب استبدالُه فورًا.. لا لا، لا داعي لعمل شكوى رسمية.. فقط استبدلُوه في أقرب فرصة وإلا فسخنا التَّعاقُد معكم.. مع السلامة".

أغلقَت الهاتف وتنهَّدت بعُمق، وبعد ساعات حضر (هوليساني) إلى المطبخ حيث أغرَته الروائحُ الشَّهيَّة.

"لم أعلم أنَّكِ عُدتِ!"

"لقد كنتَ نائمًا ولم أرغب في إزعاجك".

"كيف كان نادي الكُتَّاب؟ هل كانَت النَّميمة مُمتعة؟"

"بالطبع! هذا ما نفعلُه!"

قبَّلها وأخبرها أنَّه سيذهب إلى الاستحمام قبل تناول العشاء، كل سبت يتناولون العشاء في باحة المنزل حيث تُقدِّم (بورشا)

الطعام في الأطباق الخزفية، تشكرُ الرَّب على الطعام وعلى الأطفال وعلى زوجِها المُحبّ، بينما يشد (هوليساني) على يدها أثناء تلاوتها الصلوات. بعد العشاء يُذكرها أن عليهما الذهاب إلى الفراش من أجل الراحة، يصعدان إلى غرفتهما العلوية ويُمارسان الحُبَّ بشغف، تمامًا كما يروق لهوليساني. يغرقان في النوم وتشعر (بورشا) بالسَّعادة الغامرة، كانت هذه حياتها الآن.. حياة لا تستطيع التّخلِي عنها.

36

جلس (دوميساني) على رأس الطاولة الخشبية في صحبة تسعة رجال بسُترات أنيقة، جميعهم يتبادلون النَّظرات بابتسامات باهتة، كان في صحبتهم امرأتان واحدة منهما مُنهمكةٌ في النَّقر على لوحها الذَّكيّ أمَّا الثانية فكانت تُحدِّق في (دوميساني) باهتمام.. تعجَّب لو أنَّ المسيح قد راودَته مشاعرٌ مُشابهة في عشائه الأخير. تحدَّثت المرأة الثانية بنبرة قيادية:

"لقد قرر مجلس الإدارة بشكل جماعي إقالَتك الفورية من منصبك كمدير تنفيذيٍّ.. كما أنَّنا نرغب في شُكركِ على مجهوداتِك خلال السَّنوات التي عملتِ بها هنا.. ونتمنَّى لكِ حظًّا سعيدًا في.."

نهض (دوميساني) فجأة وقاطعها:

"أرجوكم لا تتسرعوا.. أستطيع إخراجَنا من هذا المأزق!"

جال بنظراته في الغرفة مُحاولًا إقناع الحاضرين الذين اعتبرَهم أصدقاءَه يومًا ما، لقد أغمروه بالتهاني والعناق عندما تولَّى هذه المنصب منذ خمس سنوات.

"لقد صنعتُ البلايين لهذه الشركة.. البلايين!"

"كما تسبَّبت في خسارتِنا البلايين!"

ذكّرته المرأة بموقفه، كانت (كريستن فايرجارد) هي رئيسة مجلس الإدارة أما المرأة الثَّانية فهي مُساعدتُها الشخصيَّة.. تابعت (كريستن):

"سأتولى أنا منصب المدير التنفيذي بشكل مؤقَّتٍ لحين العثور على شخصٍ مُناسبٍ".

أمرت (كريستن) رجال الأمن باصطحابه للخارج لكن (دوميساني) دفعهم بعيدًا؛ هل يُعاملونَه كمجرم أم ماذا؟ خرج إلى مكتبه ليجدَ مُساعدتَه الشَّخصيَّة وهي تحزمُ أغراضَه في صناديقَ وترفع الإطارات المُعلَّقة على الحائط، بالإضافة إلى الجوائز التي حصل عليها. فُتِح الباب ودخلَت (نوموندي):

"لقد كنتُ في الجوار.."

أمر مُساعدتَه بتركهما، سألته (نوموندي):

"ماذا يحدث؟ هل تغيَّر مكتبك؟"

ردَّ عليها:

"لقد استقلْتُ!"

لم يسمح له كبرياؤه بمشاركتِها الحقيقة.. أخبرها أن هناك مشكلة مع أحد المُضاربين تسبَّبت في خسارة الشَّركة، سألته (نوموندي):

"ماذا يعني هذا؟ هل سنخسرُ كلّ شيء؟"

"بالطَّبع لا، لدينا المنازل والسَّيَّارات كما سأحصل على مكافآة نهاية الخدمة.. لكنَّنا لن نتمكَّن من.."

وهن صوته فجأة وباغتَته الدُّموع، اقتربَت منه (نوموندي) واحتضنَته:

"لا تقلق!"

أراح رأسه على كتفها وأحسَّ بالارتياح، شعر لأول مرة منذ زمن بقلَّة الحيلة والضَّعف، هذا الإحساس الذي لم يشعر به منذ قابل (نوموندي) لأول مرة في المشفى. قاطعَتهم مُساعدة (دوميساني) والتي فهم من نظرتها أنَّ عليه مُغادرة المكتب عاجلًا؛ ساعدته

(نوموندي) في جمعِ ما تبقى من أغراضه ورافقَته خارج المبنى، لم يتوقف لوداع زملائه المُضاربين في غرفة المُضاربة، وأحسَّ وهو في المصعد بشعور الفشل يحاوطه.

بمجرَّد عودتهما إلى المنزل أخبرها أنَّه يرغب بالاستلقاء قليلًا، تركَته (نوموندي) وذهبت لإجراء اتِّصال في الحديقة مُتجاهلةً نظرات البُستاني الشَّاخصة، وبعد ساعات عادت إلى (دوميساني) ببعض الطعام لتجدَه يتحدَّث على الهاتف؛ كان مبتسمًا وظهرت عليه الحماسة غير المُبرَّرة.

"لقد كنت أتحدَّث مع هوليساني".

لقد ساعده (هوليساني) في الماضي عدَّة مرَّات في بعض النزاعات القضائيَّة بالشركة، كما أنَّهما أصبحا أصدقاءَ مع مرور الوقت.

"وماذا قال لكَ؟"

"إنَّه يعتقد أن عليَّ مقاضاتهم، اللَّعنة على كريستن وفريقِها.. لقد بنيت هذه الشَّركة بنفسي!"

بدت (نوموندي) مُتحيِّرة وهي تسأله:

"هل يعني هذا الخوض في قضايا لعدة سنوات؟"

"ليس بالضرورة.. على الأرجح أنَّهم سيرغبُون في تجنُّب النزاعات القضائيَّة، وسيُفضِّلون تسوية المسألة خارج المحكمة".

صفَّقت (نوموندي) بحماس:

"هذه أخبار سعيدة! هل هذا يعني أنَّك قد تحصل على عملك مُجددًا؟"

"الحقيقة أنَّني أدركت أمرًا ما يا نوموندي.. أنا لا أرغبُ في عملي القديم هذا، ربما حان الوقت لبدء شيء جديد خاص بي".

37

خرج الرجل السمين من أسفل السَّيَّارة الكوانتم، كان وجهُه مُلطَّخًا بالشحم من عمله بإصلاح مُحرّك السَّيَّارة؛ ابتسمَ ابتسامةً ماكرة ثمَّ قال (جيڤمور):

"لقد أصلحتُها!"

إنَّه الآن المسؤول عن ورشة (جاك) لإصلاح السَّيَّارات وقطع الغيار، لقد انضمَّ لفريق العمل بالورشة منذ سنواتٍ، وفي مرحلةٍ ما اشترى حصة المالك (مالومي جاكسون)، وواصلا العمل في المحلِّ وغيرِه من الأعمال غير المشروعةِ وحتَّى هذه اللَّحظة يناديه (جيڤمور) أحيانًا بكلمة مُدير.

"غالبًا ستتعطَّل هذه السَّيَّارة بعد مئتي كيلومترًا، لكنَّها لن تكون مشكلتي!"

ابتسم (مالومي):

"يا لك من ماكرٍ!"

"لقد تعلَّمت من الأفضل".

انفجرا بالضَّحكِ قبل أن تقاطعهُما فتاة قصيرة تحمل في يدها هاتفًا خلويًا.

"مالومي.. اتِّصالٌ من أجلكَ!"

"لقد أخبرتُكِ أنَّني مشغول لا أرغب في الرَّدِّ على أيّ مُكالمات".

كان (مالومي) جالسًا في مقعدِه، وقد عقد رجليه وتدلَّت بطنُه المُترهِّلة.

"لقد اتَّصلت هذه المرأة عشر مرات وهي مُصمِّمة على التَّحدُّث معكَ!"

أشار لها بلامبالاة:

"لا يهمُّ!"

ظنّ أنَّها واحدة من رفيقاتِه السَّابقات فهو لم يعد يتذكر عدد الأطفال الذين أنجبَهم خارج زواجِه، بل أحيانًا يشكُّ في كونهم أطفاله، ويعتقدُ أنَّ أمَّهاتهم تحاولنَ الحُصول على النُّقود منه وحسب.

"أحضري لنا القهوة والدوناتس من المخبز المُجاور".

أمر الفتاة التي أطاعته على الفور وغادرت.

كانت ورشة إصلاح السيارات ليست أكثر من واجهة لأعمال أخرى غير مشروعة، بل حتَّى (جيفمور) قد حصَّل على النُّقود التي اشترى بها الورشة خلال عمليَّة سطوٍ تعرَّض فيها لطلقٍ ناريٍّ.

لقد تسبَّب ما حدث مع (ليندا ني) في خلق فجوة بينه وبين (ميلوزي)، وقتها قرَّر التواصل مع (مالومي جاكسون) بحثًا عن عملٍ أما (ميلوزي) فلا زال يعمل بسيَّارته في عمليَّات التَّوصيل عبر الحدود.

"هذا هو الرَّجل الذي نرغبُ في قتلِه".

أخبره (مالومي جاكسون) مُشيرًا للصُورة الموضوعة أمامه على الطاولة وقد كُتبِ عليها اسم (دوميساني).

"أرغب في قتلِه لكن يتوجَّب عليك القيام بالأمر بنفسكَ، لا أستطيع أن أتحمَّل مسؤولية قتل ابن أختي بنفسي".

نظر له (جيڤمور) مُتشكّكًا وسأله:

"إذًا لماذا نقتله؟ يُمكننا ضربُه مثلًا لنلقِّنه درسًا".

"لا لا لا.. لقد ضاجع زوجتي.. وفي منزلي!"

اتَّسعت عينُيه بالغضب والكراهية وأكمل:

"أنا من أحضرته إلى جوهانسبرج، إنَّه في هذه المكانة الآن بسببي.. لكنَّه لم يُفكِر أبدًا أن يشكرني على ما فعلته من أجله!"

تناول الصُّورة من أمامه وحدّق فيه طويلًا إلى أن قاطعه (جيڤمور):

"يا له من قذر.. علينا التَّخلص منه إذًا!"

لم يستوعب كيف يمكن لأحد أن يُنكر مُساعدة (مالومي) له. عادَت الفتاة وهي تحمل القهوة والدوناتس كما طلبَ منها، أمرَها أن تتذوَّق القهوة أولًا.

"لا بد التَّأكد من أنَّها لا تحتوي سُمًّا!"

وافقه (جيڤمور) ثمَّ شربَا القهوة معًا إلى أن حضرت (نوموندي) إلى الورشة؛ كان (مالومي) قادرًا على شمِّ رائحة عطرها المُميَّز قبل أن يراها. تفحَّص وجهَها قلبيَّ الشَّكل وصدرَها المُثير، كانت ترتدي بنطالًا من الجينز الضيق، لدرجةٍ جعلَته كأنَّه مرسوم على جسدها، كانَت تسير بحذر خوفًا من التَّعثُّر بسبب حذائها ذي الكعب العالي.

"ما رأيكَ أن تردَّ على الهاتف مرة!"

كان صوتُها جافًّا ولم تهتمَّ حتَّى بإلقاء التحيَّة.

"نحن نتناول القهوة.. ما رأيكِ في الانضمام لنا؟"

"لم أحضر هنا من أجل القهوة!"

"لماذا حضرتِ إذًا؟"

"أريد إيقاف عمليَّة قتل زوجي!"

تفحَّصها جيدًا قبل أن ينفجرَ في الضَّحك وكأنَّها نطقَت بمزحة رديئة.

"لماذا؟"

"لا يهمُّ السَّبب!"

"لن تحصلي على النُّقود التي دفعتِها!"

"لا تُهمُّني النقود!"

أشاحت بيدها وغادرت. لقد صمَّم (مالومي جاكسون) على أن تدفع نصف المبلغ مُقدَّمًا، لكن (نوموندي) أدركت أن خمسة وعشرين ألف راند لا شيء في مُقابل حياة (دوميساني).

"يُمكنُك بعد قتلِه أن تضاجعَ زوجته تلكَ إن أردتَ!"

قالها (مالومي جاكسون) عندما لاحظ نظرة الرَّغبة المُتَّقدة في عيني (جيفمور)، سأله (جيفمور):

"لكن لقد قالَت زوجتُه ألَّا نقتلَه!"

"لم يعد الأمر بينَه وبينَ زوجته.. بل بينَه وبيني أنا!"

تناول القطعة الأخيرة من الدوناتس وهو يُفكِّر في كيفيَّة تدمير حياة (دوميساني) للمرَّة الأخيرة.

38

بعد ثلاثة من السيجار الكوبي ونصف زجاجة (جوني ووكر) قرَّر السَّيِّد (هوليساني) المُغادرة، لقد تقابل هو و(دوميساني) منذ عدَّة ساعات للاحتفال بنجاحِهم في التَّسوية وحصول (دوميساني) على تعويضٍ مُقابلَ طرده التعسُّفيّ، كما توقَّع (هوليساني) لم ترغب (كريستن فايرجارد) وفريقُها أن تنتقلَ القضيَّة إلى قاعة المحكمة تجنُّبًا للنَّفقات والدَّعايا السلبية.

"لا أعرف كيف أشكرُكَ!"

أعرب (دوميساني) عن امتنانِه بينما ضحكَ (هوليساني) قائلًا:

"لقد شكرتَني بالفعل.. حسابي في البنك أصبحَ عامرًا!"

"لكن لماذا عليك المُغادرة الآن؟"

"زوجتي تنتظرُني.. لا أحبُّ أن أتأخَّر عليها!"

"باللهِ عليكَ يا هولي.. لقد اعتدت المُغادرة في السادسة صباحًا في زواجاتك السابقة".

"أعرف هذا لكنَّ الأمر مُختلف الآن، أنا أحب بورشا للغاية وأرغب في قضاء الوقت معها".

تنهَّد (دوميساني):

"لقد فارقَني هذا الشعور منذ وقت طويل".

أشار (هوليساني) للنَّادل كي يُحضر لهما الفاتورة وقال:

"الحياة قصيرة للغاية!"

بعدما غادر (هوليساني) قرَّر (دوميساني) الاتِّصال بكريستين

التي ردَّت عليه بنبرة قلق.

"هل الأطفالُ بخير؟"

"كل شيء بخير! أردت فقط الاطمئنانَ عليكِ.. هل أنتِ بخير؟"

ساد الصمت لعدة ثواني، لم تعرف (كريستين) كيفيَّة الرَّدِّ على أسلوبِه هذا، خاصَّةً أنَّها اعتادت مُؤخرًا على غلاظتِه.

"أنا لست بخيرٍ يا كريستين.. أفتقدُكِ وأفتقدُ علاقتَنا وأفتقد التَّحدث معكِ!"

لا ردَّ..

"لقد كنت أفكِّر كم أنتِ مُحقَّة، لقد أصبحت هذا الشخص الذي لا أعرفه، كما أنَّه من غير العادل ألا تَري الأطفال.. سأرسلُهم لكِ في الكريسماس، بل وربَّما أحضرُ معهم".

بدأت (كريستين) في البكاء بحرقةٍ عبر الهاتف.

"كلُّ شيء سيصبح على ما يُرام.. أعدكِ!"

أغلق الهاتف وهو لا زال يُفكر في الماضي الذي لا يستحق حتَّى التَّفكير فيه، راودته فكرةُ إعادة النَّظر في زواجه الحالي وكم كان كان مُتعلِّقًا بحُبِّ (نوموندي)، لا شكَّ أنَّ بإمكانه إشعال الشرارة بينهما مُجددًا. قرَّر المُغادرة أخيرًا، أمسك بمفاتيح سيَّارته وهرع خارج الحانة، استمعَ إلى ستَّة رسائل صوتية أثناء القيادة، ثلاثة من (نوموندي) واثنين من أبنائه وواحدة من أمِّه. قرَّر التَّوقُّف في متجر (فوركورت) المفتوح حتَّى وقت مُتأخر ثمَّ اشترى الشيكولاتة وأزهار النَّرجس.

سلك طريق (ريفونيا) وهناك لاحظ سيارة (فولكس جولف) تتبعه، تجاهلها ورفع صوت الموسيقى في سيارته وسرعان ما أصبح على الطريق السريــع قائدًا سيارته بسرعة فائقة. تجاوزَ منطقة (ووترفول) وتعجَّب لو أنَّ عليه شراء منزلٍ هناك، لطالما أحبَّ هذه المنطقة وربَّما يتمكَّن الآن بعد تركه للعمل أن يقضي المزيد من الوقت مع أطفاله، بعدما تنتهي السنة الدراسية خلال أسبوعين من الآن.

بات يُفكِّر في أطفاله، (سيفو) يرغب في أن يصبح قائدًا لسيَّارات السباق أما (سيليندیل) فأرادت أن ترقص الباليه، (موندلي) ذي الثَّلاث سنوات يرغب في أن يُصبح رسَّامًا أما (شانتي) فيستحيلُ أن يعرف طموحاتِه للمُستقبل في مثل هذا العمر المُبكِّر؛ فكّر أي من أبنائِه سيتبع خُطاه نحو الثَّراء.

نظر في المرآة ليجد أن نفس السَّيَّارة لا زالت تتبعُه، قرَّر تهدئة سرعته وروعِه قليلًا عندما تجاوزته السَّيَّارة، لكن فجأة توقَّفت أمامَه مُجبرةً (دوميساني) على كبح سيَّارته بقوة، أطلق اللَّعنات وأراد التَّرجُّل من سيَّارته إلَّا أنَّ رجلَين مُقنَّعين خرجا منها حاملَين المسدسات. خرج (دوميساني) من السَّيَّارة رافعًا ذراعيه لأعلى في استسلام.. دوَت رصاصة في الهواء.

"أرجوكَ.. خذوا السَّيَّارة ولا تؤذوني!"

شعر بالضَّعف وقلَّة الحيلة، فقد السَّيطرة على جسده وبدأ في غمغمة صلوات غير مفهومة.

"أُقتلْه!"

صرخ أحد الرَّجلين، تعرّف (دوميساني) على الصَّوت.. كان ليتعرَّف عليه في أي مكان.

"مالومي جاكسون! إنَّه أنا.. دوميساني!"

دوى صوت الرصاص مُجدَّدًا.. ثلاث طلقات سريعة غطَّت على صرخات (دوميساني) والرَّصاصات تخترق لحمَه. على الأرجح أنَّه سيتصدر عناوين الصحف في الغد، سيُدفن ويُنسى سريعًا في غضون عام من الآن.. سيُصبح حادثًا تراجيديًا آخر لا أكثر.. مُجرَّد إحصائيَّة جديدة في السِّجلّ السَّنوي للجرائم في (جنوب إفريقيا).

39

وقف (ميلوزي) أمام الجراج وهو يوجِّه رجاله لتحميل البضائع في الشاحنات، جميع شاحناته تحمل شعارَ النسر واسم شركته (أسامبيني للنَّقل). لقد أصبح قادرًا على الانتباه لجميع البضائع والأغراض المُفترض نقلها، لم يكن ليتحمل فقدان أي منها قبل النقل، فهو الآن يُدير عمليات تُقدَّر بالملايين ولم يعد يُشارك في حمل البضائع بنفسه، بل بات مشرفًا على الأمر لا أكثر، كان ينقل الإلكترونيات والكُحوليَّات والمواد الكيميائية والأطعمة.

حكَّ (ميلوزي) بطنه المُتدلِّية أمامه، لقد زاد خمسة عشر كيلوجرامًا في الخمس سنوات الفائتة، ولم يتوسَّع فقط في عمله بالنقل بل توسع أيضًا في عمله بالعقارات؛ أصبح لديه عشرة شُقق في (هيلبرو) وعلى الرغم من كونِها شُقَقًا غير مُميَّزة إلا أنَّ إيجارَها الشَّهري كان السَّبب في زيادة رصيده البنكيِّ.

"توخَّ الحذر مع هذا التلفاز".

كان تلفازًا مُتطوِّرًا تكلفتُه قُرابة العشرة آلاف راند، لذا لا داعي لتحمُّلها إذا ما تعرَّض للكسر أو الخدش. اقتربت منه امرأة وناولته حقيبةً بلاستيكيَّةً مليئةً بجوازات السّفر الخضراء وهي تقول:

"كدتَ أن تنسى!"

كان يأخذ جوازات السَّفر عبر الحدود من أجل ختمِها بحيث يُصبح حامل الجواز وكأنَّه غادر البلاد في الوقت المُحدَّد لتأشيرة إقامته ذات الثلاثة أشهر، أغلب أصحاب هذه الجوازات يعملون في (جنوب إفريقيا) دون التَّصاريح المَطلوبة. كان هذا

عملًا مستقلًا يحصل فيه على ألف راند من الفرد وألفَين ممَّن تجاوزت تأشيرتُه المُدَّة المُحدَّدة، إذ يتوجَّب عليه ختم الجواز بتاريخٍ مُسبقٍ وهو ما يرفع التَّكلفة، لقد نجح (ميلوزي) في توطيد العلاقات مع بعض مسؤولي الجوازات عند الحُدود طالما يدفع لهم القدر المُناسب ثمنًا لعلاقتِهم.

"شكرًا يا حبيبتي!"

شكرها وهو مُمتنٌّ لدِقَّتها، سألَته:

"إذًا متى ستأخذُني معكَ إلى زيمبابوي لمُقابلة والدَيكَ؟"

"قريبًا يا حبيبتي!"

تفحَّصته (لونجيل) مُتشكِّكة، كان هذا ردُّه على مدار ثلاث سنوات حتَّى شكَّت عائلتها بأنَّ لديه زوجة في (زيمبابوي).

"قريبًا متى؟"

شعر (ميلوزي) بالانزعاج، لم يكن يُحبُّ تقديم التبريرات خُصوصًا في نقاشاته مع (لونجيل)، لقد تقابلَا منذ عدَّة سنوات لتُصبح واحدةً من رفيقاتِه المُتعدِّدات اللاتي أنجب منهنَّ، لم يرغب (ميلوزي) أن تنشأ ابنتُه وحيدة لذا قرَّر أن يعيشا معًا إلَّا أنَّ (لونجيل) كانت تُذكِّره دائمًا بضرورة الزَّواج منها بينما يُخبرها هو أنَّه غير مُستعدٍّ بعد. امتعضت (لونجيل) أمام (ميلوزي) غير المكترث بمشاعرِها، مدَّ يدَه في جيبه وناولَها بطاقتَه البَنكيَّة التي أنارَت وجهَها على الفور.

"اشتري لنفسكِ شيئًا جديدًا، وللطِّفلة أيضًا".

مسحت على قميصه بلطفٍ بينما تُقبِّله بحنان على وجنتِه.

كان (ميلوزي) يقضي ثلاثة أيّام من كلّ أسبوع في (زيمبابوي) وأربعة في (جنوب إفريقيا)، كان يبني منزلًا كبيرًا في موطِنِه الأصليّ، وقد شاركها الصور على هاتفه بل ساعدَته في اختيار الأثاث والديكورات، كانت ترى من وجهة نظرها أن (زيمبابوي) تلك التي تراها بعيني (ميلوزي) تختلف تمامًا عن (زيمبابوي) الفقيرة المُتهالِكة التي تراها في الأخبار والتي يحكُمها ديكتاتورٌ تسبَّب في انهيارِ اقتصادِها.

لاحقًا على الطريق كان (ميلوزي) مُنهكمًا في التَّفكير، متى سيحينُ الوقت الذي يتوقَّف فيه عن القيادة بنفسِه؟ كان يعرف أن علاقاتِه التي بناها مع مسؤولي الجوازات تتطلَّب أن يتصدَّر بنفسه عمليَّة النَّقل عبر الحُدود.

وصل هناك في حُدود السَّابعة مساءً، كان يتعمَّد إتمام المَهمَّة في أحضان اللَّيل الذي يُعتبر ستارًا مناسبًا لعمليَّاتِه غير المشروعة. اجتاز الحُرَّاس عند البوابة، كان على دراية بأسمائِهم الأولى على الأقل، ثمَّ بحث عن مكانٍ ليقف بسيَّارته وسطَ الزُّحام الشَّديد الذي يستمرُّ طيلة اليوم بغضّ النَّظر عن الوقت.

ترّجل من السَّيَّارة وقد وضع حقيبة الجوازات أسفلَ إبطِه، اجتاز الصَّفَّ الطَّويل وسطَ غضب المُنتظرِين حتَّى وصل إلى الحارس عند المُقدِّمة؛ ليحاول منعه من دخول مكتب الجوازات، صاح (ميلوزي):

"ألا تعرف من أنا؟"

اتَّهمه الحارس بمُحاولة تجاوز الصَّفّ واستمرَّ جدالُهما حتَّى فُتِح باب المكتب وأشار أحد الضباط بالإذن لدخوله، امتعض

الحارس وسمح له بالدُّخول بينما عاد هو للصِّياح في غيره من المُنتظرين.

دلف (ميلوزي) إلى مكتب الجوازات، أومأ مبتسمًا لمسؤولة الجوازات التي بادلَته الابتسامة، ناولها جواز السفر الأوَّل ثمَّ طلبَت منه دُخول المكتب الجانبي فأطاعَها. جلس (ميلوزي) في الدَّاخل مُنتظرًا انتهاء عمليَّة ختم الجوازات، كان مُقدِّرًا انشغالَهم الزائد في نهاية الأسبوع كما هو مُعتاد، بعد قليل حضر رئيس قسم الجوازات وفي يده الختم المطلوب، أعطاه النُّقود من أسفل طاولةٍ عاليةٍ، هنا لا تُوجد تحويلاتٌ بنكيَّة بل يتمُّ الأمر وفقًا للدَّفع الفوريّ.

بدأ الضابط المسؤول في ختم الجوازات، كاد أن ينتهي منها قبل أن ينفتح الباب على مصراعيه ويدخل مجموعة من الحرس المُسلَّحين، قفز (ميلوزي) من المُفاجأة وقبل أن يدرك الأمر ألصقُوا وجهَه بالحائط، كبَّله أحدُهم من الخلف وفعلوا نفسَ الأمر مع ضابط الجوازات إلى جوارِه.

"أنتَ مقبوضٌ عليكَ بتُهمة الاحتيال على قانون الهجرةِ رقم ثلاثة عشر للعام ألفَين واثنَين.."

40

أمسكت (سيبونجيل) يدَ ابنتِها الباردة، كان ذراعها مليئًا بالكدمات النَّاجمة عن الوخز بالإبر، امتدَّ أُنبوبٌ للتَّغذية الوريدية بطول ذراعها، لقد أخبرَتها المُمرِّضة منذ قليل أنَّ حالتها لا تُبشِّر بالخير.

"ما بها؟"

كرَّرت (سيبونجيل) سؤالَها لكن لا أحد أجابها إجابةً حاسمة، أخبرها أحد الأطباء أن (شيناي) تُعاني من عدوى شديدة مجهولة السَّبب، بينما لمَّحت إحدى المُمرِّضات أن السَّبب قد يكون الإيدز، تحضر الكثير من النساء في مُقتبل العمر وقد تغلَّب عليهنَّ الفيروس الذي حصلنَ عليه من المُخدِّرات كما تقول المُمرِّضة.

لم تفهم (سيبونجيل) أيًا من كلامهم، حاولت دون جدوى أن تتواصل مع (شيناي) الرَّاقدة كالجُثَّة أمامها. قضت الأيام والليالي بجوار فراشها وهي تُصلِّي من أجلِها عدا أنَّ ابنتها لم تكن واعيةً بما تفعل، واصلت (سيبونجيل) صلواتها على أمل أن يُنقذ الرَّبُّ حياة ابنتِها، كيف لها هي الأمُّ أن تدفن طفلَيها بنفسِها؟

كانت (شيناي) على وعي بوجود والدتها إلى جانبها إلَّا أنَّها لم تكن قادرة على التعبير عن آلامها المُبرِّحة، لم يخبرها (كايين) بقدر الألم الذي ستعاني منه نتيجةً لاستئصال كليَتها؛ مرَّ أسبوعان ولا زال الألم مُتمكِّنًا منها. كانت تنزفُ بلا رحمة وتمكَّنت العدوى من جسدها، شعرَت بأنَّ حياتَها تنسلُّ منها يومًا بعد اليوم، إلَّا أنَّ أخاها كان على الجانب الآخر في انتظارها مُشجِّعًا إيَّاها على الانضمام إليه. وقف (شامو) أمامَها بابتسامةٍ مُشرقةٍ يُطمئنُها أنَّ

كلَّ شيء سيُصبحُ على ما يُرام، كان كما عهدَته قديمًا لا في هيئته المُحترِقة، ارتدى الأبيض النَّاصع وزَيّنَت خصلات شعرِه وجهَه.

"أرجوكِ لا تتركيني.. يا يسوعُ بارِك في صحَّتها".

غمغمت (سيبونجيل)، جثت على ركبتَيها ورفعت يديها للسَّماء تتضرَّع للرَّبّ. سمعَت صرخة مُدوِّية بالمشفى، لم تكن آتية من (شيناي) الرَّاقدة لذا قرَّرت أن تتبع مصدرها، هرعت خارج الغرفة نحو الرّدهة حيث فتاة صغيرة منزوية في أحد الأركان كالكلب المُرتعِد.

"لا بأس يا طفلتي.. ماما هنا.. أنا هنا!"

"أريدُ جوجو.. أين جوجو؟ الوحوش قادمة من أجلي.. ساعدوني.. أريدُ جوجو!"

كان هناك حشدٌ من المُتفرِّجين، دفعَت (سيبونجيل) بنفسِها وسطهم لتتمكَّن من مُراقبة المُمرِّضات تُخدرن الفتاة لتهدئتها، شاهدت (سيبونجيل) المشهد في تأثُر شديدٍ بينما تحتضنُ تلكَ الأمُّ ابنتَها، كانت لحظة في غاية الحميمية.

"ماذا يحدث؟"

سألت (سيبونجيل).. تنهَّدت مُمرِّضة وهمسَت في إذنها:

"هذه الطِّفلة وجدوها في غرفةٍ بفندق وقد امتلأ جسدُها بحروق السَّجائر.. لقد تعرَّضت للاغتصاب عدَّة مرات".

عرِفت أنَّ هذه الطفلة لا تعرف إلا اسمَها واسم جدَّتها، وأنَّ هؤلاء الوحوش الذين ذكرَتهم قد فعلوا بها أمورًا شنيعة. هزَّت (سيبونجيل) رأسَها غير مُصدِّقة وسالَت الدُّموع على وجنتَيها،

حاولَت التَّدبُّر في محنة هذه الطفلة التي لا بدَّ وأن عانَت بشدَّة؛ شتَّتها ذلك للحظات عن ألمها الحقيقيِّ الذي تشعرُ به بسبب ابنتها المكلومة.

هرعت مُمرِّضة أخرى عبر الردهة صائحة:

"المريضة في السرير تسعة عشر.. أحضروا الطَّبيب فورًا".

إنها (شيناي).. هي المريضة في السرير تسعة عشر، تبعتها (سيبونجيل) بجنون نحو غُرفتِها، راقبَتهم دون فهم وهم يحاولون إنعاش قلب (شيناي) لكنَّ روحَها قد فارَقت الغُرفة الباردة ورحلَت عن جسدها. استسلم الطبيب بينما رفعتِ المُمرِّضة الغطاء على وجه (شيناي) وأمرَت الجميع بمُغادرة الغُرفة.

انهارت (سيبونجيل) في الردهة وهي تبكي بحُرقة، وفي وسط مأساتِها أحسَّت بيدٍ تشدُّ على كتفها.

"لا بأس يا أمي.. كلُّ شيء سيُصبح بخير".

ارتفعَت عينا (سيبونجيل) لتواجه الأمَّ التي كانَت تحتضنُ الطِّفلة منذ قليل.

"لقد فقدتُ ابنتي.. وأنا بعيدةٌ تمامًا عن وطني.. ليس لديَّ أحدٌ هنا.. لا أحدا!"

اقتربَت منها المرأة وسألَتها:

"من أين أنتِ يا أمي؟"

"زيمبابوي.. لقد حضرت إلى هنا في أوائل التسعينات، اعتقدتُ

أنَّ أبنائي سيحظَون بحياةٍ أفضل هنا.. إلّا أنَّ الاثنَين قد ماتا.."

مسحت (سيبونجيل) وجهَها محاولةً تبنّي الشجاعة، ردَّت المرأة:

"كدتُ أفقد طفلتي أنا أيضًا.. ظننتُ لسنواتٍ أنَّها قد ماتَت؟"

"ماذا حدثَ لها؟"

اقتربَت المرأة أكثر، نظرَت حولَها ثمَّ همسَت:

"لقد جئتُ إلى جوهانسبرج عام ألفين وواحدٍ للانضمام إلى زوجي.. تركتُ ابنتي مع والدَتي لحين تتيسَّر أمورُنا هنا، لم يكن لابنتي جواز سفر؛ لذا دفعت لشخصٍ ما أعرفُه لينقلَها معه عبر الحُدود.. قبل وصولها بيوم تعرَّضت بنايتُنا لغزو الشرطة، قبضوا على جميع من فيها من أجانب وقضينا أنا وزوجي أسبوعَين تقريبًا في مركز التَّرحيلات في لينديلا".

توقَّفت عن الحديث لثواني وهي تلتقطُ أنفاسَها، كان من الواضح أنَّها تعيش أجواء ما تعرَّضت له مرةً أخرى ثمَّ أكملت سردَها:

"عندما خرَجنا وبحثتُ عن ابنتي، أخبروني أنَّها قد ماتَت غرقًا في النَّهر.. تسبَّب ذلك في انهيار والدَتي، ماتت بعدها بعدَّة أسابيع، أعتقد أنَّها ماتت من كسرة القلب. أمَّا أنا فظننتُ أنَّ ابنتي ماتَت حتَّى الأسبوع الماضي.. وأنا أُشاهد نشرة الأخبار.. عرفت أنَّها هي".

"شُكرًا للرَّبِّ أنَّكِ وجدتِ ابنتكِ".

اقتربت منها (سيبونجيل) وعانقَتها.

"يقولون أنَّ الرَّبَّ يُعطينا ما يأخذُ منّا، لكن لا أفهم لماذا يجعلُنا نعاني؟ لماذا نحنُ هنا؟ لماذا؟"

هزَّت المرأة كتفَيها وقالَت:

"لقد توقَّفت عن مُحاولة الفهم.. تعلَّمت أن أتقبَّل الأمور كما هي. أنا مُضطرَّة للذَّهاب لأكون بجانب ابنتي.. هي في حاجة لي".

في مشفى آخر بجناحٍ خاص، في مِنطقةٍ أخرى من (جوهانسبرج) استلقى (دوميساني) في فراشه وهو يقرأ الجريدة..

عُثِر على فتاة صغيرة في الحادية عشر تقول أنَّ اسمها جوجوليثو، تمَّ العثور عليها في غرفة فندق مهجورة بجوهانسبرج بواسطة عاملة التَّنظيف بعد أن تُرِكت للموت، أنقذتها شهامة العاملة. يُعتقد أنَّ الطِّفلة ضحيَّةٌ لدعارة الأطفال وهي الَّشبكة المُتنامية في جوهانسبرج وتبيع الطفل في مُقابل يتراوح بين ألفين وخمسمئة وحتَّى عشرة آلاف راند..

لم يستكمل القراءة بل ألقى بالجريدة جانبًا وهو يسأل:

"ألا يوجد أي خير في هذا العالم؟"

"نعم هناك.. الخير أنَّكَ تتحسَّن؛ يقول الأطباء أنَّك ستُغادر قريبًا".

"متى؟ أُريد العودة للمنزل!"

"أنا أيضًا أُريد عودتَك للمنزل.. أنا آسفة لما حدث يا دوميساني".

أعربت (نوموندي) عن أسفِها باكية، كانت سريعة البكاء هذه الأيام. شدَّ (دوميساني) على يدها قائلًا:

"أنا بخير الآن".

"كلُّ هذا خطئي!"

"كيف يكون خطأكِ؟"

"لو لم نكن نتشاجر كثيرًا لكنتَ عُدت إلى المنزل على الفور".

شدّت على يده، كانت ترغب في الاعتراف بكونها عاملًا أساسيًا في المُخطَّط الذي كاد أن يُودي بحياته، إلَّا أنَّها تعرف أن اعترافًا كهذا سيتسبَّب في إنهاء علاقتهما لا إعادة بنائِها من جديد.

لقد مرّ ثلاثة أسابيع منذ الحادثة، تعرَّض (دوميساني) لثلاثة طلقات نارية كادت أن تقتله إلا أن مُعجزةً ما أنقذته؛ يقول الأطبَّاء أنَّ أحد الرَّصاصات كادت أن تُصيب عمودَه الفقري. نشرَت الصُّحف أسماء المُتَّهمين، (جيڤمور إنكوبي) والذي تمَّ القبض عليه وفي انتظار مُحاكمتِه، والثَّاني هو (جاكسون مدلولي) المعروف باسم (مالومي جاكسون) والذي تمَّ قتله بالرَّصاص في موقع الجريمة أثناء محاولته الهرب. شعرَت (نوموندي) بالراحة عندما علمَت بمقتله، فآخر ما ترغب فيه هو أن يتمَّ الربط بينها وبين شخصٍ مثله.

أدركت (نوموندي) أنَّها لا ترغب في موت (دوميساني)، كلُّ ما كانت ترغب به هو مُعاقبته على نزواته المُتكررة. لقد عانى كثيرًا في الأسابيع الفائتة، أمَّا هي فقضَت الوقت مع والدتها (يوندي) في الكنيسة تُصلِّي من أجله، تضرَّعت للرَّبِّ على أمل أن يُنقذ حياتَه ويجعلهَا زوجةً أفضل.

كانت آسفة لما فعلت، شعرت بالخزي من نفسها، لم تكن لتتخيَّل أن تُغامر بحياة زوجها على هذا النَّحو.

"هل تتذكَّرين عندما تقابَلنا ووقَعنا في الحُبِّ في المشفى؟"

أومأت (نوموندي) وتذكَّرت عملِها كمُمرِّضة، كانَت تقضي الوقت بين الرّدهات حتَّى يتشقَّق كاحلُها، كانت شغوفةً وعطوفةً ومُجتهدةً، كانَت شخصًا ألطف بكثير من الآن.

"تعرفين يا نوموندي.. لقد وقعتُ في حُبِّكِ مُجدَّدًا.. كل يوم وأنتِ هنا إلى جانبي".

لمسَت (نوموندي) جبهتَه وهي تتساءَل إن كان كلامُه نابعًا من قلبِه أم من تأثيرِ الأدوية.

"أنا أفتقدُ ذلكَ الإحساس يا نوموندي.. أفتقدُكِ!"

قبَّلته (نوموندي) بحُبٍّ وقالَت:

"أعدُكَ أنَّ الأمور ستختلفُ منذ هذه اللَّحظة".

ابتسم (دوميساني) وقد عقد عزمه على إصلاح علاقتِهما، كان مُؤمنًا بأنَّ الحياة مَنحتهُ فُرصةً ثانيةً. أمسك يَدَيها وتبادَلا نظراتٍ طويلةً مُمتلئَةً بالتَّطلُّع لمُستقبلٍ جديد.

كان على (سيبونجيل) أن تدفنَ ما تبقَّى من ماضيها الأليم، أرسلَت خبرَ وفاة (شيناي) لكلِّ من في قائمة الاتِّصال بهاتفها، راسلَها البعض مُعربين عن حزنِهم وتعازِيهم، أمَّا (دوميساني) فاتَّصل بها ليخبرَها أنَّه غير قادر على حُضور الجنازة، إلَّا أنَّه أرسل لها خمسةَ عشر ألف راند لمُساعدتِها في تغطية نفقات الجنازة.

دُفِنت (شيناي) إلى جانب رُفات أخيها في مقابر (شياويلو)، حضر القليل من النَّاس إلى الجنازة من بينهم السَّيِّد والسَّيِّدة (هيرش) الذين اشترَوا بنَفسهم التَّابوت ودفعوا نفقات الجنازة،

تمامًا كما فعلوا منذ عدَّة سنوات في جنازة (شامونوروا).

حضرت (كوني) و(ميلي) و(باتريشيا) و(روو) لدعم صديقتِهم، ارتدَين الأسود حدادًا على روح (شيناي). بعدها اصطبحوا (سيبونجيل) إلى منزل عائلةِ (هيرش) حيث انضمُّوا لها في سكن الخدم، أحضرت (روو) ثلاث زجاجاتٍ من النَّبيذ، شربوها في أكواب المشروبات العاديَّة وسُرعان ما تبدَّلت الدُّموع بضحكاتٍ عابرةٍ.

فكّرت (سيبونجيل) كيف أنَّها جاءت إلى هنا بحثًا عن قدرٍ من الذهب على طرفِ قوسِ قزحٍ، هي لم تجده أبدًا، إلَّا أنَّها وجدت شيئًا غيره أكثر قيمة.. صداقاتُها تلك هي الكنز الحقيقيُّ. ها هي مُحاطة بقوس قزحٍ من النِّساء اللَّاتي أحببنَها.

في تلك اللَّحظة لم تهتمَّ (سيبونجيل) لكونها من (زيمبابوي)، اهتمَّت فقط بوجودهنَّ إلى جانِبِها في تلك المِحنة، كان هذا الذَّهب الحقيقيُّ في قلب تلكَ المدينة اللَّامعة.. (جوهانسبرج).

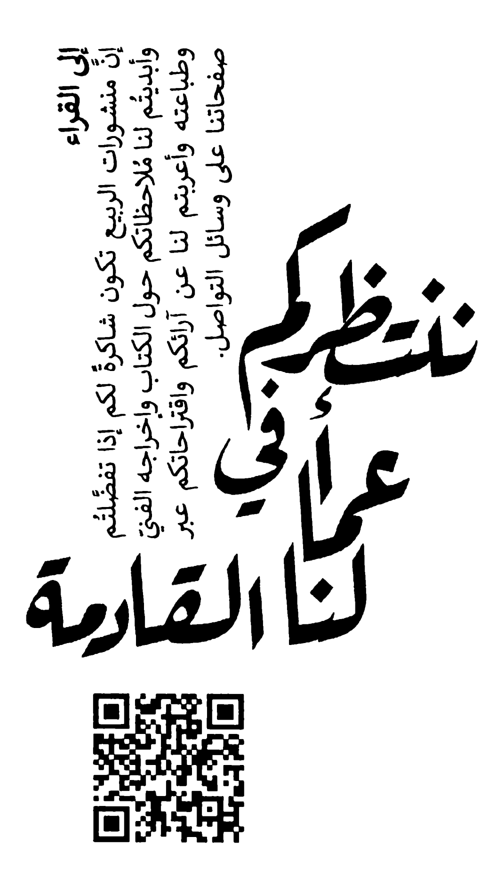


سو نياثي

كاتبة روائية وُلِدت في (بولاوايو) وانتقلت للعيش في (جوهانسبرج). تكتب (سو) هربًا من الواقع والحياة العملية وحتى تحكي القصص لابنها في الليل، وقد نشرت روايتها الأولى (مُتعدد الزوجات) عام 2012. شاركت (سو) في كتابة السيناريو لمسلسلات جنوب إفريقية شهيرة.
ترشحت روايتها (الباحثات عن الذهب) لجائزة الإنجاز الأدبي في (زيمبابوي) عام 2019، كما وصلت للقائمة الطويلة لجائزة (دوبلين) الأدبية في نفس العام.

المترجم طارق نادر

كاتب ومُخرج مسرحي مُستقل، أسس فرقته المسرحية الخاصة بالإسكندرية في مارس 2011. يعمل في مجال الإدارة الثقافية خاصةً المشاريع التي تدعم حقوق المرأة والأقليات. كما يعمل مُترجمًا حُرًّا ومُدربًا في مجال ريادة الأعمال الإبداعية، كذلك يعمل في تيسير ورش عمل مختلفة في الكتابة الإبداعية والمسرحية.


إلى القراء
إنّ منشورات الربيع تكون شاكرة لكم إذا تفضّلتم وأبديتم لنا ملاحظاتكم حول الكتاب وإخراجه الفني وطباعته وأعربتم لنا عن آرائكم واقتراحاتكم عبر صفحاتنا على وسائل التواصل.
ننتظركم في أعمالنا القادمة